

الوصايا في الأدب الأندلسي

إعداد

حذيفة عبدالله عزام

المشرف

الأستاذ الدكتور صلاح جرار

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
في اللغة العربية وآدابها

كلية الدراسات العليا

الجامعة الأردنية

حزيران، ٢٠٠٧

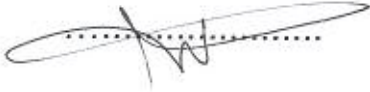
تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التاريخ: ٢٠٠٧.٠٤.٠٤

٢٠٠٧

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة " الوصايا في الأدب الأندلسي " وأجيزت بتاريخ ٢٠٠٧/٥/٣

التوقيع



أعضاء لجنة المناقشة التوقيع

الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار ، مشرفاً
أستاذ - الأدب الأندلسي
الجامعة الأردنية

الدكتور محمد علي أبو حمدة، مناقشاً
أستاذ مساعد - النقد الأدبي
الجامعة الأردنية

الدكتور حمدي محمود منصور، مناقشاً
أستاذ مشارك - الأدب الجاهلي
الجامعة الأردنية

الدكتور فايز عبد النبي القيسي، مناقشاً
أستاذ مشارك - الأدب الأندلسي
جامعة مؤتة

تتعمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع: ٢٠٠٧/٥/٣

ب

الإهداء

إلى روح أبي الطاهرة رحمه الله تعالى ..

إلى أمي الغالية حفظها الله تعالى ..

أهدي بحثي هذا ..

شكر وتقدير

قال تعالى: " ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين " النمل الآية (١٩)

أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان إلى كل من مدّ يد العون لي ، وساعدني في إنجاز هذه الرسالة ، وأخص بالشكر أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور صلاح جرار الذي حاطني بعلمه، ولم يأل جهداً ووقتاً في توجيهي لإخراج هذه الرسالة .

وأتقدم بالشكر الجزيل إلى السادة أعضاء لجنة المناقشة : الدكتور محمد علي أبو حمدة، والدكتور حمدي منصور ، والدكتور فايز عبد النبي القيسي .
لهم مني جميعاً كل الشكر والتقدير.

حذيفة عبد الله عزام

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ	قرار لجنة المناقشة
ب	شكر وتقدير
ج	الإهداء
د	فهرس المحتويات
هـ	الملخص باللغة العربية
١	مقدمة
٥	تمهيد
٢٧	الباب الأول: الوصايا النثرية في الأدب الأندلسي
٢٩	الفصل الأول : موضوعات الوصايا النثرية
٣١	المبحث الأول : الوصايا الدينية
٣٦	المبحث الثاني : الوصايا الاجتماعية
٤٢	المبحث الثالث : الوصايا السياسية
٦١	الفصل الثاني : خصائص الوصايا النثرية
٧٠	الباب الثاني: الوصايا الشعرية في الأدب الأندلسي
٧٢	الفصل الأول : موضوعات الوصايا الشعرية
٧٣	المبحث الأول : الوصايا الدينية
٩٧	المبحث الثاني : الوصايا الاجتماعية
١١٤	المبحث الثالث : الوصايا السياسية
١٢١	الفصل الثاني : خصائص الوصايا الشعرية
١٣٢	الباب الثالث: دراسة تطبيقية لوصيتين اندلسيتين
١٣٥	الفصل الأول : وصية لسان الدين بن الخطيب النثرية لأبنائه
١٥٩	الفصل الثاني : وصية أبي مروان الجزيري الشعرية لأبنائه
١٩٢	الخاتمة
١٩٤	المصادر والمراجع
٢٠١	الملخص باللغة الانجليزية

الوصايا في الأدب الأندلسي

إعداد الطالب
حذيفة عبدالله عزام

المشرف
الأستاذ الدكتور صلاح جرار

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في الوصايا في الأدب الأندلسي من ناحيتي الشكل والمضمون، والكشف عما يميز هذا الفن عن غيره من موضوعات الأدب الأخرى، وبيان خصوصيته من حيث الظرف العام، وعلاقته بحياة المجتمعات والأفراد على حد سواء ومعرفة ما يختص به على مستوى المبنى والمعنى، ثم تحديد الموضوعات العامة التي ينتظمها، ثم أشهر أعلام هذا الفن من الكتاب والشعراء، وصلته بالأدب المشرقي والتاريخ العربي بالإضافة إلى علاقته بالدين.

وقد جاءت الدراسة في مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

جاء التمهيد ليقدم بين يدي الدراسة بشيء عن تاريخ الوصايا في الأدب العربي، وليقدم بعض وصايا العرب في المشرق عبر عصور الأدب المختلفة، ثم يبين علاقة ذلك بالأدب الأندلسي ويكشف النقاب عن كتاب الوصايا الأندلسيين، ويبين أهم موضوعات الوصايا مثل الباب الأول الوصايا النثرية في الأدب الأندلسي وقد انتظمه فصلان: الأول تناول موضوعات الوصايا النثرية، وقد امتد ليشمل مباحث ثلاثة هي الوصايا الاجتماعية والدينية والسياسية، وجاء الفصل الثاني قصيراً ليتحدث عن خصائص الوصايا النثرية بشكل عام.

وتناول الباب الثاني الوصايا الشعرية في الأدب الأندلسي وقد جاء في فصلين الأول استغرق ثلاثة مباحث تحدثت عن موضوعات الوصايا الشعرية الدينية والاجتماعية والسياسية، وجاء الفصل الثاني من هذا الباب للحديث عن الخصائص الفنية للوصايا الشعرية.

ومثل الباب الثالث دراسة فنية لوصيتين أندلسيتين وقد جاء في فصلين: الأول خُصص لتحليل وصية لسان الدين بن الخطيب لأبنائه، وبيان مضمونها، وتحليل مبناها. والفصل الثاني أفرّد لتحليل وصية أبي مروان الجزيري لأبنائه في مبناها ومعناها.

ثم جاءت الخاتمة لتبين أهم ما توصلت إليه الدراسة من نتائج.

ومن خلال العرض توصلت الدراسة إلى أن أدب الوصايا في الأندلس، فن مستقل قائم بذاته يعالج موضوعات خاصة، ويقدم مضمونه على نحو مخصوص على مستويات التركيب واللغة والجملة والكلمة المفردة، ثم إنه فن له أعلامه الذين ساهموا في الفنون الأدبية الأخرى، وهو فن انتظم الشعر والنثر على حد سواء.

مقدمة

الحمد لله بارئ الثقيلين، والصلاة والسلام على جد السبطين وعلى آله وصحبه الطيبين،
وبعد.

فإن الدارس لتراث هذه الأمة لا يستطيع وهو يقرب الصفحات ويغوص بين السطور والكلمات إلا أن يعترف بعظمة هذا التراث، وعبقورية العقول التي أنتجته، وإبداع الأيدي التي خطته، وليس الغرض من وراء هذه الدراسة إثبات المنزلة الرفيعة لهذا التراث وأصالته؛ إذ لا يتسع الميدان لذلك، ولكنها قراءة في فن أدبي انتظم النثر والشعر على حد سواء، ونما وازدهر في بيئة الأندلس؛ فقد كان لاختلاف حياة العرب في الأندلس في بداية توطيد أركان الدولة واستقرارها ثم انهيارها أثر في تشكل تجارب ذاتية وعامة للإنسان الأندلسي تنوعت بتنوع المكان والزمان والظروف المحيطة به، واختلفت باختلاف العوامل الرافدة لها، تأثرت بعلم المشرق والحياة الأندلسية الخاصة، وظروفها في الاحتكاك بالأمم والثقافات الأجنبية، وتباين الخبرات الإنسانية فنشأ فن الوصايا تقليداً وإبداعاً سياسياً واجتماعياً ودينياً؛ إذ استمر الخلفاء يوصون رعاياهم وأبناءهم، وبإدخال بعض الرعية من العلماء والمقربين الخلفاء الوصايا فيما يستجد به الحال في شؤون الدول والحكم، ووصى الآباء والأمهات أبناءهم، ووصى الخطباء والوعاظ العامة في الأندلس كما وصى غيرهم منذ العصر الجاهلي.

وتأخذ هذه الدراسة على عاتقها دراسة فن الوصايا في الأدب الأندلسي؛ وتتطلب من كون الوصايا حاجة اجتماعية وسياسية ودينية تنتقل بها الخبرات الإنسانية من جيل إلى جيل ومن السلف إلى الخلف.

أما الهدف فهو دراسة هذا الفن الأندلسي، وتناوله بالتحليل والنظر في موضوعاته ومضامينه وسبر أغواره وكيفيات الخطاب فيه؛ إذ تفترض هذه الدراسة أن كتاب الوصايا يلجأون إلى استخدام اللغة على نحو مخصوص، ويحشدون خبراتهم الذاتية، ويفيدون من تجارب الآخرين، ويتوسلون بالشاهد القرآني، والحديث النبوي الشريف، والأقوال، والأمثال، والأشعار، والنصوص المأثورة.

أما الإطار الذي اجتهدت الدراسة في التزام حدوده، فهو استقراء عينات من الوصايا السياسية والدينية والاجتماعية في النثر والشعر، وتحليلها، وتصنيفها، وبيان مضامينها، ثم كشف النقاب عن خصائصها الفنية، والدراسة إذ تسعى لتحقيق ذلك تتوسل بالمنهج النقدي المختلف حيثما اقتضى الأمر ذلك.

ولم أقف على دراسة من قبل تعرض لهذا الموضوع تفصيلاً، فقد تعرّض بعض الدارسين لجزئيات من مادة هذه الدراسة ضمن دراسات عامة لأدب الوصية، أو دراسات خاصة لها في بيئة زمانية أو مكانية محددة، وهي تلتقي مع هذه الدراسة في إطارها العام وهي:

- أدب الوصايا في العصر الجاهلي، جهاد رضا، رسالة ماجستير، ١٩٨٧. وهي تتناول نشوء هذا الفن ومكوناته وموضوعاته والظواهر الفنية والنقدية وقيّمته التاريخية في إطار العصر الجاهلي.

- الوصايا في الأدب العربي القديم، د. سهام الفريح، ١٩٨٨. وهي دراسة عامة لهذا الفن في المشرق العربي من العصر الجاهلي وحتى العصر العباسي، وهي تلتقي مع دراستنا في الإطار العام فقط.

- أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع، د. أحمد أمين مصطفى، ١٩٩٠، وهي دراسة تقتصر على مدة زمنية محددة في جغرافية المشرق، ولا تعرض للوصايا الأندلسية.

- تاريخ الوصايا، فرج محمود أبو ليلي، ١٩٩٧. وهي دراسة تاريخية لبعض نصوص الوصايا على امتداد عصور الأدب العربي في المشرق فقط حتى عهد الأمين، يكتفي فيها المصنف بإيراد النصوص دون دراسة أو تحليل.

أما على صعيد الإطار الخاص، وأعني به فن الوصية في الأندلس، فقد تعرّض مجموعة من الباحثين خلال حديثهم عن النثر الأندلسي إلى فن الوصية، وتحدّثوا عن موضوعاتها وأساليبها، ولكنه حديث مقتضب لا يكاد يتجاوز بضع صفحات في كل كتاب، حيث عرضوا أجزاء من اثنتين أو ثلاث وصايا في إطار إشارات مقتضبة، وتحليل سريع. وهذه الدراسات هي:

- أدب السياسة والحرب في الأندلس، علي لغزيوي، ١٩٩٧، مكتبة المعارف، الرباط، د.ط، ص ٤٣٤-٤٤٠.

- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله، علي بن محمد، دار العرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠، ص ٤٥٦-٤٦٨.

ولذلك فإنّ هذه الدراسة - وإن تطلعت إلى الإفادة من الدراسات السابقة - تستشرف أبعداً إضافية في تناول الموضوع، وتحاول أن تتصدى لدراسة هذا الفن الأدبي في

البيئة الأندلسية، لِتَضَعَهُ في سياقه الثقافي والسياسي والاجتماعي العام، فهي لا تكتفي برصد نصوص الوصايا، بل تسعى إلى دراستها وتحليلها، وبيان أشهر كتابها، وخصائصها، واتجاهاتها.

وتحاول الدراسة الإجابة عن كثير من الأسئلة المرتبطة بهذا الموضوع، من نحو:

- مَنْ أشهر كتاب الوصايا؟
- بِمَ تميّزت الوصية الأندلسية؟
- ما أشهر الوصايا الأندلسية؟
- ما أثر البيئة الأندلسية على الوصية في الأندلس؟
- ما هي اتجاهات كتاب الوصايا الأندلسيين؟
- ما مضامين الوصايا الأندلسية؟
- كيف تقدم الوصايا النثرية الأندلسية مضمونها الوعظي؟
- ماذا تقدم الوصايا الشعرية؟
- كيف تقدّم الوصايا الشعرية الأندلسية مضمونها؟
- وأسئلة أخرى... ومن هنا تبرز أهمية هذه الدراسة.

أما محتويات هذه الدراسة فقد توزّعت على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة على النحو الآتي:

قدّم التمهيد بين يدي الدراسة بشيء مقتضب عن تاريخ الوصايا موضعاً علاقتها بالمجتمع الإنساني ثم بين خصوصية المجتمع الأندلسي، وعرض لأشهر كتاب الوصايا الأندلسيين محرراً المصطلحات.

وتناول الباب الأول الوصايا النثرية وانتظم ثلاثة مباحث الأول للوصايا الدينية والثاني للاجتماعية والثالث للسياسية، وخصص الفصل الثاني منه للخصائص الفنية للوصايا النثرية.

أما الباب الثاني فقد أفرد للحديث عن الوصايا الشعرية في الأندلس، وقد تناول الفصل الأول منه مضامين الوصايا الشعرية وجاء في مباحث ثلاثة الأول للوصايا الدينية والثاني

للاجتماعية والثالث للسياسية، واستقل الفصل الثاني من هذا الباب بالحديث في الخصائص الفنية للوصايا الشعرية.

وتناول الباب الثالث دراسة تطبيقية لوصيتين أندلسيتين، وقد جاء في فصلين تناول الأول وصية لسان الدين بن الخطيب النثرية لأبنائه، وتناول الفصل الثاني وصية أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري الشعرية لأبنائه.

ثم ذيلت الدراسة بخاتمة تبين أهم ما توصلت إليه من نتائج.

وهذا الجهد رغم ما واكبه من أرق وسهد لا يزال في المهّد، ويرنو للرعاية والعهد، فإن قارب المجد فله الفضل والحمد، وإن صادف الصّد فهو عليّ رد.

"وما توفّقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

التمهيد

معنى الوصية:

(وصى) الواو والصاد والحرف المعتل: أصلٌ يدل على وَصَلَ شيء بشيء. وَوَصَيْتُ الشيءَ : وَصَلْتُهُ. ويقال: وَطِنْنَا أَرْضاً وَاصِيَةً، أي إِنَّ نَبْتَهَا مُتَّصِلٌ قَدْ اِمْتَلَأَتْ مِنْهُ. وَوَصَيْتُ اللَّيْلَةَ بِالْيَوْمِ: وَصَلْتُهَا وَذَلِكَ فِي عَمَلِ تَعَمُّلِهِ.

والوصيَّة من هذا القياس، كأنه كلامٌ يوصى أي يُوصَل يقال: وَصَيْتُهُ تَوْصِيَةً. وَأَوْصَيْتُهُ إِيْصَاءً^(١).

وأوصى: أوصيت له بشيء. وأوصيت إليه، إذا جعلته وصيِّك، والاسم الوصاية والوصاية، بالكسر والفتح.

وأوصيَّته^(٢)، ووصيَّته أيضاً توصية - بمعنى، والاسم الوصاة، وتواصى القوم، أي أوصى بعضهم بعضاً وفي الحديث "استوصوا بالنساء خيراً فإنهنَّ عندكم عوان"^(٣). وَوَصَيْتُ الشَّيْءَ بِكَذَا إِذَا وَصَلْتُهُ؛ قَالَ ذُو الرُّمَّةِ^(٤):

نصي الليل بالأيام حتى صلاتنا

مقاسمة يشتق أنصافها السفر

وأوصى الرجل ووصَّاه: عهد إليه، وتواصى القوم: أوصى بعضهم بعضاً^(٥). وفي القرآن الكريم: "يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَى" ^(٦) وقوله تعالى: "وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا، ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"^(٧).

والوصية هنا عهد من الله عز وجل على المؤمنين أن يوفوه ويقوموا به، وهو من عموم

(١) ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس، (٣٩٥هـ). معجم مقاييس اللغة، تحقق: عبد السلام هارون ج٦، دار

الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. (مادة وصى)

(٢) الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، (٣٩٨هـ). تاج اللغة وصحاح العربية، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩. (مادة وصى)

(٣) سنن الترمذي ٤٦٧/٣.

(٤) ذو الرمة، غيلان بن عقبة، ديوانه، تحقق: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٨، ص١٩٩.

(٥) ابن منظور، لسان العرب، (مادة وصى).

(٦) سورة النساء، آية ١١.

(٧) سورة الأنعام، آية ١٥٢.

ما كُتفوا به من الفرائض.

وذلك من مثل قوله تعالى: "وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ"^(١) وهي هنا أيضاً نقل لما كُتف الله عز وجل به عباده.

ومنه قوله تعالى " شرع لكم من الدين ما وصّىٰ به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه"^(٢).
وقوله تعالى: "ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً"^(٣).

وقوله تعالى: "كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين"^(٤).

وقوله تعالى: "ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة"^(٥).

وقوله تعالى: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر"^(٦).
وفي الحديث الشريف: "استوصوا بالنساء خيراً"^(٧).

وقد جاءت الوصية في غير موضع في الشعر من مثل قول طرفة بن العبد^(٨):

يَرَعِينِ وَسَمِيًّا وَصَىٰ نَبْتَهُ فَاَنْطَلِقُ اللَّوْنُ وَدَقَّ الْكَشُوحُ

وهي هنا بمعنى الوصل أي نباته متصل.

أمّا الوصية المراد بها تناقل العبر، وتوجيه الدروس فقد جاءت في غير موضع من

(١) سورة البقرة، آية ١٣٢.

(٢) سورة الشورى، آية ١٣.

(٣) سورة الأحقاف، آية ١٥.

(٤) سورة البقرة، آية ١٨٠.

(٥) سورة البلد، آية ١٧.

(٦) سورة العصر، آية ٣.

(٧) سنن الترمذي، ٤٦٧/٣.

(٨) الأعلام الشنتمري، ديوان طرفة بن العبد، تحقق لطفي الصقال ودرة الخطيب، مجمع اللغة العربية، دمشق،

الشعر كقول عنتره^(١):

ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

ومنه ما جاء على لسان عبد قيس بن خفاف البرجمي^(٢):

أوصيك إيصاء امرئ لك ناصح طبن بريب الدهر غير مغفل

فالوصية إذن من الوصل والاتصال ويتضمن هذا الاتصال المعنيين المادي والمعنوي، وهو على أية حال محاولة للاستمرار فهو ضد الانقطاع. وهذا هو المبتغى من المعنى الاصطلاحي الذي ننشده في هذه الدراسة وهو إيصال الخبرة ونقل التجربة ومدّ جسور المعرفة التي يتناقلها البشر بغية تحقيق الخير لهم بشكل عام أياً كان ميدان تلك الوصية، فالوصية تضمن اتصال السلوك السليم والرأي السديد عن طريق نقله للأجيال وللمجاليين أيضاً وعليه فالوصية تلتبس بالنصح والإرشاد والوعظ والحكمة^(٣). يدلُّ على ذلك ما جاء في سنن الإمام أبي داود^(٤): "حدثنا أحمد بن حنبل ثنا الوليد بن مسلم ثنا ثور بن يزيد قال حدثني خالد بن معدان قال حدثني عبد الرحمن بن عمر السلمي وحجر بن حجر قالوا: أتينا العرباض بن سارية وهو ممن نزل فيه "ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه"^(٥) ما فسلمنا وقلنا أتيناك زائرين وعائدين ومقتبسين فقال العرباض: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشياً فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة".

يتضح من هذه القصة التباس معنى الوعظ بالوصية وأنهما كانتا تعنيان شيئاً واحداً، على

(١) الخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقق: فخر الدين قباوة، ط١، المكتبة العربية، حلب، ١٩٦٩،

ص ٣٠٣. انظر ديوان عنتره، دار صادر، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٢م، ص ٢٩.

(٢) المفضل الضبي، المفضليات، تحقق: أحمد شاكر هارون، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ص ٣٨٤.

(٣) وقد حاول جهاد رضا أن يميز بينها في رسالته التي سبقت الإشارة إليها في مقدمة هذا العمل.

(٤) مسند أبي داود ٦١٠/٢

(٥) سورة التوبة، آية ٩٢

أن الوصية في النصوص السابقة تدل على أن الموصي مخاطب أعلى من المخاطب فالله عز وجل يوصي عباده وهو السلطة الإلهية التي تمثل الخطاب الأعلى إطلاقاً.

ثم إن إبراهيم أوصى أبناءه وهو سلطة نبوية أولاً ثم أبوية ثانياً، وهما سلطتان، وإن اختلفتا، لكنهما تتقاطعان في كونهما سلطة عليا.

وعمُّ عنتره مسؤول وصاحب سلطة أيضاً، وهو إذ يوصيه ليس رجلاً عادياً بالنسبة لعنتره فهو أكبر منه سناً وقدرًا ومكانة؛ ولا تخفى مكانة العم عند الجاهليين على أحد، لذا فهو خطاب الأعلى لمن هو أدنى منه.

على أن النصح وإن قارب الوصية إلا أنه ينماز عنها بشيء بسيط، يدل على ذلك أن ابن سيده^(١) جمع بين اللفظين في عنوان واحد بقوله: "النصيحة والوصاية". ثم إن الحكمة والإرشاد والوعظ كذلك تلتبس كلها جميعاً بالوصية؛ إذ يوصي المرء ناصحاً ومرشداً وواعظاً، يصدر في ذلك كله عن حكمة ذاتية وخبرة شخصية مكتسبة من علاقاته وحياته الاجتماعية، أو حصلها مما سمع أو توصل إليه بشكل عام بصرف النظر عن الطريقة.

فالوصية إذن نقل أمين للتجارب السابقة، والخبرات المكتسبة والمعارف، يُقدّمها الموصي من أجل تحقيق الفائدة للمتلقين. وقد عرف الأدب العربي عدداً كبيراً من الوصايا التي صدرت عن عدد كبير من الأشخاص من ذوي الخبرات المتعددة، والرؤى المختلفة.

تاريخ الوصية:

يثبت تاريخ العصر الجاهلي وما قبله وجود محاولات مبكرة للوصايا، وهو أمر طبيعي، فالوصية حاجة اجتماعية وإنسانية عامّة؛ إذ جُبلَ الإنسان على أن يكون كائناً اجتماعياً، يعيش ضمن مجتمع يرتبط مع أفرادهِ بعلاقات مختلفة ومتفاوتة، تنتظمها أنواع متباينة من العواطف الإنسانية، وهو الأمر الذي يحتم عليه أن يسعى إلى محاولة استنقاذ أولئك المقربين من مخاطر الوقوع في شرك الحياة، ومن مخاطر التورط في كثير من الأوضاع المربية، وذلك كي يُجنّبهم كثيراً من النتائج السلبية، وهو إذ يفعل ذلك يقدم لهم خلاصة تجاربه وعصارة مكتسباته وخبراته ليعبر بهم إلى بر الأمان وليختاروا لأنفسهم طريقاً قوياً ونهجاً صحيحاً اهتدى الموصي بنفسه إليه بعد أن عركته الأيام وجرب منها ما شان وزان، وليجنّبهم لأواء المعبر ووعشاء السفر

(١) ابن سيده، المخصص، ١٢: ٢٥.

وليبتدأوا من حيث انتهى.

والحق أن هذا الهاجس - وهو نقل الخبرات حرصاً على الآخرين - قد دفع الكثيرين ليبتدأوا غيرهم وصاياهم ونصائحهم وحكمهم وعظاتهم.

فقد أوصى الأنبياء والمرسلون في الكتب السماوية ناقلين عن الله جلّ وعلا كثيراً من الوصايا، وقد تناقل الكهنة والأخبار والرهبان والرجال والنساء تلك الوصايا عبر الأجيال، وهي وصايا وإن غيّر كثير منها لما اكتتف الكتب السابقة من تحوير لما لم يتعهدها الله عز وجل بحفظه، إلا أن جزءاً غير يسير منها بقي نقياً، وقد جاءت الرسالة المحمدية لتؤكّده فيما بعد.

وقد احتفظت أمهات مصادر التراث العربي بكثير من تلك الوصايا، بل إن القرآن الكريم صرّح ببعضها، ومن تلك الوصايا قوله تعالى في محكم التنزيل على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يوصي أباه قائلاً^(١): "يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً".

ومنه ما جاء على لسان يعقوب عليه السلام في وصيته لأبنائه قبيل خروجهم إلى مصر: "لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة"^(٢).

ومما جاء من ذلك في المدونات العربية قول النبي إدريس عليه السلام^(٣): "لا تحلفوا كاذبين، ولا تحلفوا الكاذبين، فتشاركوهم في الإثم".

ومما لا شك فيه أن عرب الجاهلية عرفوا الكتب السماوية السابقة، وتناقلوا مضامينها، ثم إن الشعوب والحضارات كانت تحتفل بالحكمة والحكماء وأصحاب الرأي والكهنة والسحرة والعائفين والمنجمين، فكانوا يلجأون إليهم إن استعصى عليهم أمرٌ، وأولئك نفر كانوا يقدمون النصائح والوصايا للناس.

وقد اتصلت الخبرات الإنسانية بشكل عام وتقاطعت، حتى إننا نفع على بعض الوصايا المنسوبة إلى آدم عليه السلام ونوح عليه السلام^(٤)، وأياً كانت صحة تلك الوصايا فهي روايات تناقلها الناس وأثرت فيهم.

(١) سورة مريم، آية ٤٤.

(٢) سورة يوسف، آية ٦٧.

(٣) القفطي، تاريخ الحكماء، مطبعة المثني، ص ٦.

(٤) انظر، سهام الفريخ، الوصايا في الأدب العربي القديم، (١٩٨٨)، مكتبة المعلا، الكويت، ط ١،

ولا يقف الأمر عند هؤلاء، بل إن الملوك والأمراء أوصوا رعاياهم، إذ كان ثمة ممالك ودول أوصى حكامها أبناءهم بسلسلة من الوصايا، وأياً كان الرأي في حقيقة نسبة تلك النصوص فقد أوردتها المدونات العربية على أنها جزء من ثقافة تلك العصور. ومن تلك الوصايا وصية قحطان بن هود لأبنائه قبل موته بقوله^(١): "أوصيكم بذى الرحم خيراً، وإياكم والحسد، فإنه داعية إلى القطيعة فيما بينكم وأخوكم يعرب أميني عليكم، وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا أمره، واحفظوا وصيتي، واعملوا بها، واثبتوا عليها ترشدوا...".

والوصية ليست مرهونة بشخص معين أو ظرف خاص، فالحياة البشرية بتقلباتها تستدعي ذلك؛ إذ يحتاج الإنسان إلى الوصية في تنظيم شؤون حياته الاقتصادية والاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية، وفي معاملاته وخصوماته. ونصوص الوصايا الواردة من العصر الجاهلي متعددة تنتظم أغراضاً شتى.

وقد نقلت الكتب عدداً كبيراً من الوصايا في العصر الجاهلي، وهي وصايا صادرة عن أشخاص متعددين من الرجال والنساء، يبتون فيها متلقيهم أيضاً من خبراتهم ونصائحهم في شؤون الحياة وتصاريحها كلها.

فمن ذلك أكرم بن صيفي الذي وقف خطيباً بين يدي كسرى قائلاً^(٢): "إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكهم، وأفضل الملوك أعمها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها وأفضل الخطباء أصدقها، والصدق منجاة والكذب مهوأة. والشرُّ لأجاجة والحزم مركبٌ صعبٌ، والعجز مركبٌ وطيء. آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر وخير الأمور الصبر، وحسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء، شر البلاد بلاد لا أمير بها. شر الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا محالة، أفضل الأولاد البررة، خير الأعوان من لم يُراء بالنصيحة. أحق الجنود من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلغك المحل. حسبك من شر سماعه. الصمت حكم وقليل فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدد نفر ومن تراخي تألف".

واضح أن النص ينطوي على وصايا كثيرة في مجالات متعددة في شؤون الحكم والحياة

(١) وانظر فيه: دعبل بن علي الخزاعي، وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود، تحقق: نزار أبابطة، دار صادر - بيروت، ط ١، ١٩٩٧، ص ٢٦. الهمداني، الإكليل في أخبار اليمن وأنساب حمير، تعليق نبيه فارس، يرشتن، ج ٨، ص ١٧٧.

(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ١٩٣٣، مطبعة البابي الحلبي، مصر، ج ١، ص ٢١-٢٢.

بشكل عام، وهو وإن بدا موجزاً منقطعاً إلا أنه يقدم شاهداً واضحاً على حشد المعارف والخبرات في نصّ يخدم موقفاً معيناً يقتضيه.

والتاريخ يروي لأكثر من صيفي جملة من الوصايا والحكم التي وردت على أنها نصوص مترابطة في بعض المواضع، ووردت على أنها جملة من الجمل القصيرة والحكم والأمثال، وهي كلها تقع في باب الوصايا؛ إذ قدم فيها أكثر من صيفي، وهو من أشرف قومه، وهو من كبار الحكماء خلاصة خبراته وعصارة تجاربه، ومما يذكر من وصاياه^(١) ما قاله ردّاً على طلب للنعمان بن خميسة البارقي حين كتب إليه قائلاً: "مثلّ لنا مثلاً نأخذ به"، فأجابته أكثر من صيفي: "قد حلبت الدهر أشطره فعرفت حلوه ومره، عين عرفت فدرفت، إن أمامي ما لا أسامي، رب سامع بخبري لم يسمع بعذري، كل زمان لمن فيه، في كل يوم ما يكره، كل ذي نصرة سيخذل، تباروا فإن البر ينمي عليه العدد، كفوا ألسنتكم، فإن مقتل الرجل بين فكيه، إن قول الحق لم يدع لي صديقاً، الصدق منجاة، لا ينفع مع الجزع التبقي، ولا ينفع مما وقع التوقي، ستساق إلى ما أنت لاق، حيلة من لا حيلة له الصبر، كونوا جميعاً، فإن الجمع غالب، تثبتوا ولا تسارعوا فإن أحزم الفريقين الركين، رب عجلة تهب ريثاً...".

والنص طويل نوعاً ما نورد بعضه فقط، وهو حافل بالمعاني السامية، والنصائح اللطيفة، التي تشهد بطلب الوصايا والإقبال عليها من الخاصة والعامة.

كما أننا نجد وصايا لآخرين أكثر غير أكثر من صيفي فذاك خطيب العرب وشاعرها وحليمها وحكيمها وحكمها، قس بن ساعدة الأيادي^(٢) صاحب الخطبة المشهورة "أيها الناس، اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت... أما بعد فإن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، نجوم تغور وبحار تمور ولا تغور، وسقف مرفوع ومهاد موضوع...".

وكان هناك عدد من الوصايا التي صدرت عن الآباء لأبنائهم قبيل وفاتهم فذاك سعد العشيرة يوصي أبناءه قائلاً^(٣): "يا بني، اتقوا إلهكم بالليل والنهار، وإياكم وما يدعو إلى الاعتذار، ودعوا قفو المحصنات تسلم لكم الأمهات، وإياكم والبغي على قومكم تعمركم لكم

(١) انظر النص كاملاً: أبو هلال العسكري، (١٩٦٤). جمهرة الأمثال، المؤسسة العربية الحديثة للنشر. ج ١،

ص ٣٩٣-٣٩٥

(٢) انظر: أبو الفرج الأصفهاني، (١٩٥٥). الأغاني، دار الثقافة، بيروت، ج ١٥، ص ١٩٢.

(٣) انظر: أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ١٥، ص ١٩٢.

الساحات، ودعوا المراء والخصام تسلّم لكم المروعة والأحلام، تحببوا إلى العشائر تهيبكم العمائر...".

ومن تلك الوصايا ما أوصى به مالك بن المنذر البجلي أبناءه ونورد بعضه^(١): "...يا بني كونوا جميعاً ولا تفرقوا ، فتكونوا شيعاً، فإن موتاً في عز خيراً من حياة في ذل وعجز، وكل ما هو كائن كائن، وكل جمع إلى تباين، الدهر صرفان ، فصرف رخاء، وصرف بلاء واليوم يومان، فيوم حبرة ويوم عبرة، والناس رجلان ، رجل معك، ورجل عليك...".

وقد أوصى عمرو بن الخوث بن طيء ولده، وأوصى قيس بن معد يكرب ولده أيضاً وغيرهم^(٢).

على أن الوصايا لم تقتصر على الرجال فقد أوصت النساء بناتهن وقد نهلن من محصول خبراتهن فتلك أمانة بنت الحارث أوصت ابنتها يوم حملت إلى زوجها الحارث بن عمرو قالت^(٣): "أي بنية، إنّ الوصية لو تُركت لعقل أو أدب، أو مكرمة في حسب لترك ذلك منك، ولزويته عنك، ولكن الوصية تذكرة للعاقل، ومنبهة للغافل. أي بنية، إنه لو استغنت المرأة بغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها لكنت أغنى الناس عن الزوج، ولكن للرجال خلق النساء، كما لهن خلق الرجال. أي بنية، إنك فارقت الحواء الذي منه خرجت، والوكر الذي منه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك ملكاً، فكوني له أمة يكن لك عبداً، واحفظي عني خلالاً عشراً، تكن لك دركاً وذكراً، فأما الأولى والثانية فالمعاشرة له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة، فإن في القناعة راحة القلب، وحسن السمع والطاعة راحة القلب. وأما الثالثة والرابعة فلا تقع عيناه منك على قبيح، ولا يشم أنفه منك إلا طيب الريح. واعلمي، أي بنية، أنّ الماء أطيب الطيب المفقود، وأن الكحل أحسن الحسن الموجود. وأما الخامسة والسادسة فالتعهد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة. وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ بماله، والرعاية على حشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال من حسن التقدير، والرعاية على الحشم والعيال من حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة فلا تفشي له سرّاً، ولا تعصي له أمراً، فإنك إن أفشيت سرّه لم تأمني صدره، وإن عصيت أمره أو غرت صدره، واتقي الفرح لديه إن كان ترحاً، والاكْتئاب عنده إذا كان

(١) أبو حاتم السجستاني، (١٩٦١). المعمرين والوصايا. تحق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ص ١٢٢.

(٢) انظر السابق، ص ١٢٣-١٢٥.

(٣) السابق، ص ١١٩.

فرحاً، فإن الأولى من التقصير، والثانية من التكدير، واعلمي أنك لن تصلي إلى ذلك منه حتى تؤثري هواه على هواك، ورضاه على رضاك، فيما أحببت وكرهت، والله يخير له، ويصنع لك برحمته".

ويبدو أن موضوع الزواج قد حمل عدداً من الآباء على أن يوصوا أبناءهم وبناتهم والعامّة على حدّ سواء فقد أوصى أكنم بن صيفي^(١) في ذلك قال: "إياكم ونكاح الحمقاء، فإن نكاحها غرر، وولدها ضياع"، وسعد العشيرة^(٢)، قال: "إياكم ونكاح الورهاء؛ فاتها أدوا الداء".

ثم إن الشعراء أوصوا من فيض تجاربهم ونصحوا لأقوامهم وأصدقائهم وأهليهم فذاك لقبط بن يعمر الأيادي^(٣) في قصيدته التي بعث بها إلى قومه محذراً إياهم:

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم عُيرا على نساتكم كسرى وما جمعاً
قوموا قياماً على أمشاطِ أرجلكم ثم افزعوا قد ينالُ الأمر من فزعا
هذا كتابي إليكم والنذير لكم لمن رأى منكم رأياً ومن سمعا

ومن ذلك وصايا زهير بن أبي سلمى وحكمه الكثيرة في التعامل مع الحياة والخلان والأصحاب، وفي البخل والكرم، والشجاعة والحروب؛ إذ قال^(٤):

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفي ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم حساب أو يعجل فينقم
وما الحرب إلا ما علمتم، وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضرم إذا أضريتموها فتضرم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يُضرسّ بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يقره ومن لا يتق الشتم يُشتم

(١) الميداني، أبو الفضل، (١٩٥٥). مجمع الأمثال. تحقق: محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ج٢، ص١٨٢.

(٢) المعمران والوصايا، ص١٢٢، الورهاء: الحمقاء.

(٣) ديوان لقبط، ص٤٦.

(٤) موسوعة الشعر العربي، مطاع صفدي وإيليا حاوي، شركة خياط للكتب، بيروت، ١٩٧٤، ج٤، ص٣١٨. وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، ضبطه وعلق عليه بركات يوسف هبّود، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢١٧-٢٥٥.

ومن يك ذا فضل فيخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذم
ومن يوف لا يذم ومن يهد قلبه إلى مطمئن البر لا يتجمم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذمّاً عليه ويندم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ومن لم يكرم نفسه لم يكرم

ويبدو واضحاً مما سبق أن الوصايا حضرت في ثقافة العصر الجاهلي وكانت تأتي في اللحظات الحاسمة والمواقف الحساسة ذات الخصوصية كمواقف الزواج ومفارقة الأهل، ومواقف الموت ومفارقة الدنيا وغير ذلك، وهي بذلك تضمن إيصال الخبرة من المفارق للمقيم، أو العكس.

وإذا كانت الوصايا في العصر الجاهلي قد تبوّأت منزلة مرموقة، فإنها قد بلغت أوجها وقفزت إلى الصدارة ببزوغ فجر الإسلام، وبلغ الخط البياني للوصايا في بداية عصر الإسلام ذروته وتأثرت بمفاهيم الدين الإسلامي الحنيف، واتخذت لها منه موارد عذبة تنهل منها وتصدر عنها؛ إذ تغيرت حياة العرب بمبعث البشير النذير والسراج المنير، واهتدوا بهديه وغدا القرآن الكريم المثل الأعلى في الوصايا التي تضمن صلاح الدنيا والآخرة؛ إذ نقرأ في الوصايا الميثوقة في محكم التنزيل ما ينظم علاقة العبد بربه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بأخيه المسلم، وعلاقته بزوجه وعائلته، بل إن الدين الحنيف ما ترك أمراً إلا ووجه المسلمين فيه الوجهة القويمة وقد سبق بيان الآيات التي دلت صراحة على الوصايا باللفظ، ولعل في كثرة الآيات الكريمة التي تحمل المضامين الوعظية، وفي أن الدراسة ستأتي على ذكرها في مواضع مختلفة ممتدة على طول البحث لعل في ذلك كله مندوحة عن ذكرها ها هنا^(١).

فالعصر الإسلامي الجديد حافل بالوصايا على اختلاف أشكالها وألوانها وأصنافها جاء

(١) انظر على سبيل المثال المواضع الآتية:

- سورة الرعد، الآية ١٨-٢٨.
- سورة الإسراء، الآية ٢٣-٢٩.
- سورة المؤمنون، الآية ١-١١.
- سورة الشورى، الآية ٣٦-٤٣.

بعضها ليؤكد ما جاء في الشرائع السابقة، وجاء بعضها الآخر خطاباً خاصاً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقد جاء بعضها مباشراً في حين جاء بعضها الآخر غير مباشر يقدم في سياق القصص القرآني وضرب الأمثال.

ولم تقتصر الوصايا على القرآن الكريم وحده بل في كلام الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم كم هائل من الوصايا الخاصة والعامة الصادرة عن الوحي الإلهي على لسان من لا ينطق عن الهوى وقد عَجَّت فيها كتب السيرة النبوية فمنها ما جاء لعموم المسلمين وجمهور الصحابة، ورسله إلى الملوك والأقوام الأخرى، وأوصى قادة السرايا، وأوصى المسلمين منظمياً بذلك شؤون حياتهم.

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المهاجرين والأنصار وقد جاء فيه^(١): "...وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيئة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس..."

ومثل هذه النصوص كثير يصدر عن وحي إلهي، ويرد على لسان أفصح العرب جمع الحكمة واحتوى النصائح والمواعظ التي ترمي إلى تنظيم حياة المسلمين، على أن الدراسة ستتبع كثيراً من وصاياه صلى الله عليه وسلم في ثنايا البحث. ولعله من الجدير هنا أن نشير إلى خطبة حجة الوداع وما اشتملت عليه من لطائف جمّة ومعان سامية، وهي الخطاب النبوي الأخير الجامع الذي وجهه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمة الإسلام قبيل أن يختاره الله عز وجل إلى جواره؛ إذ قال عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم^(٢): "أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمانكم أضع دم ابن

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، (د.ت). تحقق: عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي (د.ط)، بيروت، ص ١٤٠.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام، ص ٣٧١-٣٧٢.

ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد، أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرّموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً. منها أربعة حرم: ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نساءكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله.

فاعقلوا أيها الناس قولي، فإنني قد بلغت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيناً، كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرءٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم. ألا هل بلغت؟".

ومن نصائحه عليه الصلاة والسلام ووصاياه لمرسله إلى الأقسام ما أوصى به عيَّاش بن أبي ربيعة لما بعثه إلى بني عبد كلال وقال له^(١): "خذ كتابي بيمينك وادفعه بيمينك في أيمانهم، فهم قائلون لك: اقرأ، فاقراً: لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين"^(٢) فإذا فرغت منها فقل: آمن محمد وأنا أول المؤمنين، لن تأتيك حجة إلا وقد دحضت، ولا كتاب زخرف إلا وذهب نوره، ومحّ لونه، وهم قارئون. فإذا رطنوا فقد ترجموا، فقل: حسن، آمنت بالله وبما أنزل من كتاب الله فإذا أسلموا، فسلهم قُضُبهم الثلاثة التي إذا تخضروا لها سُجِد لهم: وهي الأثل، قضيبٌ مُلَمَّعٌ ببياض، وقضيب ذو عَجَر كأنه من خيزران والأسود البهيم، كأنه من ساسم. ثم اخرج بها فحرقها في سوقهم.

(١) ابن عبد ربه، (٢٠٠١). العقد الفريد. تحقق: محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط١، مج٢، ص٤٣.

(٢) سورة البينة، آية ١ "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة".

ووصاياه صلى الله عليه وسلم كثيرة ماثورة في كتب الأحاديث وكتب السير والتاريخ وقد سار على نهجه الصحابة رضوان الله عليهم في ذلك .

ولللخلفاء الراشدين وصاياهم أيضاً فهذا أبو بكر رضي الله عنه أوصى الصحابة في غير موضع موضعاً لهم سبل الرشاد ومن ذلك كتابه إلى الأمراء في حروب الردة؛ إذ قال يوصيهم^(١): " هذا عهد أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام وعهد إليه أن يتقي الله ما استطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان بعد أن يعذر إليهم فيدعوهم برعاية الإسلام فإن أجابوه أمسك عنهم وإن لم يجيبوه شنّ غارته عليهم حتى يقرروا له ...".

وقد أوصى أبو بكر رضي الله عنه حين حضره الموت عمر بن الخطاب فقال^(٢): "إني مستخلفك وموصيك بتقوى الله يا عمر، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل. واعلم أنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة. وأنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق. ويحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً. وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا. ويحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً.

إنّ الله جلّ ذكره ذكر أهل الجنة بحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم فإذا ذكرتهم فقل إني لأخاف ألا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار بسوء أعمالهم ، فإذا ذكرتهم فقل إني لأرجو ألا أكون من هؤلاء.

وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً لا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة، فإن حفظت وصيتي فلا يكونن غائباً أحب إليك من الموت ولست بمعجزه".

كما أوصى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل موته فقال^(٣) مخاطباً عبد الله بن عمر: "أي بُني! إذا قام الخليفة بعدي فأته فقل إن عمر يقرأ عليك السلام، ويوصيك بتقوى الله

(١) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، الشيخ محمد الخضري، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ص ٢٣-٢٤.

(٢) المبرد، أبو العباس، (٢٨٦هـ-)، التعازي والمرثي والمواظ والوصايا. تحق: إبراهيم الجمل، مراجعة: محمود سالم، نهضة مصر للطباعة والنشر، ص ١٣٥.

(٣) المبرد، مرجع سابق، ص ١٣٦.

لا شريك له، ويوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً: أن تعرف لهم سابقتهم، ويوصيك بالأنصار خيراً أن تقبل من محسنهم وتتجاوز عن سيئهم. ويوصيك بأهل الأمصار خيراً فإنهم غيظ العدو وجباة الفيء، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم. ويوصيك بأهل البادية خيراً، فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام أن تأخذ من حواشي أموالهم فتردّ على فقرائهم، ويوصيك بأهل الذمة خيراً، وأن تقاتل من ورائهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم".

وقد أوصى سائر الخلفاء الراشدين من بعدهم، وسار على نهجهم الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً^(١).

وقد أوصى الشعراء في صدر الإسلام جمهور المتلقين جملة من الوصايا التي صدروا فيها عن الدين الجديد ومن ذلك قول حسان بن ثابت^(٢):

أعرض عن العوراء إن أسمعها
واقعد كأنك غافل لا تسمع
ودع السؤال عن الأمور وبحثها
فلرب حافر حفرة هو يُصرع
والزم مجالسة الكرام وفعلهم
وإذا اتبعت فأبصرن من تتبع
لا تتبعن غواية لصبابة
إن الغواية كل شرّ تجمع

وقد سار خلفاء بني أمية على نهج الخلفاء الراشدين في الوصايا، فمعاوية بن أبي سفيان أوصى ابنه يزيد لما شعر بدنو أجله ومما جاء في وصيته قوله^(٣): "...يا يزيد أما إذا لم تُصب الرشد فإني قد وطأت لك الأمور، وذللت لك أهل العز، وأخضعت لك رقاب العرب، وكفيتك الرحلة والترحال وجمعت لك ما لم يجمعه واحد، وإني لست أخاف أن ينازعك هذا الأمر إلا ثلاثة نفر: الحسين بن علي وعبدالله بن عمر وعبدالله بن الزبير. فأما ابن عمر فرجل قد

(١) انظر: المبرد أبو العباس، التعازي والمراتي والمواظ والوصايا، ص ١٣٧، ١٤١، ١٤٢، والعقد الفريد، ج ٢، ص ٣١٥.

(٢) حسان بن ثابت، (١٩٦١). الديوان. دار صادر، بيروت، ص ١٥١.

(٣) المبرد، التعازي والمراتي والمواظ والوصايا، ص ١٣٩-١٤٠.

وقدته العباد، وتخلي من الدنيا وشغلته نفسه بالقرآن، ولا أظنه يقاتل عليها إلا أن تأتيه عفواً.

وأما الذي يجثم جثوم الأسد ويروغ روغان الثعلب، فإن أمكنته الفرصة وثب فابن الزبير، فإن هو فعل فاستمكنت منه فقطعه إرباً إرباً إلا أن يلتبس منك صلحا، فإن فعل فاقبل منه واحقن دماء قومه تُقبل قلوبهم إليك.

وأما الحسين بن علي فإن له رحماً وحقاً وولادة من رسول الله ، ولا أظن أهل العراق تاركه حتى يخرجوه عليك، فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإني لو كنت صاحبه عفوت عنه".
وقد أوصى عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز وكثير من خلفاء بني أمية وأمراءهم وولاتهم^(١).

وقد أوصى الأدباء والكتاب والشعراء، وحملوا للناس خبراتهم في أمور الحياة.
فابن قتيبة يوصي العلماء والأدباء بقوله^(٢): "إذا أردت أن تكون عالماً فاطلب فناً واحداً، وإذا أردت أن تكون أديباً فتفنن في العلوم".

وقد سار الولاة والخلفاء والكتاب والأدباء في العصر العباسي على هذا النحو ونورد على سبيل المثال إحدى وصايا الخليفة المنصور إلى ابنه المهدي^(٣): "يا أبا عبد الله: إني قد ولدت في ذي الحجة، ووليت في ذي الحجة، وهجس في نفسي أتي أموت في ذي الحجة من هذه السنة، فاتق الله فيما أعهد إليك من أمور المسلمين بعدي، يجعل لك فيما كربك وحزنك مخرجاً ويرزقك السلامة وحسن العاقبة من حيث لا تحتسب، احفظ يا بني محمداً صلى الله عليه وسلم وفي أمته، يحفظ الله عليك أمورك، وإياك والدم الحرام فإنه حوب عند الله عظيم، وعار في الدنيا لازم مقيم، الزم الحلال، فإن فيه ثوابك في الآجل وصلاحك في العاجل، وأقم الحدود، ولا تعتد فيها فتبور، فإن الله لو علم أن شيئاً أصلح لدينه، وأزجر عن معاصيه من الحدود، لأمر به في كتابه، واعلم أنه من شدة غضب الله لسلطانه أمر في كتابه بتضعيف العذاب والعقاب على من سعى في الأرض فساداً، مع ما ادخر له عنده من العذاب العظيم، فقال: "إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا

(١) انظر: المبرد، التعلّازي والمرائي والمواعظ والوصايا، مصدر سابق، ص ١٤٣-١٥٣.

(٢) العقد الفريد، ج ٢، ص ٣٥٩.

(٣) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك. تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ج ٦، ص ٣٤٤-٣٤٥.

أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم" فالسلطان يا بني حبل الله المتين، وعروته الوثقى، ودين الله القيم، فاحفظه وحطه، وحصنه وذبح عنه، وأوقع بالملحدين فيه، واقمع المارقين منه، واقتل الخارجين عنه بالعقاب لهم، والمثلات بهم، ولا تجاوز ما أمر الله به في محكم القرآن، واحكم بالعدل ولا تشطط، فإن ذلك أقطع للشعب، وأحسم للعدو، وأنجع في الدواء، وأعف في الفيء، فليس بك حاجة مع ما أخلفه لك، وافتتح عمك بصلة الرحم وبر القرابة وإياك والأثرة، والتبذير لأموال الرعية، واشحن الثغور، واضبط الأطراف، وأمن السبل وخص الواسطة، ووسع المعاش، وسكن العامة، وأدخل المرافق عليهم، واصرف المكاره عنهم، وأعد الأموال وأخزنها، وإياك والتبذير، فإن النوائب غير مأمونة، والحوادث غير مضمونة، وهي من شيم الزمان، وأعد الرجال والكراع والجند ما استطعت، وإياك وتأخير عمل اليوم إلى غد، فتتدارك عليك الأمور وتضيع، جد في إحكام الأمور النازلات لأوقاتها أولاً فأولاً، واجتهد وشمر فيها، وأعد رجلاً بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار، ورجلاً بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل، باشر الأمور بنفسك ولا تضجر، ولا تكسل ولا تفشل، واستعمل حسن الظن بربك، وأسئ ظن بعمالك وكتائبك، وخذ نفسك بالتيقظ، وتفقد من يببب على بابك، وسهل أذنك للناس، وانظر في أمر النزاع إليك، ووكّل بهم عيناً غير نائمة، ونفساً غير لاهية، ولا تتم فإن أباك لم ينم منذ ولي الخلافة، ولا دخل عينه غمض إلا وقلبه مستيقظ، هذه وصيتي إليك والله خليفتي عليك".

هذه وصية سياسية مهمة ينقل أمير المؤمنين من خلالها لفلذة كبده ووصيّه على الخلافة خلاصة تجاربه في شؤون الحكم وسياسة الرعية، وهو إذ يوصيه يبين له كيفية التعامل مع الرعية والعمال ثم يبين له ما يحفظ به علاقته مع الله عز وجل، ويقدم له خلاصة تجربته لتظل الرعية آمنة في سربها طائعة لأمر ربها صادقة في ولائها وحبها، وهذا لا يكون إلا بيقظة القائم على أمر المسلمين وحذره كما حثه على التعفف في أموال الخزانة للاستعانة بها على صروف الدهر وتقلب الأيام، وحضّه على تطبيق أحكام الشريعة منصفاً لا متجنبياً. وهي وصية جامعة مانعة، ذكّر فيها بحق الله على ولي أمر المسلمين، ثم بحقه على رعيته وحقهم عليه.

ووصايا المنصور كثيرة، ثم إن وصايا غيره من الخلفاء والأمراء كثيرة أيضاً، ماثوثة

في كتب الأدب والتاريخ^(١).

(١) انظر: تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٦٤٨-٦٥٠.

وقد تناقل الأدباء وصايا الأمم السابقة والحضارات الأخرى فكانت وصاياهم حاضرة في متناول المجتمع العربي^(١)، كما قدم كثير من الوعاظ والنسك والأدباء جملة من الوصايا والمواعظ بين يدي الخلفاء و العامة والأهل والأصحاب، وقد دارت تلك الوصايا حول مضامين دينية وتعليمية وسياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية عامة تناولت مختلف جوانب الحياة بالتحليل وقدمت خلاصة التجارب الإنسانية في علاجها وكيفية التعامل معها^(٢)، وقد تبادل الخلفاء والأمراء مع جمهور المثقفين والسياسيين الوصايا والنصائح^(٣).

أما مساهمات الشعراء في هذا فكبيرة نورد جملة منها على سبيل المثال لا الحصر ومن ذلك قول أبي تمام^(٤):

اصبر على كيد الحسو د فإين صبرك قاتله
فانار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله
وقول أبي العتاهية^(٥):

لا تمس في الناس إلا رحمة لهم ولا تعاملهم إلا بآصاف
واقطع قوى كل حقد إن مضمرة إن زل ذو زلة أو إن هفا هاف
وارغب بنفسك عما لا صلاح له وأوسع الناس من بر وأطاف
ولا تكشف مسيئاً عن إساءته وصل حبال أخيك القاطع الجافي
فتستحق من الدنيا سلامتها وتستقل بعرض وافر واف

ولا أدل على ذلك مما قاله المتنبي في كثير من المواضع، منها^(٦):

(١) فقد أورد ابن المقفع كثيراً من الوصايا الفارسية، انظر: ابن المقفع، الأدب الكبير والأدب الصغير، دار الجيل، بيروت، ص ٦٥، ٧٤، ٧٥.
(٢) انظر: الوصايا في الأدب العربي القديم، سهام الفريح، ص ١٤٨-١٧٢..
(٣) انظر: تاريخ الوصايا، فرج محمود أبو ليلي، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٩٧، ص ١٧٧-١٧٩.
(٤) ديوان أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ص ٢٤١.
(٥) ديوان أبي العتاهية، (٢١٠هـ). دار صادر، بيروت، (١٩٨٠)، ص ٣٨٩.
(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري، تحقق: كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ج ٤، ص ٩٤-٩٥.

لا افتخار إلا لمن لا يضم	مدرك أو محارب لا ينام
ليس عزمًا ما مرض المرء فيه	ليس هما ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيه	ه غداءً تضوى به الأجسام
ذلّ من يغبط الذليل بعيش	رب عيش أخفّ منه الحمام
كل حلم أتى بغير اقتدار	حُجّة لاجيءٍ إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه	ما لجرح بميت إيلام

هذا عرض موجز لبعض من الوصايا المشرقية المقتطفة من العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام والعصر الأموي والعصر العباسي، وقد رافق هذه الوصايا في المشرق والتي اشترك في إنتاجها عدد كبير من الأمراء والوزراء والملوك وأصحاب الرأي والعمامة من الرجال والنساء - رافقها وصايا في الأندلس أيضاً، فالأندلس كانت تُعجُّ بالأحداث السياسية المتقلبة، وكانت محط أنظار أهلها الذين خسروها لصالح الفاتحين، ومطمعاً يتنافس عليه الفاتحون أنفسهم ومغتماً ظلّ محلّ نزاع أهل المشرق والمغرب على حدّ سواء، كما كان للاحتكاك بالثقافة الجديدة للسكان الأصليين وعاداتهم وتقاليدهم دوراً في تولّد جيل مغاير للجيل الأول الذي وطنت أقدامه أرض الأندلس، وانعكس هذا على حياتهم وعلى نتاجهم الأدبي.

أنواع الوصايا الأندلسية:

جاءت الوصايا الأندلسية كسابقاتها في المشرق العربي في مُختلف الضروب والمجالات من اقتصادية وسياسية واجتماعية ودينية فجاء بعضها فطرياً عفويّاً^(١)؛ انطلق أصحابها فيها من بث تجاربهم العادية التي اكتسبوها من حياتهم اليومية وقد جاءت من بعض الخبراء والحكماء

(١) انظر: جبران، محمد سعود، (٢٠٠١). فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب. ليبيا، ط١،

ج٢، دار المدار الإسلامي، ص٦٨-٧١.

وأصحاب الرأي في مواقف عامة وخاصة، كما صدرت عن الآباء والأمهات والإخوان.

وجاء بعضها مقصوداً، انطلق أصحابها فيها من توظيف معارفهم ومكتسباتهم التي حصلوها بعد أن عرّكتهم الحياة وعجمتهم الأحداث فعمدوا إلى صياغتها بطرق مختلفة، كي تؤدي الغرض الذي وضعت من أجله وذلك في سياقات متعددة، وجاء كثير منها رداً على طلب وجواباً عن سؤال، إذا طلب إلى الموصي أن يقدم خلاصة تجربته في بعض المواطن، وأن يدلي بدلوه في غير أمر من أمور الحياة، بل إن بعضهم كتب موصياً على لسان بعض الأمراء والحكام، فجاءت وصيته مفصلة مسبقاً، محبوكة بناء على طلب ذلك الأمير أو الحاكم بحيث عبرت عما يشاء من معانٍ، وجاءت موافقة لما يحب بحيث ترضي رغباته، وتوصل خطابه إلى رعيته، وتشرح فلسفته الخاصة وهو بهذا - أي الكاتب - ينطق بلسان غيره ويستخدم ألفاظه لتؤدي معاني غيره وتعبّر عنها.

كيف صارت فناً؟

الحق أن كتابة الوصايا وإن جاءت لحاجة فطرية أملتها ظروف الحياة بشكل عام، فإنها انتقلت من سياق القول الفطري العفوي، وأصبحت فناً أدبياً ينتظم الشعر والنثر على حد سواء له أصوله وطرائقه وآدابه وخصائصه وتقاليده، فقد أرسى كُتاب الوصايا وناظموها قواعد عرفية وعامها جمهور أصحاب الوصايا وصدروا عنها، وإن لم تكن معلنة فيما يشبه القوانين المسبقة التي يُصدرُ عنها لتحقيق شروط معينة حتى يندرج العمل ضمن جنس أدبي عام فيسلك في عداه.

والمتتبع لنصوص الوصايا الأندلسية يجد أنها تنهل من معين الدين الحنيف وتصدر عن المعاني الإسلامية صدوراً واضحة؛ إذ تتخذ من الإسلام مصدراً وهدفاً في آن معاً، فتنتقل منه لتصل إليه، ولعل طبيعة الحياة الأندلسية التي انسأقت في الملاذات من جهة، وغرقت في الحروب والفتن من جهة أخرى جعلت أصحاب الوصايا يلحون على المعاني الإسلامية والقيم الدينية، حتى يردوا الناس إلى جادة الصواب، ويعيدوهم إلى الطريق القويم والصرط المستقيم، لا سيما وأن دويلات الأندلس ظلت تتهددها الأخطار الخارجية المتمثلة بالدول المجاورة، وتتوَعَّدها الأخطار الداخلية المتمثلة بالتنافس على السلطة من جانب والتنافس الأندلسي (الإسلامي) الإسباني (المسيحي) من جانب آخر، وهو الأمر الذي دفع أصحاب الأقسام، وحملة الرايات التنويرية ممن استشرّفوا المستقبل، وأدركوا سوء العاقبة إلى تبصرة الناس وتنويرهم بضرورة

الاتعاض والاعتبار، وترك الترف والمنازعات ورفع لواء الجهاد والدفاع عن دولة الإسلام في الأندلس ضد ما يحدق بها من أخطار، والحفاظ على مكتسبات الفتح.

فأصحاب الوصايا إذن - كما سنرى - هم المثقفون والأدباء والكتاب والعلماء وأكابر رجالات الدولة، والأمراء والولاة والحكام والقضاة والزهاد، وكل هؤلاء يُحرّكهم هاجس واحد، شدُّ العُرى وبلوغ الدُرى نحو كشف الغُمة وتوحيد الأمة وجمع الكلمة، ليأخذ كلُّ دوره ويستشعر مسؤوليته في الحفاظ على هذا الصرح، فالأمراء والحكام يأملون من شعوبهم أن تصطف خلفهم في حشد ضد الأعداء أيًا كانوا، والمثقفون والعلماء والأدباء يسعون إلى الإصلاح بين الرعية والحكام وفي سبيل بلوغ هذا المرام أقبلوا على إنتاج وصايا للرعية ووصايا للحكام على حدٍ سواء، كلها تسعى إلى التوفيق وخلق حالة من الانسجام والرضا بين الراعي والرعية بغية الوصول إلى مجتمع ملتئم ملتحم متآلف منسجم، وهذا هو همُّ المثقفين عادةً في كل المجتمعات وليس هذا حكراً على المجتمع الأندلسي فحسب.

وسيتضح من الفصول الآتية أن كتاب الأندلس وشعراءها اشتركوا في إنتاج الوصايا الأندلسية التي أثرت المكتبة العربية بنصوص نوعية مهمة تنتمي إلى هذا الجنس الأدبي الخاص؛ إذ ستكشف الدراسة أن كثيراً من الشعراء على اختلاف مستوياتهم، وتباين شهرتهم، وتعدد توجهاتهم ساهموا بشكل أو بآخر في رقد هذا الباب؛ إذ نقع على مقطوعات من القصائد الشعرية أو بعض أبيات من قصيدة تنتظم غرض الوعظ والإرشاد وتوصي الناس بخلاصة تجربة الشاعر وخبرته، فابن خاتمة الأنصاري، وابن اللبانة الأندلسي، وعبد الكريم القيسي، والبسطي، وابن شهيد الأندلسي، وابن الجيّاب الغرناطي، وأبو عبدالله الحداد، وابن دراج القسطلي، وإبراهيم بن سهل الإشبيلي، وابن خفاجة، ومرج الكحل الأندلسي، ولسان الدين بن الخطيب، والمعتمد بن عباد، وابن شكيل الأندلسي، وأبو العباس الأعمى التطيلي، ويحيى بن حكم الغزال، وابن حمديس، وابن جبير، وابن الأتبار والحكيم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز، وبحترى الأندلس، وابن هانئ الأندلسي، كل هؤلاء وغيرهم كانت لهم يد في نظم المقطوعات الشعرية في الوصايا وإن تفاوتت كماً ونوعاً، وكان للسان الدين بن الخطيب وابن الجنان، وابن هود، وابن سعيد، وأبي بكر بن القصيرة، ويوسف بن تاشفين، وغيرهم من رجال الدولة والحكام والأمراء مساهمات في الوصايا النثرية، على أن للسان الدين بن الخطيب اليد الطولى في هذا الفن^(١) وسيتلو بيان ذلك.

(١) انظر، فنج الطيب، ج٦، ص٣١٥.

وقد اعتمد كل أولئك وغيرهم على خبراتهم وما حصلوه من معارف في صياغة وصاياهم ونقل خبراتهم إلى الآخرين؛ إذ فرضت ثقافة الموصي ونشأته ومعرفته وخبرته وتوجهاته الفكرية ودرجة صلته بالدين ومقدار معاشرته للناس على اختلاف أسنتهم وألوانهم ومعرفته بأحوالهم، نوعاً خاصاً من الوصايا في مضمونها ولغتها وشكلها العام، وعليه فقد أثرت ثقافة الموصين في نتاجهم، فجاءت تلك الوصايا مختلفة متباينة في شكلها ومضمونها، على ما سيظهر جلياً في الصفحات القادمة.

وتتناول هذه الدراسة هذا الفن^(١) الأدبي بالدراسة والتحليل؛ إذ عمدت إلى جمع الوصايا المتناثرة في كتب الأدب والتاريخ، وفي دواوين الشعراء، ثم قامت بتصنيف تلك الوصايا وتبويبها، ثم دراستها من حيث الشكل والمضمون، على أنها تركت التفصيل في ذلك إلى الباب الأخير، الذي عالجت فيه وصيتين أندلسيتين من حيث المبنى والمعنى.

وهذه الدراسة في سعيها الحثيث لبلوغ ذلك المقصد تأمل أن تبلغ مُرادها ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً ، والله أسأل الهداية والرشاد والإصابة والسداد.

(١) وقد سمى لسان الدين بن الخطيب هذا الفن (أدب الوصايا والزواجر والعظات) في كتابه الريحانة، انظر فنون النثر في آثار لسان الدين ، ص٦٦.

الباب الأول
الوصايا النثرية في الأدب الأندلسي

يعرض هذا الباب للوصايا النثرية في الأدب الأندلسي في محاولة لجمع متفرقاتها، ولمّ شملها، وتبويبها وترتيبها، وتصنيفها ليسهل على طلبة العلم والباحثين تتبعها في بحثٍ ينتظمها ، وبيان موضوعاتها ومضامينها، وتتبع أشهر قائلها ثم بيان خصائصها من خلال دراستها في محاولة لإيجاد سمات عامة تنتظمها وتجمعها.

ويقع هذا الباب في فصلين: الأول: موضوعات الوصايا النثرية، ويقع في ثلاثة مباحث، الأول يختص بالوصايا الدينية، والثاني: يختص بالوصايا الاجتماعية، والثالث: السياسية، وقد حظي المبحث الثالث بالنصيب الأوفر من هذا الباب، كما حظي لسان الدين بن الخطيب بالكم الأكثر من الوصايا النثرية بين الكتاب الأندلسيين.

ثم جاء الفصل الثاني قصيراً ليتحدث عن خصائص هذه الوصايا.

الفصل الأول

موضوعات الوصايا النثرية

جاءت الوصايا - بشكل عام - لتنتقل عموم الخبرة الشخصية والعامّة التي تحصلت لدى الموصي إلى الآخرين، فشرع الموصي يستنفر طاقاته اللغوية وإمكاناته المعرفية لينتج نصوصاً وعظية في المقام الأول، أدبية في المقام الثاني؛ إذ كان الهدف الأول الإيحاء فكانت تلك النصوص (الوصايا) نسيجاً متكاملًا وظفت فيه اللغة من أجل حمل مضمون وعظي ناصح يوصي به صاحب الوصية، ولمّا كان الموصي حريصاً على ألا يدخر شيئاً عن المتلقين عرجت الوصايا على موضوعات شتى وميادين مختلفة فكان منها الديني الذي ينظّم العلاقات بين العبد وخالقه وهذا النوع من الوصايا كثيراً ما ينهل من معين القرآن الكريم والسنة النبوية، مُرغّباً مرهّباً، وكان منها الاجتماعي الذي ينظّم العلاقات الإنسانية العامّة والخاصّة، والتعاطي في شؤون الحياة، وكان منها السياسي الذي ينظّم علاقات السلاطين وأولي الأمر برعيّتهم من جانب وينظّم علاقات الرعيّة بهم من جانب آخر. على أنّ الوصايا تتسع لأكثر من ذلك؛ إذ تأتي على الحديث في كثير من الموضوعات التربوية والأدبية والقضائية العامّة والخاصّة.

وقد أوردتها الدراسة ضمن هذه الأبواب الثلاثة بغية التنظيم في العرض وقد تمت الإشارة إليها في مواضعها.

والصفحات القادمة تفصل الحديث في موضوعات الوصايا وفق مباحث ثلاثة تصنّف الوصايا النظرية إلى دينية واجتماعية وسياسية.

المبحث الأول

الوصايا الدينية

نَهَل الشعراء والكتاب من معين الدين الإسلامي الحنيف في القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد حاولوا في كثير مما أنتجوه في هذا المضمار أن يحتوا الناس على امتثال أوامر الله عزّ وجلّ، فقد كانت التعاليم الدينية مصدرهم الذي ينطلقون منه ليصلوا إليه، فكتبوا موصين الناس بضرورة العمل الصالح وحفظ القرآن والحفاظ على الصلاة والصيام وإقامة شعائر الإسلام، فجاءت الوصايا الدينية لتَحُضَّ المتلقين على امتثال أوامر الله عزّ وجلّ واجتتاب نواهيه والتزام جادة الشريعة والطريق القويم.

ففي التحذير من الركون إلى الدنيا وما فيها من متاع الغرور وضرورة التنبّه والعمل لملاقة الخالق عزّ وجلّ يقول ابن الجنان^(١): "ولا تخذعتكم هذه الدنيا الدنيّة بتهاويل الأباطيل وأضغاث الأحلام، ولا تنسينكم خُدعها المُمَوّهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها في الأنام، فهي دار انتياب النوائب، ومصاب المصائب، وحدث الحوادث وإمام الآلام...".

وفي الحض على عمل الخير وذكر الله، وتغيير المنكر، وحثّ الآخرين على فعل ذلك يقول ابن الجنان بلسان ابن هود^(٢): "استوفوا ضروب الصالحات واستقصوها، واعملوا أعمال البرّ وخصّوها، واذكروا آلاء الله وقصوها... واشتدوا في تغيير المنكرات كلها، واحسموا أدواءها من أصلها، ورجبوا الناس في الطاعات واندبوهم إليها، ووضحوا لهم أعمالهم وحرّضوهم عليها". والحقّ أن وجود ابن هود ضمن دائرة ملوك الطوائف المتناحرين بشكل عام، وحربه مع المأمون بن ذي النون الذي كان يرأس دولة طليطلة التي حاربت دول ابن هود في سرقسطة جعلت ابن هود يلجأ إلى حشد أبناء شعبه حوله، ومحاولة شدّ الصفوف حتى ينجح في حربه ضد الطليطليين^(٣).

ومن هذا ما أوصى به الأمير أبو يعقوب أهل غرناطة ردّاً على مبايعتهم إيّاه بقوله: "...والذي

(١) هو ابن الجنان، محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري. نفع الطيب، ج٧، ص٤٢٨.

(٢) هو أحمد بن سليمان بن هود، عميد بني هود وعظيمهم. نفع الطيب، ج٧، ص٤١٣.

(٣) انظر: ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار المغرب. مكتبة صادر، بيروت، ج٣، ص٢٧٨.

نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته، والاستعانة به والتوكّل عليه"^(١).

وفي الحضّ على تعلم القرآن وتنشئة الأولاد على تعلّمه وتدبّر أحكامه، يقول لسان الدين^(٢): "وَعَلِّمُوا الْقُرْآنَ صَبِيَانَكُمْ فَهُوَ أَسُّ الْمَبْنَى، وَازْرِعُوهُ فِي تَرَابِ تَرَائِبِهِمْ فَعَسَى أَنْ يَجْنَى". ويتضح هنا تأثر لسان الدين بن الخطيب بقوله تعالى في كتابه العزيز: "يُخْرِجُ مِنَ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ"^(٣).

ويلتمس القارئ أن لسان الدين لم يزوج باللفظة اعتباطاً، وإنما التفت إلى حسن استثمارها؛ لتؤدي معنى يفيض جمالاً، وهو هنا يؤكد ضرورة تعليم الصبيان كتاب الله قبل بلوغهم الحلم.

وقد حثّ على ذلك ابن الجنان في وصيته على لسان ابن هود قائلاً^(٤): "مُرُوهُمْ بِأَنْ يُعَلِّمُوا أَوْلَادَهُمْ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنْ تَعَلَّمَهُ لِلصَّغَارِ يَطْفَىءَ غَضَبُ الرَّبِّ...".

ويؤكد ابن الجنان على لسان ابن هود ما ذهب إليه لسان الدين بن الخطيب بضرورة تعليم الناشئة كتاب الله قبل أن يبلغوا الحلم، فتلهيهم الدنيا وشهواتها ولذاتها ولم يُفَوِّتْ - على سبيل الترغيب - ذكر أثر ذلك الفعل وما أعدّ الله لفاعله.

وفي نبد البدع يقول لسان الدين^(٥): "وَانْفُوا مِنَ الْحَوَادِثِ الشَّنِيعَةِ، وَالْبِدَعِ الَّتِي تَفْتُ فِي عَضُدِ الشَّرِيعَةِ". ولسان الدين في وصيته هذه ينهل من معين محمد صلى الله عليه وسلم ويقتبس من قوله: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ"^(٦) وقوله صلى الله عليه وسلم: "وشرّ الأمور محدثاتها وكلّ محدثة بدعة وكلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة في النار"^(٧).

(١) عبد الملك بن صاحب الصلاة، (١٩٨٧). المنّ بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحّدين.

تحق: عبد الهادي التتادي، دار العرب الإسلامي، بيروت، ص ٢٦٥.

(٢) نفع الطيب، مصدر سابق، ج ٧، ص ٣٨٠.

(٣) سورة الطارق، آية ٧.

(٤) السابق، ج ٧، ص ٤١٣.

(٥) هو ذو الوزارتين، لسان الدين بن الخطيب، طبيب وفيلسوف وكاتب وشاعر ومؤرخ بارع ووزير وسياسي

له العديد من المؤلفات، نفع الطيب، ج ٧، ص ٣٨١.

(٦) صحيح البخاري ٩٥٩/٢.

(٧) صحيح مسلم، ج ٢، ص ٥٩٢.

ومن الوصايا في الحثّ على الصدقة والإنفاق في سبيله تعالى قول لسان الدين^(١):
"فاشترُوا مِن الله كرائم أموالكم بالصدقات وأنفقوا في سبيله يربحكم أضعاف النفقات".

وفي الحضّ على التوبة قبل فوات الأوان يقول ابن الخطيب^(٢): "يا طرداء المخالفة، إنكم مدركون فاستبقوا باب التوبة، فإن ربّ تلك الدار يجير ولا يجار عليه، فإذا أمنتكم فاذكروا الله كما هداكم".

وقد ردّ لسان الدين الوعظ إلى كلام الله تعالى مبيناً أن الحكمة ضالّة المؤمن يأخذها من الظروف والأحوال والأقوال فالوعظ يأتي من منبعين^(٣): لسان الحال وهو الأبلغ؛ إذ تقف القبور الموحشة والقصور الخالية وما تحتوي عليه من حكايات وأخبار لتعظ البشر ويفكروا فيها. ولسان المقال وهو الوعظ بالقول الصادر عن أولي العلم وذوي الخبرة. وابن الخطيب إذ يصدر عن هذا يؤكد أنّ الوعظ الأجدى والأنجع هو الصادر عن الذات الإلهية لقوله^(٤): "أه! أيّ وعظٍ بعد وعظ الله تعالى يا أحبّابنا يُسمَع؟ وفي ماذا وقد تبين الرشد من الغيّ يُطمَع؟ يا من يُعطي ويمنّع".

وفي الحضّ على الجهاد والدفاع عن الإسلام وأمّة محمد صلى الله عليه وسلم، والمساجد، وإغاثة المستغيث من المسلمين، وإعانتهم بالكلمة والنفس والمال كتب لسان الدين بن الخطيب في غير موضع يقول^(٥):

"وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم الغريب فلا تخفروه وسبيلُ الرشد قد وضّح فلتبصروه، الجهادَ الجهادَ فقد تعيّن، الجارَ الجارَ فقد قرر الشرع حقّه وبيّن، الله الله في الإسلام، الله الله في أمّة محمدٍ عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاثَ بكم الدينُ فأغيثوه، قد تأكدَ عهدُ الله وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد، جدّدوا عوائد الخير يصلُ الله تعالى لكم جميل العوائد، صلّوا رحمَ الكلمة، واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة... أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل

(١) نفع الطيب، ج٧، ص ٣٨٠.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق، ج٦، ص ٣١٦.

(٤) نفع الطيب، ج٦، ص ٣١٧.

(٥) السابق، ج٦، ص ١٦٥-١٦٦.

الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته، جاهدوا في الله بالأسن والأقوال حق جهاده".

وفي الحضّ على إعداد العدة لملاقاة العدو والتجهّز لذلك بالخيل والسلاح يقول لسان الدين^(١): "وأهم ما صرفتم إليه الوجوه، واستدفعتم به المكروه، العملُ بأمره جلّ وعلا في الآية المتلوّة، والحكمة السافرة المجلوّة، من ارتباط الخيل وإعداد القوة، فمن كان ذا سعة في رزقه، فليقم لله بما استطاع من حقّه، وليتخذ فرساً يعمر محلّته بصهيله، ويقتنه من أجل الله وفي سبيله..." وهو يقول في موضع آخر في المعنى نفسه^(٢): "أعدوا الخيل وارتبطوها". وهو هنا يشير إلى قوله تعالى: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم"^(٣).

وكان للمنامات أثر في تشكيل الوصايا؛ فقد وجّهت المنامات أصحابها في تمثلهم لبعض الفقهاء والصالحين، ومن ذلك ما أورده الغرناطي في جنة الرضا من أنه رأى الشيخ أبا إسحق الشاطبي في المنام وسأله أن يوصيه فأوصاه بتقوى الله وخشيته قال^(٤): "لقد رأيت في عالم النوم الشيخ أبا إسحق الشاطبي رحمه الله، ولم أدركه بسنيّ ولكنّي علمتُ في النوم أنه هو، وأخبرتُ بذلك وهو رجل أميلُ اللون للصفرة، خفيف العارضين، عليه جبّة مختصرة وقبلا ومثلها عريّ حوليّ اللون كأنه ملفّ بلدي الصنع صبغ تلك الصبغة فكنت أسأله أن يوصيني فقال لي: (اتق الله واخشه) فأخبرت بصفته وملبسه وما صدر لي منه من الوصاة الشيخ الأستاذ أبا عبدالله المجاري".

وهذا النص دالٌّ على أهمية الوصية، ودورها في تحريك الأمور، وحفز الناس على الإقدام على الأعمال الخيرة.

ومما جاء في هذا الغرض ما أوصى به لسان الدين بن الخطيب ابن مرزوق يحثه على الزهد في الدنيا بقوله^(٥): "دع الدنيا لأهلها فما أوكس حظوظهم، وأحسن لحوظهم، وأقلّ متاعهم، وأعجل إسراعهم، وأكثر عناءهم، وأقصر إناءهم".

(١) نفع الطيب، ج٧، ص ٣٨١.

(٢) السابق، ج٧، ص ٣٨٧.

(٣) سورة الأنفال، آية ٦٠.

(٤) الغرناطي، أبو يحيى ابن عاصم، (١٩٨٩). جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى. تحقق: صلاح

جرار، دار البشير، عمان، ط١، ج١، ص ١٤١-١٤٢.

(٥) هو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن مرزوق، لسان الدين بن الخطيب، ربحانة الكتاب، ج٢، ص ٣٤٣.

ومنه ما صدر عنه في موضع آخر قوله^(١): "اتقوا الله في نفوسكم وانصحوها، واغتنموا فرص الحياة وارتموها".

ومنه ما قاله القاضي عياض موصياً جمهور الناس موجهاً إليهم وناصحاً لهم^(٢): "أيها الناس: اسلكوا جَوَادَّ الحَقَائِقِ، واتركوا بُنْيَانِ الطَّرِيقِ، ولا تُعْرَتِكُم الدُّنْيَا بِكُوَادِبِ المَخَارِقِ، فَإِنَّهَا كَثِيرَةٌ البِوَاتِقِ، جَمَّةُ العَوَائِقِ، قاطعةٌ للأسباب والعلائق، تاركةٌ لمن هام بها مفارق، تدير دوائرها بكل صامتٍ وناطقٍ، كم أهلكت من الخلائق، وطوت من الفراعين والعمالق، وطوّحت من القياصر والبطارق، وطرحت العُصم من أعلى الشواهِق...".

ولا يفوتنا أن ننوّه إلى وصية لسان الدين بن الخطيب لأبنائه وهي وصية حشدت معاني دينية كثيرة في الفرائض والنوافل وما يُقام به الدين وما تطلب به مرضاة الله عز وجل وسيأتي تحليل هذه الوصية باستفاضة في الباب الأخير من هذه الدراسة.

ولعله ليس من نافلة القول أن أدباء الأندلس وعلماءها إذ انطلقوا في إنتاج هذا الكم من الوصايا دفعتهم إلى ذلك ظروف الدول وتقلبها في المحن، وغياب الاستقرار السياسي، واستشعار أصحاب الرأي لقرب الزوال، وسوء العاقبة والمآل حتى إننا لنجد مؤلفات كاملة – كما سبقت الإشارة – تتأمل الوضع القائم فتجمع النصوص من التاريخ من المشرق والمغرب وتستخلص العبر والدروس وتوجه الناس نحو تدارك الأمر في محاولة لاستنقاذ ما يمكن استنقاذه ولعلّ في خاتمة ابن عاصم الغرناطي لمؤلفه جنة الرضا خير شاهد على ذلك إذ يقول^(٣): "فلنقدّر قدر هذا التدارك الذي أخذ بأيدينا من مهلوي الانتقام، ولننأمل موقع هذا التلافي الذي أحلّنا من تجديد النعمة بأسنى مقام... اللهم هل بلغت وبالغت في النصيح وأبلغت اللهم فاشهد، اللهم فاشهد".

(١) ربحانة الكتاب، ج٢، ص٤٣٩.

(٢) محمد بن عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، ولي قضاء دانية وغرناطة، كان حميد السيرة نزيهاً متواضعاً. أبو عبدالله محمد، التعريف بالقاضي عياض، تحق: محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، د.ت، ص٨٦.

(٣) جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى، ج٣، ص٣٠٦.

المبحث الثاني الوصايا الاجتماعية

ترك الموصي لمتلقيه فيضاً من خبراته ومشاهداته فسجّل له خلاصة تجاربه وعصارة شبابه، وترك له أسساً وقواعد عامّة في التعامل مع الآخرين المقربين منهم والأبعدين على اختلاف طبقاتهم وأطيافهم وميولهم.

وفي معاملة الآخرين أوصى ابن سعيد ابنه بأن يُنزلَ كلَّ شخص منزله، لقوله:

"وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفاء، ولا الكفاء بمعاملة الأعلى"^(١).

ولم يقصد ابن سعيد من وصيته إساءة الظن بالناس جميعاً، فالناس ليسوا سواءً؛ ولذا احترز ابن سعيد ليأمن اللبس وليضمن عدم إساءة الفهم، وهو مع هذا كله لا يغفل فطنة ابنه وفراسته ولباقته ونباهته فيقول^(٢):

"ولا يحملنك أيضاً هذا القول أن تظنه في كل أحد، وتعجل المكافأة، وليكن حُسن الظن بمقدار ما، واصبر بقدر ما، والفظن لا تخفى عليه مخايل الأحوال، وفي الوجوه دلالات وعلامات".

وحذّر ابن سعيد ابنه من الاكتفاء بصاحب واحد ناصحاً إياه أن يمد جسور المعرفة بينه وبين الآخرين قائلاً:

"وإياك أن يغرّك صاحبٌ واحد عن أن تذخر غيره للزمان، وتطيعه في عداوة سواه، ففي الممكن أن يتغيّر عليك فتطلب إعانة عليه أو استغناء عنه فلا تجد ذخيرة قدمتها، وكان هو في أوسع حال وأعلى رأي بما دبره بحيلته في انقطاعك عن غيره، فلو اتفق لك أن تصحب من كل صناعة وكل رياسة من يكون لك عدّة لكان ذلك أولى وأصوب"^(٣).

ويبدو ابن سعيد واثقاً من قوله الذي هو ثمرة سني عمره وخلاصة تجارب حياته التي عجمتها الأحداث وعركتها الأيام حتى استوت على سوقها واستقام عودها وفي هذا يقول:

(١) هو موسى بن محمد بن عبد الملك، أبو عمران، نفع الطيب، ج٢، ص٣٥٧.

(٢) السابق، نفسه.

(٣) نفع الطيب، ج٢، ص٣٥٧.

"وسئني فإتي خبير، طال والله ما صحبت الشخص أكثر عمري لا أعتد على سواه، ولا أعتد إلا إياه، منخدعاً بسرابه، موثقاً في حبال خطابه، إلى أن لا يحصل لي منه غير العَصّ على البنان، وقول: "لو كان ولو كان"^(١).

كما أوصى ابن سعيد ابنه بمخالطة الناس بقدر محدود فلا يكثر من الزيارة أبداً على أن لا يجافي أحداً، حتى يحفظ ما بينه وبين الآخرين قائلاً:

"وأقل من زيارة الناس ما استطعت، ولا تجفهم بالجملة، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ولا ضجر ولا جفاء، ولا تقل أيضاً أقعد في كسر بيتي ولا أرى أحداً، وأستريح من الناس، فإن ذلك كسل داع إلى الذل والمهانة، وإذا علم عدو لك أو صديق منك ذلك عاملاً بحسبه، فازدرك الصديق وجسر عليك العدو"^(٢).

ولا يكتفي الموصي بذلك، وإنما يحدد لمخاطبه أيّ الناس يخالط ويقارب لقول ابن سعيد:

"ولتحرص جهدك على أن لا تصحب أو تخدم إلا ربّ حشمة ونعمة، ومن نشأ في رفاهية ومروءة، فإنك تنام معه في مهاد العافية"^(٣).

وهو لا يكتفي بإسداء النصيحة بل يحشد البراهين ليجعلها تنزل من سامعه منزل القناعة، لقوله:

"وإن الجياد على أعراقها تجري، وأهل الأحساب والمروءات ينكرون منافعهم متى كانت عليهم فيها وصمة"^(٤).
ويسوق الأمثلة لذلك لقوله:

"وقد قيل في مجلس عبد الملك بن مروان: أشرب مصعب الخمر؟ فقال عبد الملك - وهو عدو له محارب له على الملك - : لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه. والفضل ما شهدت به الأعداء"^(٥).

فهو يرسم حدوداً للعلاقة مع الصاحب على أن يسودها حسن المعشر لأن الدنيا دار مفارقة وتغيّر.

(١) نفخ الطيب، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣) نفخ الطيب، ج ٢، ص ٣٥٨.

(٤) السابق، ج ٢، ص ٣٥٨.

(٥) السابق نفسه.

وهو إذ يقدّم لمتلقيه ما يجب عليه فعله ينصحه بأن يؤدي ما عليه من واجبات، وأن يحرص على إبقاء الود على أن لا يُغفلَ الحذر؛ لأن الإنسان لا يُؤمن وقد استشهد لذلك بحشدٍ مما أثر عن العرب قال:

"واحذر كل ما بيّنه لك القائل: كلُّ ما تغرسه تجنيه إلا ابن آدم فإنك إذا غرسه يقلعه، وقول الآخر: ابن آدم يتمسك حتى يتمكن، وقول الآخر: ابن آدم ذنب مع الضعف، أسد مع القوة"^(١).

لذا نراه يلجّ على اختبار الأصحاب مورداً قصص السلف في ذلك^(٢)، مؤكداً ضرورة التنبيه إلى الأقوال والأفعال قال: "... واستمّل من عين من تعاشره وتفقد في فلتات الألسن وصفحات الأوجه"^(٣).

وفي عدم الانقياد وراء الحاسدين الذين يكرهون علو شأن غيرهم أوصى ابن سعيد ابنه قائلاً:

"ومتى رفّعك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحسّنه حسداً لك، وقصداً لتصغير قدرك عندك، وتزهيداً لك فيه. فلا يحملك ذلك على أن تزهد في علمك، وتركن إلى العلم الذي مدحوه، فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مشي الحجلة فرام أن يتعلّمه فصعب عليه، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسيه، فبقي مخبل المشي"^(٤).

ثم أوصاه بالإقبال على الحياة وعدم الركون إلى من يمقت الآخرين ويذمّ الزمان، قال: "ولا يفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهله، ويقول: ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل ولا مكان يستراح فيه، فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبه الحرمان، واستحققت طلعتة للهوان، وأبرموا على الناس بالسؤال، فمقتوهم، وعجزوا على طلب الأمور من وجوهها فاستراحوا إلى الوقوع في الناس، وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم، وتعذير أمورهم"^(٥).

وفي ترك التسوية في الأعمال، ومبادرة شؤون الحياة، وفضل العزم والعمل، أوصى

(١) نفع الطيب، ج ٢، ص ٣٥٨.

(٢) السابق، ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٣) السابق، ج ٢، ص ٣٥٩.

(٤) السابق، ج ٢، ص ٣٦٠.

(٥) السابق نفسه.

لسان الدين بعض من استدعى منه الموعدة قائلاً: "مَنْ أضع الفرصة، تجرّع العُصّة، إن كان لك من الزمان شيء فالحال، وما سواه محال. تارك أمره إلى غد، لا يفلح للأبد. الإنسان ابن ساعته، فليحطها من إضاعته. التسوية سُمّ الأعمال، وعدوّ الكمال"^(١).

وقد وجّه لسان الدين الوُعّاظ كي يغتتموا الوقت المناسب لبث نصائحهم قال: "ولا تعدل الوعظ البليغ باللسان الفصيح، والقلب القريح، فإذا رأيت الأرض قد اهتزت وربّت، وهضاب القلوب القاسية قد تقلّبت، فشمّر للغراس والزرّاع عن الذراع، واغتمم السراع والإسراع"^(٢). وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتخوّل الصحابة رضوان الله عليهم بالموعدة كراهة السامة عليهم^(٣).

ومن الوصايا الاجتماعية النصح بالاعتدال في شؤون الحياة وعدم الإسراف، وفي هذا كتب الرئيس أبو عبد الرحمن إلى أبي النصر: "أنا - أعزك الله - عليك شحيح، ولك فيما تأتيه، وتحتنيه نصيح فالزمان يساعد، والأيام تعوف وتباعد، فأقصر من هذه الهمة واقتصر من أمورك على المهمة، التي تفجأ مع الأوقات، ولا يلجأ فيها إلى ميقات، واقتصد في مواهبك، وأقصد إلى العدل في مذاهبك، ولا تكلف في الجود بسرف، ولا تقف من التبذير على شرف"^(٤).

والوصايا الاجتماعية تنظم شؤون الحياة، وتوجّه السلوك نحو العيش النافع فقد أوصى ابن سعيد ابنه بحسن الخلق، والأدب، واجتناب الريب في إقامته بدار الغربية حتى لا يلحقه الندم، ولا يفارقه البرّ ولا الكرم^(٥).

وفي سائر شؤون الحياة أوصى ابن سعيد ابنه بالرضا، والتسليم للقدر، لأن الأفكار مجلبة للهموم قال:

"وأكد ما أوصيك به أن تطرح الأفكار، وتسلم للأقدار:

واقبل من الدهر ما أتاك به من قرّ عيناً بعيشه نفعه

إذ الأفكار تجلب الهموم، وتضاعف الغموم، وملازمة القطوب، عنوان المصائب

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٣٣٢.

(٢) السابق، ص٣١٥.

(٣) رواه البخاري، ج١، ص٣٨.

(٤) فلانند العقيان، ج١، ص٢٠٠.

(٥) نفع الطيب، ج٢، ص٣٣٥.

والخطوب، يستريب به الصاحب، ويشمت العدو المجانب، ولا تضرّ بالوساوس إلا نفسك، لأنك تنصر بها الدهر عليك، والله درُّ القاتل:

إذا ما كنت للأحزان عوناً عليك مع الزمان فمن تلوم

مع أنه لا يردّ عليك الفاتح الحزن، ولا يرعوي بطول عتبك الزمن^(١).

وعلى تأكيدهم أهمية الشعر، والإفادة من الآخرين، نبّه الموصون إلى ضرورة محاكمة خبرات السابقين إلى العقل قبل الأخذ بها، وهذا ينطبق على ما جاء به الشعراء، وفي هذا قال ابن سعيد في وصيته لابنه:

"وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه، حتى تتدبره، فإن كان موافقاً لعقلك مصلحاً لحالك قواه ذلك عندك، وإلا فانبذه نبذ النواة، فليس لكل أحد يتبسّم، ولا كل شخص يُكلم، ولا الجود ممّا يُعم به، ولا حسن الظنّ وطيب النفس ممّا يعامل به كل أحد"^(٢).

وقد أوصى ابن سعيد ابنه بضرورة التعقل، والإفادة من تجارب الآخرين قال:

"ومن سبقك بيوم فقد سبقك بعقل، فاحتذني مثله من جرّب ، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبه من الأقوال، فإنها خلاصة عمرهم، وزبدة تجاربهم، ولا تتكلّ على عقلك، فإن النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم وابتاعوه غالياً بتجاربههم يُربحك، ويقع عليك رخيصةً، وإن رأيت من له مروءةٌ وعقل وتجربة فاستفد منه، ولا تضيع فعله ولا قوله، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك، وحثّاً لك واهتداء"^(٣).

وقد جاءت بعض الوصايا لتقدم توصيات في حق بعض الناس ممن يسعون في أمر ما، فهذا أبو الفضل بن حسّادي يكتب إلى ابن عمّار موصياً بآب الجدمنوها إلى مكانته وقدره، ليجد له مكانة عند ابن عمّار، ومنه ما كتبه أبو المطرف بن الدبّاغ يوصي برجل ركبته دين وقد وقع في أسر النصارى فدفع ماله افتداءً لنفسه فبيّن في تلك الوصية حال الرجل طالباً له يد العون.

غير أنّ هذا النوع من الوصايا لا يتمتع بحضور كبير في الوصايا النثرية الأندلسية؛ فالوصايا في الأندلس، كما اتضح وسيوضح، تضرب في موضوعات مختلفة، وتتناول قضايا متعددة، منها ما له علاقة بالدين وتنظيم علاقات المجتمع وأمور الدولة وهي غير مقتصرة على

(١) نوح الطيب، ج ٢، ص ٣٥٦.

(٢) نوح الطيب، ج ٢، ص ٣٥٦.

(٣) نوح الطيب، ج ٢، ص ٣٥٦.

تلك النماذج المحدودة من التوصيات كما يرى بعض الباحثين^(١).

ومن لطيف ما يقع عليه المتتبع للوصايا في العهد الأندلسي وصايا ابن حزم الأندلسي ونصائحه وعظاته للعشاق التي تكوّنت لديه، وتحصّلت بعد طول دراية وخبرة شهد له فيها القاصي والداني، وحسده عليها العدو قبل الصديق.

وجلّ وصاياه هذه وردت في كتابه طوق الحمامة، ومنها ما جاء في باب السفير، إذ أوصى المحبين بتخيّر سفرائهم بقوله^(٢): "ويجب تخييره وارتياده، واستجادته واستفراجه، فهو دليل عقل المرء، وبيده حياته وموته، وستره وفضيحته بعد الله تعالى، فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة، حاذقاً يكتفي بالإشارة، ويقرطس عن الغائب، ويحسن من ذات نفسه، ويضع من عقله ما أغفله باعته، ويؤدي إلى الذي أرسله كل ما يشاهد على وجهه، كأنما كان للأسرار حافظاً، وللعهد وفيّاً، قنوعاً ناصحاً".

ومن وصاياه في العشق ما حضّ عليه من وجد صديقاً مخلصاً بأن يحافظ عليه بقوله^(٣): "فإن ظفرت به يداك فشدّهما عليه شدّ الضنين، وأمسك بهما إمساك البخيل، وصنه بطارفك وتالدك، فمعه يكمل الأتس، وتنجلي الأحزان، ويقصر الزمان وتطيب الأحوال".

ومنه ما أوصى به العاشق من القنوع بقوله^(٤): "ولا بُدّ للمحب، إذا حُرّم الوصل من القنوع بما يجد".

(١) انظر: القيسي، فايز عبد النبي، (١٩٨٩). أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري. دار البشير، ط١، عمان، ص٣٠٣.

(٢) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، ص٤٧.

(٣) ابن حزم الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مرجع سابق، ص٦٦.

(٤) الأندلسي، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، مصدر سابق، ص١١٨.

المبحث الثالث الوصايا السياسية

قضى مالك الملك يوم خلق الخلق وبسط الرزق بأن الأيام دول، وجعل مفاتيح الملك ومقاييد زواله بين يديه جلّ وعلا فقال: "قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء"^(١).

وهذا الناموس لا يتغير ولا يتبدل حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وسواء طال عمر الممالك أو قصر، فإن انتقال الملك أمرٌ محسوم، وزواله أمرٌ محتوم وإذا كان هذا هو الحال أنى وجهت نظرك وقلبت بصرك فقد كان الحال كذلك في الأندلس ملك يطول وملك يزول ونجمٌ يطلع وآخر إلى أفول وراع يرحل والأمرُ لغيره يؤول.

وكسائر الدول فإن صاحب السلطة وإن علا شأنه وعزّ سلطانه وقسم بالسوية وعدل بين الرعية لا يمكن أن يكون محلّ إجماع فإذا أجمع عليه الخيرون لصلاحه فسيسخط عليه الفاسدون ويسعون لانزياحه.

وحال الناس مع السلطة والسلطان يكاد يكون واحداً في كل زمان ومكان وإن تعددت الطرائق وبدت الفوارق فإنّها لا تنفي الشبه في العلاقات بين الراعي والرعية على اختلاف الأزمنة والأمكنة فترى أقواماً يمالئونهم وآخرين يناوئونهم وفئة تُعين وأخرى تُدين وجماعة تترأب وأخرى تترأب وواحداً يتلهف ويتقرّب وآخر يتعفف ويتهرب، فالعلاقة إذن بين السلطان والرعية على اختلاف درجاتهم ومنازلهم ظلت موضع أخذٍ ورد، وقد تباين أصحاب الأفلام ورواد المذاهب في مواقفهم من هذا الأمر فانقسموا بين مؤيد لصحبة السلطان ومعارض لها^(٢).

ويبدو أن المضطلعين بمجالسة السلطان من ذوي الخبرة حريصون على أن يمنحوه عصارة معرفتهم، وخلاصة تجربتهم، وألا يبخلوا عليه منها في شيء، لذا فإنهم يقدمون إليه نصائحهم في مختلف صروف الحياة، ويبدو أن الوصايا السياسية جانب مهم من جوانب الآداب السلطانية إن لم تكن عمادها، إذ إنّ كثيراً من الأدباء العاملين في صحبة السلطان "يجمعون على جواز العمل مع السلطان، بل وضرورة "صحبته" وعلوها بـ"واجب النصيحة" وإصلاح ما

(١) سورة آل عمران، آية ٢٦.

(٢) انظر في كثير من هذا: السيوطي، جلال الدين، ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين، تحقق:

أبو علي طه، دار حزم، بيروت، ١٩٩٢.

يمكن إصلاحه من فساد"^(١).

فهم في جُلّ نتائجهم الأدبي يتوجهون إليه بالنصح سواء أكان هذا النصح مباشراً أم غير ذلك فهم يطمحون إلى ضمان سلامته؛ لأنه ولي نعمتهم وعماد دولتهم وضمن رفعتهم.

فلسان الدين بن الخطيب ينصح للسلطان في كل ميدان، فلا يكتفي بإدارة شؤون الدولة وسياسة الوزراء والعُمّال، وإنما يُحدث السلطان في العلاقات الاجتماعية وكيفية التعامل مع الأهل والولد والخادم، فهو لا يتوانى في تقديم المشورة في أي موضوع، لذا فإنه ينصح للسلطان الأب والزوج والسيد والمالك والأمير، ويقدم له نصائح في إدارة الحكم، والاقتصاد، والعلاقات الاجتماعية، والحياة الشخصية؛ "فلسان الدين رجل سياسة من الطراز الأول استطاع أن يوجه بعزمه وهمة سياسة الدولة النصرانية أعواماً طويلة، سواء إزاء دول اسبانيا النصرانية، أو دول المغرب، وتبدو أصالته السياسية في كثير من رسائله"^(٢)، فهو بنظره الثاقبة، ينظر بعين الخبير إلى الأحوال، فيوصي الحكام بما فيه صلاح البلاد والعباد، ولعلّ ما تصمّنته رسالته "كتاب الوزارة ومقامة السياسة" من أمور يبين فيها للسلطان واجبه، فيشرح له حيثيات الأمور، ويطلعه على الخفايا موجّهاً ناصحاً مُرشداً فيما ينبغي للسلطان من كيفية التعامل مع العُمّال والوزراء والجند والولد والخدم وسنعمل على بيان ما جاء في هذه الرسالة من وصايا سياسية فيما يتلو.

يُشدّد لسان الدين على أهمية منصب الوزير؛ إذ هو أفضل عدّد الأمير يصونه عن الابتذال ومباشرة الأندال ويذكره إذا نسي، ويقدم له النصح والمشورة ولكنه يُحذّر منه قائلاً^(٣): " واحذر مصادمة تياره، والتجوّز في اختياره، وقدم استخارة الله تعالى في إثارة، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره" ويبين الصفات التي يجب أن يُختار الوزير بناءً عليها كأن يكون زاهداً في الملك، راعياً للذمة، حليماً، عالي القدر، من نسبٍ شريف، خبيراً بشؤون الدولة، وقد نبّه لسان الدين إلى خطر الوزير وضرورة تجنّب اختيار من يطمع في الملك لهذا المنصب، ويشير إلى خطر أن يكون مال الوزير أكثر من مال الملك، أو أن يكون ممن عمل عند أعدائه وهو بهذا،

(١) العلامة، عز الدين، الآداب السلطانية، عالم المعرفة، ٣٢٤ فبراير، ٢٠٠٦، ص ١٥٨.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣، ج١، مقدمة التحقيق، ص ٥٢-٥٣.

(٣) انظر: لسان الدين بن الخطيب، ربحانة الكتاب ونجعة المُنتاب، تحق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨١، ج٢، ص ٣١٦-٣٣٣، نفع الطيب، ج٦، ص ٤٣٤، وقد أورد لسان الدين بن الخطيب هذه الوصايا السياسية التي قدمت على شكل مقامة سياسية في كتابه الإحاطة في تاريخ غرناطة وفي ربحانة الكتاب.

ينصح الملك ليحقق الفائدة المرجوة من وزرائه وينقذ نفسه من أخطارهم.

وفي كيفية التعامل مع طبقات المجتمع، يبيّن لسان الدين الحدّ الذي يجب أن تصل إليه الرعية من تعامل الحاكم معها بقوله: (١) "... حتى تستشعر عليّتها رأفتك وحنانك، وتعرف أوساطها في النَّصَبِ امتنانك، وتحدّر سفلتها سنانك، وحظّر على كل طبقة منها أن تتعدى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوز بأمر طاعتك فورها... وامنع أغنياءها من البطر والبطالة، والنظر في شبهات الدين بالتمشّدق والإطالة..." وحديثه في هذا طويل مفصّل.

ومن وصايا لسان الدين في سياسة شؤون الرعية، وحمائتهم والعناية بهم فدائع الله بين أيدي الحكام، قوله: "رعيّتك ودائع الله تعالى قبلك، ومرآة العدل الذي عليه جبّلك، ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانة الله تعالى التي وهب لك، وأفضل ما استدعيت به عونه فيهم، وكفايته التي تكفيهم، تقويم نفسك عند قصد تقويمهم، ورضاك بالسهر لتقويمهم، وحراسة كهلمهم ورضيعهم، والترفع عن تضييعهم، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها، أخذاً يحوط ما لها، ويحفظ عليها كمالها".

ولمّا كان الوالي راعياً مسؤولاً عن رعيّته، يمسك بيده زمام أمورهم، ويقضي بينهم، ويرعى حرّماتهم كان لا بدّ أن يكون رجلاً موثقاً توكل إليه الأمانة فيرعاهها حق رعايتها، ويؤدي حقّها، وقد أوصى ابن هود بقلم ابن الجنان بضرورة اختيار الرجل المناسب، فقال: (٢): "وملاك الأمر في انتقاء من يتصرف، وتولية من لا يضيّم ولا يتحيّف، فتخيروا للأنظار والجهات، من ثرتضى سيرته من الولاة، ولا تستعملوا أهل الفظاظة والجهالة، والمصريّن على الراحة والبطالة، فإنهم إذا استرعوا أضاعوا، وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا، وميلوا باختياركم إلى المتّسمين بالصلاح، المرتسمين في ديوان الكفاة النصّاح..."

والموصي يصدر عن فلسفة خاصّة، فهو يشعر بمسؤوليته تجاه الحاكم والرعية، لذا فإنه لا ينفكّ يُسدي نصائحهُ ويلقي مواعظه أملاً في تسديد الأمور وصلاح الشؤون، وهو ما عبّر عنه لسان الدين قائلاً على لسان السلطان عبدالله محمد (٣): "وأنتم أولياؤنا الذين لا تدّخر عنهم نصحاً، ولا نهمل في تدبيرهم ما يثمر نُجحاً، وبحسب هذا الاعتقاد لا نغفل عن نصيحة ترشدكم

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٤٣٣.

(٢) نفع الطيب، ج٧، ص٤١٠.

(٣) السابق، ص٣٧٨.

إذا غفلتم، وموعظة نُقِصُّها عليكم إذا اجتمعتم في بيوت الله أو اختلفتم... بل إنه يرى النصح عليه واجباً لقوله^(١): "فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة، والذكرى التي توقظ من السنة...".

وقد تكون الوصية بين طبقات الحكام؛ إذ يوصي أمير المؤمنين حكامه وولاته ويوجههم في شؤون الدنيا والرئاسة مقوماً سيرورة أعمالهم، ومن ذلك ما أوصى به يوسف ابن تاشفين أحد أمرائه وهو أبو محمد عبد الله بن فاطمة، بقلم أبي القاسم ابن الجَدِّ قائلًا^(٢): "فَاتَّخِذِ الْحَقَّ إمامك، ومَلِكْ يَدَهُ زمامك، وأجر عليه في القويِّ والضعيف أحكامك، وارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسد في وجه المُضْطَّهَدِ المهضوم بابك، ووَطِّئْ للرعية - حاطها الله - أكنافك، وابدل لها إنصافك واستعمل عليها مَنْ يَرْتَفِقُ بها وَيَعْدِلُ فيها، واطرح كُلَّ مَنْ يَحِيفُ عليها ويؤذيها".

وهو إذ يوصيه ويُرشدُه يحتاط لئلا يقع خطابه موقعاً بغيضاً من نفس المتلقي، فيقدّم بين يدي ذلك بأن هذا تذكير وحسب، وأنَّ المتلقي صاحب خبرةٍ ودرايةٍ يُكْتَفَى بما عنده، وهو بذلك يُهيئُ المتلقي ليستقبل رسالته راضياً، إذ يقول^(٣) في مستهلها: "وأنت - أعزك الله - مِمَّنْ يستغني بإشارة التذكرة، ويكتفي بلمحة التبصرة، لما تأوي إليه من السياسة والتجربة، فاتَّخِذِ الْحَقَّ إمامك".

على أن الوصايا الصادرة عن الحكام مُلزِمةٌ في كثير من وجوهها، فهي خطاب مَنْ يملك السلطة لمن عليه السمع والطاعة، والمتلقي ليس له الخيرة فيما يستقبل وبذا يُصْرِّحُ أبو زكريا يحيى بن الأمير بما كتبه ابن الجَدِّ قائلًا^(٤): "فإذا وصل إليكم خطابنا فالتزموا له السمع والطاعة، والنصح والمشايعة، جُهد الاستطاعة، وعظموا بحسب مكانه مِنَّا قدره، وامتثلوا في كل عمل من أعمال الحقِّ نهيه وأمره".

والحكام إذ يوصون رعاياهم يطمعون في أن يصلوا بهم إلى طاعتهم والانقياد إلى أوامره سواءً أكان هذا الانقياد ثمرة للنصح المبطن أم الخطاب المباشر بأن مرضاة الحاكم منجاة فليزموها، ومن ذلك قول الوزير أبي القاسم على لسان أمير المرابطين يوسف بن

(١) نفع الطيب، ج ٣، ص ٣٨٠.

(٢) فلائد العقيان، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٣) فلائد العقيان، ج ٢، ص ٣٣٢.

(٤) السابق نفسه، ج ١، ص ٣٣١.

تاشفين^(١): "واخلصوا السمع والطاعة لوالي أموركم، وخليفتنا في تدبيركم، والقيام بالدقيق والجليل من أموركم، وسياسة جمهوركم ... قفوا عند ما يأمركم به، ويدعوكم إليه، ولا تختلفوا في أمر من الأمور عليه، وانقادوا أسلس قياد لحكمه وعزمه، ولا تقيموا على ثبج عنادٍ بين حدّه ورسمه".

وقد كتب أبو بكر بن القصيرة عن أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين، يوصي جماعة متعدية بعد أن حذرهما من عاقبة التمادي والعصيان، قائلاً^(٢): "فاتقوا الله في أنفسكم وأهلكم، وإياكم والاعتزاز، فإنه يورطكم فيما يرديكم، ويؤزّن لكم قبائح معاصيكم، ويسوقكم إلى ما يشمتُ به أعاديكم، وكفى بهذا تبصرةً وتذكرةً".

ومن مثل هذه الوصايا التي يُقدّمها الحاكم إلى رعيته الخارجة على حكمه في سياق تحذيري يؤذّن بحريهم والاقتصاص منهم، كتب أبو بكر على لسان الوزير أبي الوليد بن سقبال محدراً طائفة قائلاً^(٣):

"فاتقوا الله وانزعوا عن مواقعه ما لا يرضى وليقبل كل واحد على ما يعينه، ديناً ودنيا، فهو أليق وله أولى".

وهو نصح مبطن بالتهديد والتخويف؛ إذ يتابع قائلاً: ^(٤) " ... فالحذار الحذار وإياكم والتجاهل والاعتزاز".

ومن هذا ما كتبه الوزير أبو بكر عن ناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى أهل مكناسة قائلاً^(٥): "فتوبوا من ذنب التباض بينكم والتضاغن، واعصوا شياطين التحاقد والتشاحن، وكونوا على الخير أعواناً، وفي ذات الله إخواناً ولا تجعلوا للعقوبة عليكم يداً ولا سلطاناً ... فاتقوا الله، وكونوا مع الصادقين، ولا تتولوا عن الموعدة وأنتم معرضون".

وذووا الخبرات إذ يوصون الحكام فإنهم يبسطون خبراتهم بين أيديهم في شتى المجالات، ولا يقتصرون في ذلك على سياسة الرعية، وإنما يتعدون ذلك إلى سائر مناحي الحياة.

ففي تربية الأولاد أوصى لسان الدين بن الخطيب الأمير بإحسان تأديبهم، وجعل الخير

(١) فلاند العقيان، ج ٢، ص ٣٢٥.

(٢) فلاند العقيان، ج ٢، ص ٣٠٧-٣٠٨.

(٣) السابق، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(٤) السابق، ص ٣٠٩.

(٥) فلاند العقيان، ج ٢، ص ٣١٢-٣١٣.

عادتهم، وألا تأخذ الشفقة بهم والحنان، وأن يكثر عليهم من القسوة، بإخفاء ميله إليهم، وأن يفيض لهم العطاء، ولا يصرف يومه وليله في الانشغال بهم، وأوصى بإثابتهم إذا أحسنوا، ومعاقبتهم إذا أساءوا، وأن يعلقهم بالخوف أكثر من تعليقهم بالرجاء، وأن يعلمهم الصبر، وأن يأخذهم بحسن النية. وأوصاه بأن يحبب إليهم أموراً بعينها، وأن يُكره إليهم غيرها، قال^(١): "وحبب إليهم مراسم الأمور الصعبة المراس، وحسن الاصطناع والاحتراس، والاستكثار من أولي المراتب والعلوم، والسياسات والحلوم والمقام المعلوم، وكره إليهم مجالسة الملهين، ومصاحبة الساهين، وجاهد أهواءهم عن عقولهم، وحذر الكذب على مقولهم، ورشّحهم إذا آنت منهم رشداً أو هدياً، وأرضعهم من المؤازرة والمشاورة ثدياً، لتمرّتهم على الاعتقاد، وتحملهم على الازدياد، ورّضهم رياضة الجياد، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم".

وأوصاه أن يُؤمّمهم ويراقبهم ويتدارك ما تؤول إليه أمورهم بقوله^(٢): "وتدارك الخلق الذميمة كلّما نجمت، واقدعها إذا هجمت، قبل أن يظهر تضعيفها، ويقوى ضعيفها، فإن أعجزتك في الصغر الحيل، عظم الميل".

ثم أوصاه، في الوصية نفسها، بكيفية التعامل معهم إذا كبروا، بأن يفرقهم في البلاد ويستعين بهم في شؤون العمل، كما يفرق سائر عماله، وأن يرسلهم في بعثات الجهاد قال^(٣): "وإذا قدروا على التدبير، وتشوّفوا للمحل الكبير، إياك أن توطّنهم في مكانك، جهد إمكانك، وفرقهم في بلدانك، تفريق عبادك، واستعملهم في بعوث جهادك، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك، فإنّ حضرتك تشغلهم بالتحاسد، والتباري والتفاسد، وانظر إليهم بأعين الثقات فإنّ عين الثقة، تبصر ما لا تبصر عين المحبة والمقة".

و يوازي لسان الدين بين العقل والقلب في وصيته هذه ، إذ يطلب إلى السلطان أن يلجأ إلى عقله وخبرته في سياسة أولاده، وألا يترك العنان لعاطفته لتقوده في معاملتهم.

وفي سياسة الخدم يقدم لسان الدين بن الخطيب، في هذه الوصية، جملة من الوصايا والعظات، لما لهذه الطبقة من أهمية للسيد بعامّة وللسلطان بشكل خاص. فهم بمنزلة الطيور الجارحة التي تنقل للسلطان ما يجري من حوله فتكون منه بمثابة السمع والبصر، لذا فإن على

(١) نوح الطيب، ج٦، ص٤٣٧.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق، ص٤٣٧-٤٣٨.

السلطان أن يسوسهم بالصدق، وأن يحفظهم كما يُحفظ اللؤلؤ، وأن يعلمهم حُسْنَ الانقياد لما يُحب ذاكراً جملة مِمَّا يجب أن يلزمه في التعامل معهم قائلاً^(١): "... وأشرب قلوبهم أن الحق في كل ما حاولته واستنزلته، وأن الباطل في كل ما جانبته واعتزلته، وأنَّ مَنْ تَصَحَّحَ منهم أمورك فقد أذنب، وبابن الأدب وتجنَّب، وأعط مَنْ أكددته، وأضفت مِنْه مَلَكه وَشَدَّدتَه، رَوْحَة يشتغلُ فيها بما يعنيه، على حسب صعوبة ما يعانیه، تغبطهم فيها بمسارحهم، وتَجَمَّ كليله جوارحهم... وحذَّر عليهم مخالفتك ولو في صلاحك، بَحَدِّ سلاحك، وامنعهم من التواثب والتشاجر، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر".

وحَدَّد ابن الخطيب طبقات الخدم، وما ينبغي لكل فئةٍ منها، وكيفية التعامل معها، وما هو العمل الأجدر بكل جماعة منهم طبقاً لسماتهم وطبائعهم قال^(٢): "واحذر منهم مَنْ قويت شهواته، وضافت عن هواه لهواته، فإن الشهوات تنازعك في استرقاقه، وتشاركك في استحقاقه، وخيرهم مَنْ ستر ذلك منه بلطف الحيلة، وآداب الفساد محيلة... واستخلص منهم لِسِرِّكَ مَنْ قَلَّتْ في الإفشاء ذنوبه، وكان أصبر على ما ينوبه، ولودائعك مَنْ كان رغبته في وظيفة لسانك، أكثر من رغبته في إحسانك، وضبطه لِمَا تَقَلَّدَ مِنْ وديعتك، أَحَبَّ إليه مِنْ حُسْ صنيعتك، وللسفارة عنك من حلا الصدق في فمه، وآثره ولو باختطار دمه، واستوفى لك عليك فهم ما تحمَّله، وعُني بلفظه حتى لا يهمله، ولمَنْ تودعه أعداء دولتك مَنْ كان مقصود الأمل، قليل القول صادق العمل، وَمَنْ كانت قسوته زائدة على رحمته، وعظمه في مرضاتك أثر من شحمته، ورأيه في الحذر شديد، وتحرَّزه من الحيل شديد، ولخدمتك في ليك ونهارك مَنْ لانت طباعه، وامتدَّ في حُسْن السجية باعُه، وأمن كيده وغدره، وسلم من الحقد صدره، ورأى المطامع فما طمع، واستثقل إعادة ما سمع، وكان بريئاً من الملال، والبشر عليه أغلب الخلال".

فلسان الدين يُقدِّم للسلطان مَنْ يختار من خَدَمه لحفظ السر، ولحفظ الودائع والأمانات، وللسفارة، وللسجان. ثم هو لا يُغفل أن يُحدِّث السلطان عن هباته وعطاياه لمن يقومون بخدمته بحيث تكون العطايا محددة المقدار لا تُفسدهم وتبطرهم بكثرتها، ولا تُؤسِفهم بصغرها وقِلَّتْها، وأن يناسب بين العطيَّة وصاحبها.

وفي التعامل مع الجُند كتب لسان الدين، في وصيته نفسها، يوصي السلطان بكيفية

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٤٣٨.

(٢) السابق، ج٦، ص٤٣٨-٤٣٩.

التعامل معهم؛ إذ أوصى بضرورة دفع استحقاقاتهم، وضرورة أن يكفيهم السلطان حاجاتهم ويغنيهم عن طلبها عند غيره، وأن يُقدَّر لكل امرئٍ منهم قدرًا يتناسب مع إخلاصه، وقال في ذلك^(١):

"وأما الجند فاصرف التقديم منهم للمقاتلة، والمكايدة، والمخاتلة، واستوفِ عليهم شرائط الخدمة، وخذهم بالثبات للصدمة، ووفِّ ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة... ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه، وطاب في الدبِّ عن ظنك ثناؤه".

ثم أوصى السلطان أن يُؤمَّر الأذكىاء ذوي الفطنة من الجند على جماعتهم، وأن يراعي في معاملته معهم أن يأخذوا حُسن التعامل فيما بينهم عادة، وألا يتساهل معهم في علاقتهم به وضرورة إطاعته والانقياد لأوامره قال^(٢): "وَوَلِّ عليهم النبهاء من خيارهم... ولا تُلِّن لهم في الإغماض عن حُسن طاعتك قياداً، وعودهم المواساة بأنفسهم اعتياداً...".

وشدّد لسان الدين على ضرورة تعهّد الجند بالطعام، ورزقهم وشغلهم عن الشغف بأهلهم ومالهم وأن يراعاهم طالما أراد منهم أن يحموا ثغور المسلمين ويجاهدوا ويبدلوا أرواحهم، قال^(٣): "وتعاهدهم عند الغناء بالعلفة والطعمة... واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم... وقدمهم على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً...". ولكنه حدّر السلطان من الإسراف في رعايتهم وتركهم يعتادون حياة الترف قال^(٤): "... ولا توطنهم الدعة مهاداً...".

وبيّن لسان الدين أهمية السلاح للجندي وضرورة حمّله والاعتناء به، وأن يُصرف المال في سبيل تجهيزهم وإعدادهم بالمراكب والملابس والأسلحة، قال^(٥): "ولا تسمح لأحدٍ منهم في إغفال شيءٍ من سلاح استظهاره، أو عُدّة اشتهاره، وليكن ما فضل من شبعهم وريّهم مصروفاً إلى سلاحهم وزيّهم، والتزّيذ في مراكبهم وغلّمانهم، من غير اعتبار لأثمتهم".

كما أوصى السلطان بضرورة صرف الجند عن الاشتغال بغير الجندية أو انشغالهم بالمتاجرة حتى لا يألّفوا الحياة المدنية، وأن يُدفعوا أبداً للكسب من المعارك، وإلا يفعل فإنهم يفسدون بذلك كما تفسد الجوارح التي يطعمها الآخرون فتعتاد الراحة وتضعف قوتها على

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٤٣٥.

(٢) السابق نفسه.

(٣) نفع الطيب، ج٦، ص٤٣٥.

(٤) السابق نفسه.

(٥) السابق نفسه.

الاصطياد قال^(١): "وامنعهم من المستغلات والمتاجر، وما تكسب به غير المشاجر، وليكن من الغور اكتسابهم، وعلى المغام حسابهم، كالجوارح التي تفسد باعتيادها، أن تطعم من غير اصطيادها".

فالجند - كما يرى لسان الدين^(٢) - لا يبذلون أرواحهم إلا لمن يحسن معاملتهم والحديث إليهم، ويقومهم ويعطيهم حقهم، ويرعى عيالهم ويتقي الله فيهم، فإنهم عندها يقدمون أرواحهم، ويحتلمون المشاق.

وحتى يحصل السلطان من جنده على الطاعة وحسن الفداء عليه أن يضع الرجل المناسب في المكان المناسب؛ فيقرب إليه من أنس منه طاعة في الذود عن السلطان وجداً لحمايته وحرصاً على مرضاته، الذي يُحكّم إدارة من يعملون تحت لوائه، الشجاع الذي لا يخاف عظام الأمور، الذي يتمكن من خلافة السلطان في رعيته فلا يظلمهم، وألا يُقرب أحداً إليه إلا بعد اختباره، فإن تبين أنه قادرٌ على ذلك وأنه صابرٌ في البلاء، جرب العناء مراراً في الدفاع عن السلطان، مُحِبٌّ له، حليم تسبق حكمته غضبه. فإن هذا الرجل أحقُّ الجند بالقرب من السلطان.

يأتي بعد هذا على ذكر طبقة أخرى^(٣) بين لسان الدين صفاتها للسلطان، وذكر أماراتها بأنها من الرجال الذين يعرفون بحسن الطاعة لأمراء السلطان الذين يحملون لواءه، ومنهم من لا يجادل الأمير ويطيع أوامره، ويصبر على ما يحلُّ به من الخطوب أكثر من فخره بفعاله.

ثم وَضَحَ ابن الخطيب^(٤) مَنْ من الجند حَرِيٌّ بحذر السلطان مِمَّن يرى نفسه أكبر ممَّا هي، الذي يأخذ أكثر ممَّا يبذل، الذي يُبَحِّسُ ما وصل إليه غيره من مكانة في قلب السلطان وحظوة عنده مِمَّن لَمْ يَقَوَّ على نواله. الذي يوازن بين عطاء السلطان وعطاء أعدائه، وتَوَعَّدَ بترك السلطان والارتحال عنه مظهرًا الكراهة لموقعه ومكتسباته في ظل السلطان.

و يُقَدِّمُ ابن الخطيب في هذا عصارة تجربته الإنسانية وخبرته العسكرية في سياسة الجند، والتعامل معهم. ولا يخفى ما لهذه الوصية من خطر وأهمية في توطيد أركان الدولة التي تخوض غمار الحروب كثيراً، وللجند فيها سُلْطَةٌ مؤثرة.

(١) نفع الطيب، ج٦، ص ٤٣٥.

(٢) انظر: السابق ص ٤٣٥-٤٣٦.

(٣) انظر: نفع الطيب، ج٦، ص ٤٣٦.

(٤) انظر: السابق نفسه.

وفي كيفية التعامل مع العمال كتب لسان الدين بن الخطيب إلى السلطان مبيناً أهمية هذه الطبقة في الدولة، وأثرهم على السلطان، لأنهم "ينبئون عن مذهبه، وحالهم في الغالب شديدة الشبه به"^(١) لذا كان لا بُدَّ للسلطان من رعايتهم وتعهدهم بالتعليم والتنقيف حتى يحسنوا معاملة الرعية، وأن ينزلهم منه منازل بحسب أعمالهم وصفاتهم، قائلاً^(٢): "وأنزلهم من كرامتك بحسب منازلهم في الإتيان، بالعدل والإتصاف، وأحلهم من الحفاية، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية".

وأن يراوح في معاملتهم بين الخوف والرجاء، ويُعرفهم ويُرسخ في نفوسهم أن التقرب إليه إنما يكون بإقامة الحق ودحض الباطل، فإنها السبيل التي ترفع منازلهم. وفيها يُقام الحق ولا تشكو الرعية عند ذلك.

وأوصى لسان الدين السلطان بأن يكفي العُمال من مال الدولة حتى يترقعوا عن الكسب الدنيء^(٣).

كما ذكر ابن الخطيب مجموعة من الخصال التي يرى من الواجب توافرها في العامل ليستأنس بها السلطان في اختيار عمّاله، قائلاً^(٤): "واصطنع منهم من تيسرت كلفته، وقويت للرعايا ألفته، ومن زاد على تأميله صبره، وأربى على خبره خبره، وكانت رغبته في حسن الذكر، تشف على بنات الفكر... وابع من يكون الاعتذار في أعماله، أوضح من الاعتذار في أقواله".

وأعقب هذا بمجموعة من الصفات التي لا يصلح صاحبها لهذا العمل تمثلت في^(٥): "واجتنب منهم من يغلب عليه التخرق في الإنفاق، وعدم الإشفاق، والتنافس في الاكتساب، وسهل عليه سوء الحساب، وكان ذريعته المصانعة بالنفاية، دون التقصي والكفاية، ومن كان منشؤه خاملاً، ولأعباء الدناءة حاملاً".

ولم تقتصر نصائح لسان الدين على شروط قبلية في تعيين العُمال، وإنما كتب ينبه السلطان إلى ضرورة متابعتهم ومراقبة أدائهم، وألا يغترّ ويفتن بمن يخالف السنن المعهودة في

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٤٣٦.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه، ص٤٣٦.

(٤) السابق، ص٤٣٧.

(٥) السابق، ص٤٣٧.

الحكم، ومن يُرضيه بسخط الرعية لأنه إنما يُعْثُّه بذلك، قال^(١): "ولا يفتنك مِمَّن قَلَدْتَهُ اجْتلاب الحَظِّ المَقْتَعِ، وَالتَّنَقُّقِ بالسَّعْيِ المُسْمَعِ، ومخالفة السنن المرعية، واتِّباعه رضاك بسخط الرعية، فَإِنَّهُ قد عَشَّكَ، من حيث بَلَّكَ ورشك، وجعل من يمينك في شمالك حاضر مالك".

وأن يحذر السلطان العمال، فلا يُخَلِّي لهم وجه الأمر، فإنهم يأخذون مكانه، وألا يُطلق أيديهم في مال الدولة، وألا يتركهم في الولاية أمداً بعيداً، قال^(٢): "ولا تُضْمَنَ عاملاً مال عمله، وحل بينه فيه وبين أمله، فَإِنَّكَ تَمِيتُ رسومك بمحياه، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه، ولا تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببذل على بلد، والاحتجاج على والد بولد، واحرص على أن يكون في الولاية غريباً، ومنتقله منك قريباً، ورهينة لا يزال معها مريباً... ولا تُطَلِّ مَدَّةَ العمل".

كما حذّر لسان الدين السلطان من التهاون في أمر عامل خان الأمانة؛ لأنه عندها يكون مشاركاً له، وأن يهتم بمراقبة عماله، قال^(٣): "ولا تقبل مصالحتة على شيء اختانه، ولو برغبة فتانة، فتقبل المصانعة في أمانتك، وتكون مشاركاً له في خيانتك... وتعاهد كشف الأمور مِمَّن يرعى الهمل، ويبلغ الأمل".

وعلى السلطان أن يتنبه في أموره كلها، لأنه محط الأنظار، في السر والعلن: قال لسان الدين^(٤):

"واعلم أنك مع كثرة حُجَابِكَ ، وكثافة حِجَابِكَ، بمنزلة الظاهر للعيون، المطالب بالديون، لشدة البحث عن أمورك، وتعرف السر الخفي بين أمرك وأمورك، فاعمل في سرِّك ما لا تستقبح أن يكون ظاهراً، ولا تأنف أن تكون به مُجَاهراً".

على أنه يجب ألا يتهاون في اغتيابه، حتى لا يُسْتَهانَ به، قال^(٥):

"واحبس الألسنة عن التخالي باغتياك، والتشبث بأذيال ثيابك، فإن سوء الطاعة ينتقل من الأعين الباصرة، إلى الألسن القاصرة، ثم إلى الأيدي المتناصرة".

كما أوصى الملوك بالعناية بالعمارة، وترك الآثار التي تضمن بقاء الذكر قال لسان

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٤٣٧.

(٢) السابق نفسه، ص٤٣٧.

(٣) السابق نفسه، ص٤٣٧.

(٤) السابق نفسه، ص٤٤٣.

(٥) نفع الطيب، ج٦، ص٤٤١.

الدين^(١):

"واعلم أن بقاء الذكر مشروطاً بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان، فاحرص على ما يوضح في الدهر سُبُلك، ويحرز المزية على من قبلك".

وقد أوصي السلاطين بمن يصطفون لمجالستهم، ومن يختصون لمنادمتهم، فقد بين لسان الدين للسلطان أي العامة يُجالس. قائلًا^(٢):

"أما العامة فمن عظم عند الناس قدره، وانشرح بالعلم صدره، أو ظهر يساره، وكان لله تعالى إخباته وانكساره، ومن كان للفتيا منتصباً، وبتاج المشورة معتصباً".

ثم بين له من يُجالس من الخاصة من ذوي الحكمة والخلق، قال^(٣):

"وأما الخاصة فمن رقت طباعه، وامتدّ فيما يليق بتلك المجالس باعه، ومن تبحر في سير الحكماء، وأخلاق الكرماء، ومن له فضل سافر، وطبع للندية منافر، ولديه من كل ما تستتر به الملوك عن العوام حظ وافر، وصفّ ألبابهم بمحصول خيرك، وسكن قلوبهم بيمن طيرك، وأغنهم ما قدرت عن غيرك".

وقد نوه إلى فضل مجالسة العلماء، ولزوم العناية بهم حتى يؤتوا أكلهم، بإنزالهم منازل تليق بهم، قال^(٤):

"واعلم بأنّ مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألّقة، والمصاييح المتعلّقة، وعلى قدر تعاهدها تبدّل من الضياء، وتجلو بنورها صورَ الأشياء، وفرغها لتحبير ما يزين مدتك، ويحسن من بعد البلاء جدتك، وبغاية الأواخر ذكرت الأول، وإذا مُحيت المفاخرُ خربت الدول".

وفيما ينبغي للملك من إرادة تحقيق السطوة، ووضع اليد على الدولة ذكر لسان الدين أموراً متعددة تضمن ذلك. بعضها معنوي يتعلق بالمعاملة وحسن المعشر كالإحسان وفضل اللسان قال^(٥):

(١) نفع الطيب، ج ٦، ص ٤٤١.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

(٤) نفع الطيب، ج ٦، ص ٤٣٥.

(٥) السابق نفسه، ص ٤٣٥.

"واعلم أنّها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان".

والقول الحق، والإنصاف الدائم، لأن الظلم دائر على صاحبه قال^(١):

"وأنّ خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر على القهر، ويبذل الإنصاف في السر والجهر... واعلم أن كرامة الجور دائرة، وكرامة العدل متكاثرة، والغلبة بالخير سيادة، وبالشر هَوادة".

وضرورة الاعتصام بحبل الله، والقيام بشريعته، لأنه يكفي عباده الشرور، ويسمو بهم قال^(٢):

"واعلم أنّ حسن القيام بالشرعية يحسّم عنك نكاية الخوارج، ويسمو بك إلى المعارج، فإنّها تقصد أنواع الخدع، وتوري بتغيير البدع... ولتكنّ ثقتك بالله تعالى أكثر من ثقتك بقوة تجدها، وكتيبة تجدها، فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تُكتسب، ويمهّد لك مع الأوقات نصراً لا يُحتسب".

فذكره عزّ وجلّ واجب في كل حين قال^(٣):

"وتلقّ بدء نهارك بذكر الله تعالى في ترفعك وابتدائك، واختم اليوم بمثل ذلك".

ولعله من البديهي أن يلجأ الأدباء وبطانة السلطان إلى نصحه دينياً، وتوجيهه نحو إقامة الدين، فقد تنبّه السياسيون منذ أزمان بعيدة إلى خطر الدين وأهميته في توطيد أركان الملك وفي جذب الرعية، وتمكين السلطان وقد بيّن ذلك أردشير بقوله: "واعلموا أنّ الملك والدين أخوان توأمان لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، لأن الدين أسُّ الملك وعماده ثم صار الملك بعد ذلك حارس الدين، فلا بُدّ للملك من أسّه، ولا بُدّ للدين من حارسه، لأن من لا حارس له ضائع، وما لا أسّ له مهدوم، وأنّ رأس ما أخاف عليكم مبادرة السفلة إياكم إلى دراسة الدين وتلاوته والتفقه فيه، فتحكم الثقة بقوة السلطان على التهاون به فتحدث رياسات مستترات في من قد وترتم وجفوتهم وحرمتهم وصغرتم من سفلة الرعية وحشو العامة. واعلموا أنه لن يجتمع رئيس في الدين مسرّ ورئيس في الملك معن في مملكة واحدة قط إلا انتزع الرئيس في الدين ما في

(١) نفح الطيب، ج٦، ص ٤٤١-٤٤٢.

(٢) السابق نفسه.

(٣) نفح الطيب، ج٦، ص ٤٤٢.

يد الرئيس في الملك، لأن الدين أسّ والملك عماد، وصاحب الأسّ أولى بجمع البنيات من صاحب العماد"^(١).

ومنها ما هو مادّي يتعلّق بمتابعة شؤون الديوان، واختبار الأعوان، وتوجيه العلماء والمدرّسين، ومتابعة ما تتداوله الألسنة، قال^(٢):

"ولا تهملْ عَرَضَ ديوانك، واختبارَ أعوانك، وتحصينَ معاقلك وقلاعك. وعمَّ إياتك بحسن اطلاعك، ولا تشغلْ زَمَنَ الهدنة بلداتك، فتجني في الشدة على ذاتك، ولا تطلقْ في دولتك ألسنة الكهانة والإرجاف، ومطاردة الآمال العجاف، فإنه يبعثُ سوء القول، ويفتحُ باب العول، وخذ على المدرّسين والمتعلّمين، والعلماء والمتكلمين، حملَ الأحداث على الشكوك الخالجة والمزلات الواجبة، فإنه يفسدُ طباعهم، ويغري سباعهم، ويمدّ في مخالفة الملة باعهم".

وأن "يسدّ سبيلَ الشفاعات فإنها تُفسدُ عليه حُسن الاختيار، ونفوسَ الخيار"^(٣).

وعلى السلطان أن يتنبّه إلى إخماد نار العداوة والبغضاء بين العبيد، وسائر الرعية، قال لسان الدين^(٤):

"وأضرّ ما مُنيتَ به التعادي بين عبادك، أو في بلد من بلدانك، فسُدّ فيه الباب، واسأل عن الأسباب، وانقلهم بوساطة أولي الألباب، إلى حالة الأحاب".

وفي معاملة الأعداء، والمارقين بيّن لسان الدين كيفية التعاطي معهم في كل حال؛ فإن حاربوا أطلقت عليهم أيدي الأقوياء وألسنة الضعفاء قال^(٥):

"وأطلق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء، وألسنة اللفيّ من الضعفاء، واستشعر عند نكته شعارَ الوفاء".

على أن يسالمَ مَنْ يطلب السّلم ويكرمه. فإنّ أبي خصمه السّلم ثارت عليه العامّة قال^(٦):

(١) عن: العلام، الآداب السلطانية، ص ٦٨.

(٢) نفع الطيب، ج ٦، ص ٤٤٢.

(٣) نفع الطيب، ج ٦، ص ٤٤٢.

(٤) السابق نفسه، ص ٤٤٤.

(٥) السابق نفسه، ص ٤٤٤.

(٦) السابق نفسه، ص ٤٤٢.

"والتمس أبدأ سَلَمَ من سالمك بنفيس ما في يدك، وفضلَ حاصلَ يومك على مُنتظر غدك، فإن أبى وضحتُ محجتك، وقامت عليه للناس بذلك حجَّتك، فلنفس على الباغين مَيْلٌ، ولها من جانبه نَيْلٌ".

على أن يتتبع أخبار عدوّه، فلا يدع له مجالاً ليتغلب عليه فيه، وأن يجتهد في تحسين أفعاله لِيُكَدِّبَ أقوال الخصوم قال^(١):

"واستشهد في كلِّ يوم سيرة من يناويك، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك، وأكذب بالخير ما يُشيعه من مساويك".

على أن "يتشاغل في هدنة الأيام بالاستعداد، ويعلم أن التراخي منذرٌ بالاشتداد"^(٢).
وَألا "يحملته انتظامُ الأمور على الاستهانة بالعمل، ولا يحقرنَّ صغير الفساد، فيأخذ في الاستئساد"^(٣).

وعلى الملك أن يكون رؤوفاً بالمذنبين؛ لأن الخطأ جيلةٌ البشر، قال^(٤): "ولا تلقَ المذنبَ بحميتك وسبِّك، واذكر عند حركة الغضب ذنوبك إلى ربك، ولا تنسَ أن ربَّ المذنب أجلسك مجلسَ الفصل، وجعل في قبضتك رياشَ النصل".

وأن يُحسِنَ معاملة من وقع من أعدائه أسيراً بين يديه. قال^(٥):

"وابذل في الأسرى من حُسْنِ ملكك ما يرضي من ملكك رقابها، وقلدك ثوابها وعقابها".

ويُقَدِّمُ لسان الدين نصائح اقتصادية في ضرورة صون المال لما له من دور في بسط نفوذ السلطان وتوطيد حكمه، وسيطرته على رعيته، وكبح جماح الفتن، ولما له من قوّة تُصرفُ النَّاسَ إلى صاحبه، قائلاً^(٦):

"ولا يزهدنك في المال كثرته، فتقل في نفسك أثرته، وقس الشاهد بالغائب، واذكر

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٤٤٢.

(٢) السابق نفسه، ص٤٤٢.

(٣) السابق نفسه، ص٤٤٣.

(٤) السابق نفسه.

(٥) السابق نفسه.

(٦) نفع الطيب، ج٦، ص٤٤٣.

وقوع ما لا يحتسب من النوائب، فالمال المصون، أمنع الحصون، ومن قلّ ماله، قصرت آماله، وتهاون بيمينه شماله، والملك إذا فقد خزينه، أخنى على أهل الجدة التي تزينه، وعاد على رعيته بالإجحاف، وعلى جبايته بالإلحاف، وساء معتاد عيشه، وصغر في عيون جيشه، ومثّوا عليه بنصره، وأنفوا من الإقتصار على قصره، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه، وتربط آمال أهل السلاح به".

فالمال نعمة الله ويجب أن يُستَعْلَى في طاعته، والإنفاق في سبيله قال^(١):

"والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه، فتجمع بالشهوات بين إتلافك وإتلافه، واستأنس بحسن جوارها، واصرف في حقوق الله تعالى بعض أطوارها، فإن فضل المال عن الأجل فأجل، ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عزّ وجلّ، وما ينفق في سبيل الشريعة، وسدّ الذريعة، مأمول خلفه، وما سواه فمتعين تَلْفُه".

فالتّمكّن من المال، ووصل الرعيّة به شرف للملك وأولى له، لقوله^(٢):

"مع التّمكّن من المال والظهر، ويسار الرعيّة جمال للملك وشرف، وفاقتهم من ذلك طرف، فغلب أليقّ الحالين بمحكّك، وأولاهما يظعنك وحكّك".

وعلى السلطان أن يكفّ يده عن أموال الناس إلا من كان منهم واحد ثلاثة ذكرهم لسان الدين بقوله^(٣):

"ولتكنّ يدك عن أموال الناس محجورة، وفي احترامها إلا عن الثلاثة مأجورة: مال منّ عدا طورُهُ طورَ أهله، وتخارق في الملابس والزينة، وفضول المدينة، يرومّ معارضتك بجهله، ومنّ باطن أعداك، وأمن اعتداك؛ ومنّ أساء جوار رعيّتك بإخساره، وبذل الأذية فيهم بيمينه ويساره".

ومن هذا ما أوصى به يوسف بن تاشفين أهل غرناطة فيما كتبه ابن الجدّ بأن يضربوا صفحاً عمّا مضى من التشغيب والتأليب، وأن ينصرف كل إمريء إلى مراعاة شؤون حياته تاركاً الخوض فيما لا يعنيه، قانعاً بما عنده زاهداً في التنافس على متاع الدنيا، قال^(٤): "لقد آن

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٤٤٣.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق نفسه.

(٤) فلاند العقيان، ص٣٣٣.

لحركتكم في أمره أن تهذا، وللنائرة بينكم أن تطفاً، ولذات بينكم أن تصحح، ولوجوه المرشيد قبلكم أن تتصحح؛ فإذا وصل إليكم خطابنا هذا، فاتركوا متابعة الهوى، واسلكوا معه الطريقة المثلى، ودعوا التنافس على حطام الدنيا، وليقبل كل واحد منكم على ما يعنيه، ولا يشتغل بما يُنصبه ويُعنيه".

ومما يقع في هذا الباب من الوصايا السياسية ما جاء عن الخلفاء والحكام ممّا أوصوا به أولادهم وهم يترجلون عن قيادة الركب وقد أرف الرحيل وحانت ساعة الالتحاق بالبارى عز وجل؛ إذ ترك بعض الحكام وصايا لأبنائهم الذين سيخلفونهم في ولاية العهد، وتعهّد شؤون الحكم والرعية، ومن ذلك ما جاء في وصية الأمير الحكم بن هشام لابنه ولي عهده عبد الرحمن حين حضرته الوفاة؛ إذ أوصاه أن يسير على نهج والده، وأن يحفظ أهله وعشيرته ومواليه وشيعته وأنصاره، وأوصاه بالعدل بين الرعية وأن يحفظ لنفسه هيبتها بين الرعية، وأن يقدر الأمور حق قدرها فيعين المحسن، ويعاقب المسيء. وفي ذلك يقول^(١): "يا بُنَيَّ، احفظ ما أقول لك وأوصيك به، وأصغ إليه بسمعك وذهنك، إني قد وطدت لك الدنيا، وذلت لك الأعداء، وأقمت أود الخلافة، وأمنت عليك الاختلاف والمنازعة، فاجر على ما نهجت لك من الطريقة. واعلم أن أولى الأمور بك، وأوجبها عليك، حفظ أهلك ثم عشيرتك، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك، فهم أنصارك وأهل دعوتك ومشاركوك في حلوك ومرك. فبهم أنزل ثقك، وإياهم واس من نعمتك، وعصابتهم استشعر دون المتوتبين إلى مراتبهم من عوام رعيته الذين لا يزالون ناقلين على الملوك أفعالهم؛ مستقلين لأعبائهم، فاحسم عليهم ببسط العدل لكافتهم واعتيام أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعماليتهم، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة وإصر الرهبة، فلتحيهم ما تحملهم عليه من قصد السيرة وبذل النصفة، فلا تمكّنهم من الارتقاء إلى فوق منازلهم البتة إلا أن ترى رجلاً قد نهضت به نفسه، وسمت به خصاله، فانهض به وأعنه، فإن أول كل شرف خارجية. ولا تدع كل وقت وعلى كل حال تعجيل مكافأة المحسن بإحسانه، وتنكيل المسيء بإساءته، فهما يحسان عليك الرغبة والرهبة. وملاك أمرك كله المال، وحفظه بأخذه من حله، وصرفه في حقه، فإنه روح الملك المدبر لجثمانه فلا تجعل بينك وبينه أحداً في الإشراف على اجتباؤه وإدخاره والتثقيف لإنفاقه وعطائه، وختام وصيتي إياك بإحكامك في أحكامك. فاتق الله ما استطعت وإلى الله أكلك، وإياه أستحفظك".

(١) ابن حيان القرطبي، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت،

والحق أن موقف انتقال الحكم ترك أثراً بالغاً في حضور هذا الفن - الوصايا - ؛ إذ أن الأندلس دار حروب شارك أمراؤها وحكامها في الغزوات فأصابوا وأصيبوا، ومنهم من مات متأثراً بجروح السيف وغيرها من أسباب المعارك، فكان هذا سبباً في تداول الحكم الذي يستدعي توصية السابق للاحق، ويستدعي مشهد انتقال السلطة من البطانة والملازمين والمندامين وأهل الحل والعقد أن يوصوا الأمير الجديد ويصروه وهذا ما حدث عندما استولى أبو يعقوب يوسف على حكم الموحيين إثر حيلة دبّرها مع عضد الدولة السيد الأعلى أبي حفص والشيخ أبي حفص؛ إذ وعظ الشيخ أبو حفص الموحيين في كل طبقاتهم ومراتبهم وأوصاهم بالصلاة والتزام ما يصلح الدين^(١).

ومن هذا ما أوصى به محمد ابن تومرت أهل الجماعة وأهل الخمسين بعد أن حضرته الوفاة بقوله^(٢): "... فجدّدوا لله سبحانه خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزكّي به سعيكم ويتقبل أعمالكم، وينشر أمركم، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء، وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم ، وكثُر أتباعكم وأظهر الله الحقّ على أيديكم ، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمّم الصغار، واحتقرتكم العامّة فتخطفتكم الخاصّة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف...".

وقد يوصي الحكام رعاياهم بما يصلح شؤون حياتهم اليومية وأمور علاقاتهم معاً في سياق الحديث عن ضرورة الالتزام بالدولة وتقديم فروض الولاء لهم، ومن ذلك ما كتبه الوزير أبو القاسم ابن الجدّ عن أمير المرابطين يوسف بن تاشفين قوله^(٣): "... فاقمعوا الأنفس الأمارة بالسوء، وارغبوا في السكون والهدوء، ونكبوا عن طريق البغي الذميمة المشنوء، واحذروا دواعي الفتن، وعواقب الإحن، وما يجرّ رداء الضمائر، وفساد السرائر، وعمى البصائر،

(١) وقد كان أبو يعقوب أعلن نفسه أميراً لدولة الموحيين بالتعاون مع السيد الأعلى أبي حفص والشيخ أبي حفص قبيل وفاة أبيه الذي كان قد عهد بالإمارة إلى أخيه محمد.
انظر : عبد الملك بن صاحب الصلاة، المن بالإمامة، ص ١٦٤.

(٢) هو محمد بن عبدالله بن تومرت من أهل سوس له نسب متصل بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، هو الذي أقام دعوة الموحيين ؛ إذ جمع حوله نفراً من الرجال وصنّفهم في طبقات: أهل الجماعة وهم العشرة الذين أسرعوا إلى إجابته، وأهل الخمسين وهم الطبقة الثانية.
انظر في كل ذلك في : عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٧٨-١٩٦، ونص الوصية في ١٩٤-١٩٦.

(٣) السابق، ج ٢، ص ٣٢٤-٣٢٥.

ووخيم المصائر وأشفقوا على أديانكم وأعراضكم ، وتوبوا إلى الصلاح في جميع أغراضكم".

ولعلّ كل هذه الوصايا السياسية التي تحاول أن تنظّم العلاقة بين ولي الأمر – أياً كانت منزلته – وبين رعيته، حاجة اجتماعية وسياسية ودينية لها أبعادها المتنوعة، إذ لا يخفى ما لدور السلطان بوجه عام من خطر بالغ في سيرورة أمور الدولة، وفي عزة أهلها وذلم بل إنه المركز الذي تدور حوله الجماعات وهو كما يراه الغزالي^(١) "ذاك الإنسان الذي اصطفاه الله من بين العباد، وزوّده باستعدادات كافية من أجل حكم الجماعة".

وأياً كان الشأن في مسألة التفويض الإلهي للسلطان إلا أن محاولة نصحه وتقويم نهجه تظل هي الطريق نحو حياة فضلى فهو الممثل لصلاح الرعية أو فسادها.

ثم إن الدين الإسلامي يأمر بإطاعة أولياء الأمور، وهو الذي يجعل النصيحة لهم أمراً واجباً، وهي تدرج ضمن التقويم الأخلاقي للسلوك، وقد طلب ذلك كثير من الولاة والخلفاء والسلطين، وقد بادر كثير من رعايا الدول الإسلامية إلى نصح الخلفاء والأمراء بل ومحاسبتهم أيضاً.

ولعل نظام الشورى شاهد حي على وجوب هذه النصيحة بل على أهميتها أياً كان مدخلها، إذ يتلقى الأمير نصائح كثيرة من خلال هيئة مستشاريه وهو الأمر الذي يُقوّم سيرورة الملك.

فقد تطوع الوزراء والمقربون للنصح، وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب ذلك في نفاضة الجراب في حديثه عن الوزير عمر بن عبدالله واضطراب الحالة في المغرب بقوله: "كثر يومئذ مصطفى الوزراء المنتقبين ببذل النصح وإهداء الوسائل"^(٢).

(١) الغزالي، أبو حامد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقق: محمد أحمد، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٢.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقق: أحمد مختار العبادي، د.معلومات،

الفصل الثاني

الخصائص الفنية للوصايا النثرية

التأثر بالقرآن الكريم:

الاستشهاد الصريح بالقرآن الكريم ، إذ اتكأ الموصون في توطيد أركان وصاياهم وحمل المتلقين على الافتناع بها على الأسس والثوابت الدينية، فالمقصود بالوصايا حضّ النفوس على اتيان أمر والابتعاد عن آخر، والنفوس تتعلق بالأمر لأنه قد "يحسن من جهة الدين وما تَوَثَّرَه النفس من الثواب على فعل شيء أو اعتقاده وتخاف من العقوبة على تركه وإهماله وإما أن يقبح من ضد ذلك"^(١).

والأدباء إذ ينهلون من المصدر التشريعي الأول يصدرن في ذلك عن يقين بأن الوعظ لا بد له من أن يكون نابعاً من التشريعات الإلهية وفي ذلك يقول لسان الدين بن الخطيب: ^(٢)"آه، آه، أي وعظ بعد وعظ الله يا أحببنا يُسْمَع".

فقد جاء الاستشهاد بالنص على الآيات القرآنية وإيرادها في متن الوصايا صراحة في مواضع كثيرة ومتنوعة ومن ذلك:

ما أوصى به الوزير أبو بكر على لسان يوسف بن تاشفين أهل مكناسة قائلاً^(٣): "ولا تتولّوا عن الموعدة وأنتم معرضون، ولا تكونوا كالذين قالوا: (سمعنا وهم لا يسمعون) ، وحسبنا هذا"^(٤).

ومنه استشهاد ابن الجد - فيما كتبه موصياً أهل غرناطة على لسان الأمير يوسف بن تاشفين بقوله^(٥): "... ولن يَسْبِقَ شيءٌ آتاهُ، وإذ أراد الله أمراً سَنَّاهُ، (وعسى أن تَكْرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعسى أن تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) ^(٦)". ومنه ما أورده لسان الدين بن الخطيب في ثنايا وصاياهِ الكثيرة^(٧).

(١) القرطاجني، حازم، (٦٨٤). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. ط٣. تحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار

الغرب الإسلامي: تونس. (١٩٨٦). ص ١٠٦.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، ربحانة الكتاب، ج ٢، ص ٤٣٨.

(٣) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج ٢، ص ٣١٣.

(٤) الآية: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون. ولا تكونوا كالذين قالوا

سمعنا وهم لا يسمعون" الأنفال: ٢٠: ٢١.

(٥) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج ٢، ص ٣٣٣.

(٦) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

(٧) انظر في هذا: نفتح الطيب، ج ٧، ص ٣٨٢-٣٨٧.

والحق أن الاستشهاد بآيات القرآن الكريم أصبح من الخصائص الفنية لأدب ما بعد الإسلام عامة، إذ بدأ الصدور عن القيم والأخلاق متعلقاً بجهة الدين وتوجيهاته السامية، فهو المعيار والمقياس في الصدور عن أي أمر، وهو الفيصل في الحكم على الأمور والأشياء.

ثم إن ورود الشاهد القرآني في سياق إقناعي يحسم المسألة، ويفصل القول فيها؛ إذ ليس لمؤمن أن تكون له الخيرة في أي أمر قضى الله ورسوله فيه. مما يجعل الشاهد القرآني حجة دافعة تلزم المتلقي، وتحول دون ثقته من إمضاء الأمر والامتثال إليه، هذا بالإضافة إلى أن معظم الوصايا والنصائح تنهل أصلاً من المصادر الدينية، وتصدر عنها وتسير باتجاهها.

الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف:

يستخدم الموصي الحديث النبوي في معرض حديثه ونصائحه ليقنع مخاطبته بصحة مذهبه، مستنداً إلى أساس التشريع الثاني. ومن هذا إيراد ابن الجبان لنص الحديث الشريف بقوله صلى الله عليه وسلم: "حرمة مال المسلم كحرمة دمه"^(١) وذلك بعد أن حذر المتلقين من الاعتداء على الأموال وأوصاهم بالألا يظلموا وأن يُنصفوا^(٢).

وقد أورد أحاديث نبوية^(٣) كثيرة في وصيته عن ابن هود لأخيه منها قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يَنْزَع من شيء إلا شأنه"^(٤).

ومن ذلك تأثر ابن سعيد بقوله^(٥):

"وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر، فلا تعامل الدون بمعاملة الكفاء ولا الكفاء بمعاملة الأعلى". بقول الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أمر بأن ننزل الناس منازلهم^(٦).

(١) مسند أحمد ٤٤٦/١.

(٢) نفع الطيب، ج٧، ص٤١٢-٤١٣.

(٣) نفع الطيب، ج٧، ص٣٢٢.

(٤) صحيح مسلم ٢٠٠٤/٤.

(٥) نفع الطيب، ج٢، ص٣٥٧.

(٦) صحيح مسلم، ج١، ص٤.

الاستشهاد بالشعر:

وقد استشهد أصحاب الوصايا النثرية بأبيات شعرية في ثنايا نثرهم، وهذا كثير منه
استشهاد لسان الدين بأبيات لحسان هي:

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى

وأبصرت بعد اليوم من قد تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثلته

ولم تترصد مثل ما كان أرصدا

ومنه أيضاً تضمينه أبياتاً لأبي العتاهية هي^(١):

خاتك الطرف اتتد أيها القلب الجموح

فدواعي الخير والشر دنو ونزوح

كيف إصلاح قلوبٍ إنما هنّ قروح

وهذا كثير

ومن إيراد الشعر في ثنايا الوصايا الشعرية ما يكون من نظم الموصي نفسه وهذا عند
من امتلاك القدرة على فنون القول ومن هؤلاء ابن الخطيب فقد ضمّن نثره كثيراً من شعره
ومنه^(٢):

خذ من حياتك للممات الآتي وبدار ما دام الزمان مواتي

التقاطع مع الموروث الثقافي

ويلجأ الموصي إلى التقاطع مع الموروث الثقافي المتمثل في المثل والحكمة، ولا يخفى
ما لهذا من فضل في الإقناع؛ إذ يحمل في ثناياه إشادة بخبرة الموصي وطول باعه في الحياة

(١) أبو الفرج الأصبهاني، أبو العتاهية، مكتبة صادر، بيروت، ص ١٦٧.

(٢) نفح الطيب، ج ٦، ص ٣٢٢.

ومن ذلك قول لسان الدين^(١): "... يخاطب بلسان حاله مترجماً : "وليت الفجل يهضم نفسه". "

ومنه أيضاً^(٢): "... والحازم من بتر الآمال طوعاً، وقال: بيدي لا بيد عمرو".

ويلجأ الموصي إلى الموازنة العقلية بضرب المثل ليتمكن المخاطب من التوصل إلى الحكمة المرادة عن طريق القياس، واستخلاص العبرة، ومن هذا قول ابن الخطيب^(٣): "اعلم أن كل حكيم صانع إذا فكّر في أمره ونظر في العواقب علم أنه لا بُدَّ يوماً أن يخرب دكانه الذي هو محل بضاعته، وتنحلّ أنقاضه، وتكلّ أدواته، وتضعف قوّته، وتذهب أيام شبابه، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان، واستغنى عن السعي، فإنّه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر، ولا إلى أدوات مجدّدة، فليتجر بما اقتناه ويشغل بالانتفاع والالتذاذ بما كسبت يده، وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد، فبادر واجتهد واحرص واستعجل، وتزوّد قبل خراب دكانك وهدم بنيته...".

اللغة:

وقد يلجأ الموصي إلى أسلوب الاستفهام في بثّ مواعظه في محاولة لمدّ جسور التواصل مع المتلقّي، إذ يبقى الاستفهام المُخاطب منتبهاً متحقّراً، ومن هذا قول لسان الدين واعظاً^(٤): "أين المعمر الخالد؟ أين الولد أين الوالد؟ أين الطارف أين التالد؟ أين المجادل أين المجالد؟".

ومنه أيضاً قوله^(٥): "إخواني صمّت الأذان والنداء جهير، وكذب العيان والمشار إليه شهير، أين الملك وأين الظهير؟ أين الخاصة أين الجماهير؟ أين القبيل والعشير؟ أين كسرى ابن أردشير؟" ومنه أيضاً^(٦): "فما هذه الغفلة عمّن إليه الرجعى وإليه المصير؟ وإلى متى التساهل في حقوقه وهو السميع البصير؟ وحتى متى مدّ الأمل في الزمن القصير؟ وإلى متى نسيان اللجأ إلى الولي النصير؟".

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٣٢٢.

(٢) السابق نفسه، ص٣٣٦.

(٣) السابق نفسه، ص٣٢٠.

(٤) نفع الطيب، ج٦، ص٣٣٢-٣٣٣.

(٥) السابق، ج٦، ص٣٢٢، انظر فيه ج٦، ص٣١٩ و ج٧، ص٣٧٩.

(٦) السابق، ج٧، ص٣٨٧.

ومنه الاستفهام الاستنكاري قول لسان الدين^(١):

"أتعزراً على الله وهو القوي العزيز؟ أتلبساً على الله وهو الذي يميّز الخبيث من الطيب والشبه من الإبريز؟ أمعاندّة والنواصي في يديه؟ أغروراً بالأمل والرجوع بعدّ إليه؟ من يبدأ الخلق ثم يعيده؟ من ينزل الرزق ويفيده؟ من يرجع إليه في الملمات؟ من يرجى في الشدائد والأزمات؟".

ويستعمل الموصي أسلوب النداء في خطابه، وذلك إمّا بوجود أداة النداء كقول لسان الدين^(٢): "يا طرداء المخالفة" وقوله^(٣): "يا طفيلية الهمة" وقوله^(٤): "يا من غدا وراح وألف المراح، يا من شرب الراح... يا مشتغلاً بداره ورمّ جداره... يا من صاح بإنذاره شيب عذاره، يا من طرف عين اعتذاره بأقداره، يا من قطعه بعد مزاره وثقل أوزاره، يا معتلفاً ينتظر هجوم جزّاره، يا مختلساً للأمانة... يا من أمعن في خمر الهوى... يا من خالف مولى رقه... يا كلفاً بعارية ترد...".

وقد يكون بغير أداة النداء كقوله^(٥): "إخواني...".

ومنه قول ابن الجنان موصياً العامّة مستفتحاً ذلك بقوله^(٦): "أيّها الناس، رحمكم الله تعالى...".

ويستعمل لسان الدين أسلوباً خاصاً في بعض وصاياه، يتمثل في افتتاح جملة بلازمة تعبيرية هي "الله الله" ولا يخفى ما لها من حثّ على العمل لاقترانها بمرضاة الله وذلك في قوله^(٧): "الله الله في الهمم فقد خمدت ريحها، والله الله في العقائد فقد خفيت مصابيحها، والله الله في الرجولية فقد قلّ حدّها، والله الله في الغيرة فقد تعرّس جدّها، والله الله في الدين فقد طمع الكفر في تحويله، والله الله في الحريم فقد مدّ إلى استرقاقه يد تأميله، والله الله في الملة التي يريد إطفاء سناها، وقد كمل فضلها وتناهى، والله الله في الحريم، والله الله في الدين الكريم، والله الله في القرآن، والله الله في الجيران، والله الله في الطارف والتالد، والله الله في

(١) نوح الطيب، ج٧، ص٣٨٥.

(٢) نوح الطيب، ج٦، ص٣٢٢.

(٣) السابق، نفسه.

(٤) السابق، ج٦، ص٣٣٣-٣٣٤. وانظر نفسه ص٣١٩.

(٥) السابق، ج٦، ص٣٢٢.

(٦) السابق، ج٧، ص٤٢٧.

(٧) السابق، ج٦، ص٣٨٤.

الوطن الذي توارثه الولد عن الوالد".

وقد استخدم هذا ابن الجنان في وصيته عن ابن هود^(١).

والموصي لا ينسى نفسه من الوصية، بل إنه يجمل نفسه مع المخاطب وهذا أتمُّ للفائدة وأعظم للعائدة وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه من بعده يوصون جمهور المسلمين وأنفسهم أيضاً وقد سار على هذا الفقيه الكاتب أبو عبدالله محمد بن الجنان المرسي الأندلسي فيما كتبه عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه قائلاً^(٢): "فأول ما نوصيكم به وأنفسنا تقوى الله في كلِّ حال".

والموصي يحثُّ جمهوره على الاستماع والتدبُّر والفهم والعمل، يقول ابن الجنان في هذا^(٣): "أصيخوا أسمعكم لمواعظ الأيام، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أولي النهي والأحلام وأحضروا لفهم موادها أوعى القلوب وأصحَّ الأفهام، وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النوام...".

فالموصي حريص على تبيان أمانته في النصح. وإخلاصه في مراعاة شؤون من يقدم إليهم الموعدة ومن هذا ما قدم به الرئيس أبو عبد الرحمن إلى أبي النصر لنصائحه قوله^(٤):

"أنا -أعزك الله - عليك شحيح، ولك فيما تأتيه وتحثذيه نصيح".

فهو يقصد إلى ما فيه صالح المخاطب وهو ما مهَّد به لسان الدين خطابَه إلى علي بن بدر الدين الطوسي بقوله: "وأنا أخرج له عن بثِّ كمين، ونُصح أنا به قمين، بعد أن أسير غوره..."^(٥).

وقد نوّه العلماء والأئمة إلى أهمية الوصايا وإلى أن الرجل إنما يستودع وصيته ويعطي خلاصة خبرته لمن كان حرياً بها لقول محمد بن أمية^(٦): "أصلح الله الأمير، إن الرجل لا يعهد بوصيته ولا ياتمن على ولده وماله، غير أوثق الناس، وهذه وصيتي، فانظر إلى من أسندتها".

(١) نفع الطيب، ج٧، ص٤٠٨.

(٢) السابق، ج٧، ص٤٢٨.

(٣) السابق نفسه.

(٤) قلائد العقيان، ج١، ص٢٠.

(٥) نفع الطيب، ج٦، ص١٧٠-١٧١.

(٦) الخشني، أبو عبدالله محمد بن الحارث، قضاة قرطبة وعلماء أفريقية، تحق: عزت العطار الحسيني، مكتبة المثنى، بغداد، ص١٤٨.

ويبدو أنّ خطاب الوصية أحياناً صادر عن موصٍ حقيقي له المعنى وآخر وسيط له اللفظ؛ إذ ليس المرسل واحداً في كثير من الوصايا، وأعني به أن كثيراً من الحكام والأمراء يُكفون كتابهم ووزراءهم بالكتابة عنهم وربّما كان المعنى للحاكم واللفظ للكاتب، وربّما كان ذلك كله متروكاً لفظنة الكاتب، فالموصي في كثير من هذه الوصايا النثرية حقيقي وظاهري.

الوصايا النثرية في معظمها صادرة عن وزراء الحكام وسلاطينهم، لذا فإنها تمثل السلطة بشكل أو بآخر، لذا نجد غلبة الوصايا السياسية في الوصايا النثرية.

ولا بُدّ من الإشارة إلى قيمة الوصايا بشكل عام، فهي وإن اختلفت أساليبها، وتباينت طرق صياغة العبارة فيها، فإنها تحتفظ برونق خاص ينبثق - بالطبع - عن المضامين الشريفة التي تحتويها فالحديث عمّا يصلح الدنيا والدين، وينفع العباد والبلاد مضمون راق وهادف دون شك. وهو ما أشار إليه الإمام عبد القاهر بقوله^(١): "إن من الكلام ما هو كما هو شريف في جوهره كالذهب الإبريز، الذي تختلف عليه الصور، وتتعاقب عليه الصياغات، وجل المعول في شرفه على ذاته، وإن كان التصوير قد يزيد في قيمته، ويرفع في قدره".

كما يلحظ الناظر في الوصايا جنوحاً إلى الإيجاز على مستوى العبارة، وفزعاً إلى الإطناب على المستوى العام للنص؛ إذ تأتي الجمل مكثفة متلاحقة في نصوص كثير من الوصايا من مثل: "آن لحركتكم في أمره أن تهدأ، وللنائرة بينكم أن تطفأ، ولذات بينكم أن تصلح"^(٢).

ومثل هذا كثير يوضح ما سبق بيانه من الاختزال على مستوى الجملة، والبسط على مستوى النص عن طريق مدّ العبارات، ولعلمهم إنما يلجأون إلى هذا عندما يكون الخطاب موجهاً للعامة مراعاة لإفهامهم ورغبة في إيصال الفكرة إليهم. أمّا عندما يكون الخطاب للخاصة من الرؤساء والأئمة فإنهم يلجأون إلى الإيجاز من أجل التخفيف عن السامعين، وذلك جلي واضح فيما مضى من النصوص التي وجهت للنخب من الأوساط الخاصة؛ إذ^(٣) متى كانت المعاني بيّنة بنفسها أو بقرينة من سياق الكلام أو غيرها من القرائن كان الإيجاز نافعاً لأجل التخفيف عن النفس لأن الألفاظ غير مقصودة لذاتها، إنما هي لإيصال المعاني إلى النفس؛ فإذا وصلت النفس إلى المعنى بغير اللفظ كان اللفظ زائداً فيثقل، لا سيما إن كانت النفس ترى أن لها في الوصول

(١) الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة، ص ٩.

(٢) ورد بيانه سابقاً.

(٣) المراكشي، ابن البناء أبو العباس (٧٢١هـ)، الروض المريع في صناعة البديع، تحق: رضوان بنشقرون،

الدار البيضاء، دار النشر المغربية (١٩٨٥)، ص ٨٣-٨٤.

إلى المعنى خصوصيةً وشرفاً على غيرها تُسرُّ بذاتها، لأنها قد بلغت إلى المقصود من غير طول وكل ما يُسهَّل في الوصول إلى المطلوب فهو محبوب وكل ما يعوِّق عنه فهو مكروه".

الباب الثاني الوصايا الشرعية في الأندلس

تعددت مظاهر الحياة في الأندلس وتنوّعت فأتاحت لشعراء الأندلس خوض غمار هذه الحياة بمظاهرها المتعددة التي أفرزت لنا نتاجاً شعرياً يعكس لنا صور هذه الحياة بمختلف ألوانها وأشكالها.

وكسائر أغراض الشعر المتعددة حظيت الوصايا بقسطٍ من نتاج شعراء الأندلس فقدّموا لنا عصارة تجاربهم، وخلاصة خبراتهم التي زخرت بها مصادر الأدب الأندلسي والكتب التي أرخت لهذه الحقبة الزاهرة بالأحداث حلوها ومرّها.

فجاءت الوصايا الشعرية لشعراء الأندلس متعددة متنوعة لم تكذُ تغفلُ جانباً من جوانب الحياة إلا وتطرقت إليه فمن هدي النبوة ونور القرآن إلى عالم الحكم وشؤون السلطان إلى الأخلاق والمعاملات إلى الكوارث والنوازل والملمات وما تتركه من آثار على النفوس والخوض في أسبابها وما أفضت إليه وتحذير الآخرين من مغبة ولوج تلك المعتركات وركوب تلك السُّبُل خوفاً عليهم من منقلب الحال وسوء المآل.

وهكذا يتراءى للباحث وهو يتعقب هذا اللون - الوصايا - ويتتبع هذا الفن في ثنايا القصائد وبين دقات كتب تاريخ الأدب أن شعراء الأندلس تعرّضوا لهذا اللون بسائر أغراضه فتارة يعمدون إلى الكتاب والسنة ينهلون منهما تذكرة للغافلين وتنبيهاً للشاردين وأخرى يرون خلافاً في شؤون السياسة والحكم فيرسلونها صرخات مدوية تارة وهمسات مؤثرة تارة أخرى وكلما اتسعت دائرة الخلل وعظم الخطل واشتدّ الخطر علت الأصوات واحتدّت النبرات، وإذا خشي الشاعر بطشاً وخاف انتقاماً عمد إلى التعريض والتلميح وجانب المباشرة والتصريح. وإذا ما رأى في المجتمع زيغاً وضلالاً وتفسّخاً وانحلالاً عمد إلى المكاشفة والمناصحة علّ كلماته تجد طريقها إلى القلوب والعقول فيسدُّ الخلل ويصلح الزلل.

وهكذا نلاحظ أنّ الوصايا بمختلف أنواعها: الدينية والسياسية والاجتماعية قد شغلت حيزاً لا بأس به من النتاج الشعري في الأندلس وإن اختلف الكم تبعاً لاختلاف النوع.

الفصل الأول
موضوعات الوصايا الشرعية

المبحث الأول الوصايا الدينية

يستطيع الباحث أن يلمس من خلال تتبّعه لهذا اللون من الوصايا تفوقه على الغرضين : السياسي والاجتماعي ولا غرو فقد ظلّ الإسلام السّمة البارزة والشّعار الظاهر للدولة في الأندلس مذ دخلها المسلمون سنة ٩٢هـ وحتى غادروها مرغمين.

وطيلة هذه الفترة وإنّ تعاقب على حكم الأندلس فئات وجماعات من المسلمين ذات توجهات فكرية وسياسية متباينة إلا أنّ الإسلام ظلّ رمز الدولة وشعارها وظلّ تأثيره في الدولة والمجتمع ظاهراً واضحاً وترك بصماته على العامة والخاصة وظلّ المرجع الذي يُستند إليه. وكما كان للدين أثره على النظام السياسي في الأندلس فقد ترك آثاراً واضحة أيضاً على الأدب بشقيه: شعره ونثره وما يهمنّا هنا هو أثر الدين على الشعر والشعراء، إذ تطرّقنا للحديث عن الأثر الديني على النثر عامة وأثره على فن الوصايا وكاتبها بشكل خاص.

ومن خلال تتبّع دواوين شعراء الأندلس والبحث في كتب تاريخ الأدب نلاحظ أنّ الدّين كان حافزاً ومحركاً لثلة من شعراء الأندلس رأوا في التمسكّ به واتباع تعاليمه خلاصاً لهم من كافة المعضلات والمشكلات ومخرجاً من كل المهّمات والملّمات وكلما تزعزت أركان الدولة وتضعضت ردّوا ذلك إلى ابتعاد العامة والخاصة عن الدين وهرعوا يرسلون صيحاتهم ويقرعون أجراس الخطر، ويدقون نواقيسه أملاً منهم أن تجد تلك الصيحات صداها في القلوب والنفوس فيتداركون الأمة قبل وقوع الأزمة، ويعيدونها إلى جادة الصواب قبل فوات الأوان.

ومن هنا نلاحظ أنّ الوصايا الدينية المبنوثة في ثنايا دواوين شعراء الأندلس، وفي المقطوعات الشعرية المنفرقة في كتب تاريخ الأدب قد تعددت وتنوّعت واستوعبت جوانب كثيرة من مقاصد الشريعة وأحكامها وتركت صدى لا يُستهان به وأثراً على الرؤساء والمرؤوسين والأرياب والمربوبين، وبلغ من أثرها أن جيبشت الجيوش، واستنهضت الهمم وأطالت في عمر دولة الإسلام في الأندلس غير مرة وكان لها أبلغ الأثر على الصعيدين العام والخاص.

ولم تقتصر هذه الوصايا على فئة قليلة من الشعراء ذوي التوجّه الديني بل تعدّتهم إلى شعراء آخرين لم يكن الدين من أولوياتهم أو اهتماماتهم بيد أن عنصر الوصايا الدينية يظهر في أشعارهم من حين لآخر مهما لجّوا وابتعدوا وعادت وصاياهم لا تغفل خلاً ولا عطلاً إلا وسعت لإصلاحه ولا ثغرةً ولا فرجةً إلا وسعت لسدّها كما سيتبيّن.

ويكاد الناظر في وصايا شعراء الأندلس الدينية يحصرها في أصنافٍ لا تكاد تتعدّها

وهي: العبادات بشقيها: الفروض والنوافل، والأخلاق والمعاملات ووصايا وعظية تحض على التوبة والأوبة والإنابة قبل فوات الأوان و تذكر بقصر العمر وقرب انقضاء الأجل مهما طال وتوصي بالعمل لما بعد الموت وتجعل أول طرق الخلاص وآخرها وأساسها تقوى الله عزوجل، ويدخل في الوصايا الوعظية وصايا الاعتبار والادكار من تقلبات الدهر ونوائبه

الحض على ذكر الله وتقواه:

أوصى الشاعر الأندلسي العبد الغافل باليقظة والتنبه لعبادة الله رافع السماوات العلى وباسط الأرض الذي لا تدركه العقول ، الجواد الخالق المعبود الذي تخضع له الكائنات بالأوامر والنواهي. أوصى الشاعر الأندلسي جمهوره بذكر الله سبحانه وتعالى، قائلاً^(١):

واذكر إلهاً ما أجلّ فذكره سبحانه كالشهد في الأفواه

وهو يدعو إلى ذكره تعالى طريقاً لكسب رضاه فهذه أعمال الصالحين قائلاً^(٢):

فم من النوم واذكر واحداً صمداً فذكره لرضاه أفضل الطرق
فالصالحون قيام طول ليالهم ذوو نحيب عظيم الهول مع قلق
تراهم بين تال لا فتور له وذاكر لا غتمام الذكر مستبق

وفي الحث على البر والتقوى يقول ابن الأبار^(٣):

وادأب على البر والتقوى فبابهما إلى السعادة مفتوح لمن قرعا

الحض على الصلاة:

حثّ الشاعر الأندلسي على أداء الصلاة في وقتها وضرورة الخشوع أثناء تأديتها وحضور القلب في ذلك محذراً من الرياء، وفي هذا يقول عبد الكريم القيسي^(٤):

(١) ديوان ابن حمديس، ص ٢٨٧.

(٢) السابق، ص ٣٥٨.

(٣) السابق، ص ٣٧٧.

(٤) ديوانه، ص ٢٨٧.

وأفـق وقـم لصـلاتـه فـي وقـتها
 وثوابـها لمقـيمـها فـي وقـتها
 وإن الصـلاة وسـيلة هـي ما هـي
 لا مُنـقـض أبـداً ولا مـتـناه
 وأدم حـضـور القـلب عـند أدائـها
 واخـشع خـشـوع القـانت الأواه
 واحـذر إذا أدبـتها بجماعـة
 مـن أن ثرائـي بالأدا وثبـاهي

وهو إذ يوصي بذلك، يحث في موضع آخر على أداء السنة في الصلاة، وإقراض الله قرصاً حسناً، يقول^(١):

وبالفرض قم لله واشفع بسنة
 فقد وعد الحسنى جزاءً محققاً
 فـيا فوز مـن أضـى بها يشـفع الفـرضا
 لمن كان في الدنيا له أحسن القرضا

ويحث في موضع ثان على قيام الليل قائلاً^(٢):

فـيا كـثير الرقـاد احـذر تـعدبـه
 وقـم إلى الله قـبل الفـجر مـغتـمـاً
 وكحل الجفن كحل السهد والأرق
 مهب ريح الرضى في زي منتشيق

وذلك كله مقتبس من آيات الذكر الحكيم والهدي النبوي الشريف:
 ومنه قوله تعالى:

"إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً"^(٣).

وقوله عليه الصلاة والسلام:

"أي العمل أحب إلى الله قال: الصلاة على وقتها"^(٤).

وقال سفيان الثوري: "يكتب للمرء من صلاته ما عقل منها"^(٥).

(١) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٣٠٧.

(٢) السابق، ص ٢٥٨.

(٣) سورة النساء، آية ١٠٣.

(٤) صحيح البخاري ١/١٩٧.

(٥) خلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ٧/٦١.

يقول عبد الكريم القيسي في هذا^(١):

حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى يَا سَاهِ
قَمَ لِلذِّي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ العُلَى
قَمَ لِلذِّي تَاهَتِ عَقُولُ الخَلْقِ فِي
قَمَ لِلذِّي عَمَّ الوَجُودُ
قَمَ لِلذِّي عَنَتِ الوَجُوهَ لوجْهه
قَمَ لِلذِّي أَضْفَى عَلى أَحْبَابِه
قَمَ لِلذِّي أَمَرَ الوَرَى وَنَهَاهم
تُلْفَى كَثِيرَ النُّومِ قَمَ لِلَّهِ
وَدَحَا بِسِيطِ الأَرْضِ فَوْقَ مِيَاهِ
إِدْرَاكِ مَا أَبْدَاهُ أَيَّ مَتَاهِ
بِجُودِهِ مِنْ طَائِعٍ أَوْ مُسْرِفٍ تِيَاهِ
بِالطَّوْعِ أَوْ بِالعَتَقِ والإِكْرَاهِ
مِنْ فَضْلِهِ ثَوْبَ الجَلَالِ الزَاهِي
أَعْظَمَ بِهِ مِنْ أَمْرٍ أَوْ نَاهِ

وفي هذا المعنى يقول في موضع آخر^(٢):

يَا رَاقِداً طَوولَ هَذَا اللَّيْلِ لَمْ يُفِيقْ
قَمَ لِلذِّي خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

الحض على الصوم:

وقد أوصى الشعراء بالصيام ونوّهوا بفضله، فهذا ابن الأثير يقول^(٣):

وَلَا تُفَارِقْ صَدَى فِيهَا وَمَخْمَصَةٌ
تَتَلَّ بِدَارِ الخُلُودِ الرِّيِّ والشُّبُعَا

وقد جاء في القرآن الكريم: "كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم"^(٤).

ومن وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم صيام الاثنين والخميس^(٥):

"تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس فأحبّ أن يعرض عملي وأنا صائم".

"من صام يوماً في سبيل الله بعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً"^(٦).

(١) الديوان ، ص ٢٨٧.

(٢) ديوانه ، ص ٣٥٧.

(٣) الديوان ، ص ٣٧٨.

(٤) سورة البقرة، آية ٨٣.

(٥) سنن الترمذي ١٢٢/٣.

(٦) صحيح البخاري ١٠٤٤/٣.

وقال صلى الله عليه وسلم: "كل حسنة يعملها ابن آدم تضاعف عشراً إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به يدع شهوته من أجلّي ويدع طعامه من أجلّي فرحتان للصائم فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه عز وجل ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك"^(١).

ومن الوصايا الدينية التي تحثّ على العبادة في شهر رمضان ونبذ ما يُلهي حتى يصل العبد إلى منازل القبول قول الفقيه الإمام أبي بكر غالب بن عطية المحاربي^(٢):

لا تجعلن رمضان شهراً فكاهاة
تلهيك فيه من القبيح فنوئه
واعلم بأنك لا تنال قبُولَهُ
حتى تكون تصوّمهُ وتصوئه

النهي عن القتل:

وقد نهى الشعراء عن القتل الحرام لأن الله تعالى يحاسب عليه بل إنّ بعض العلماء رأوا أن مقترف هذا الفعل لا يُثاب على شيء أبداً، وفي هذا يقول ابن الجيّاب الغرناطي^(٣):

سَفَكُ الدِّمَاءِ الحَرَامِ بِهِ
غَدَاً يَبْدَأُ الحَسَابِ
وَمِنَ أَوْلِي العِلْمِ مَنْ رَأَى
أَنْ لَيْسَ فِي سَفْكَهَا مَثَابِ
فِرَاقِ بِلِلّهِ واجْتِنَبَهَا
وَاحْذَرِ يَضَاعِفُ لَهُ العَذَابِ

مخالفة هوى النفس:

وقد أوصى الشعراء بضرورة مخالفة هوى النفس الدافع إلى معصية وفي هذا يقول ابن الجيّاب الغرناطي^(٤):

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٢٦٦.

(٢) قلائد العقيان، ج٣، ص٦٣٧.

(٣) ديوانه، ص٢٠٣.

(٤) ابن الجيّاب الغرناطي ٦٧٣-٧٤٩هـ/١٢٧٤-١٣٤٨م علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري الغرناطي، أبو الحسن، ابن الجيّاب، شاعر وأديب أندلسي غرناطي أنصاري، من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، ولد في غرناطة، وبها نشأ وترعرع، وأخذ العلم عن مجموعة من علمائها الأفاضل، توفي بالطاعون في غرناطة، تاركاً الكثير من الشعر والنثر، جمع أغلبه تلميذه لسان الدين بن الخطيب، حياته وشعره، ص٢٠٤.

هي النفس إن أنت سامحتها
وإن أنت جشمتها خُطّة
فإن شئت فوزاً فناقض هواها
ولا تعباً أن بميعادها

وفي المعنى نفسه يقول^(١):

ألا أيها المرء الذي رام توبة
وقد أيقنت علماً بباطن أمره
إلى كم تُرَجِّي العمر والعمرُ ذاهب

وفي الدعوة إلى مخالفة هوى النفس الذي يقود إلى الهوان يقول علي الغراب الصفاقسي^(٢):

دع هوى ما إليه نفسك تدعو
فالهوى للهوان يعطي زمامه

وفي هذا المعنى قال الشيخ أبو عثمان سعيد بن أحمد بن ليون^(٣):

خالف النفس في قصود هواها
تبقى ما عشت سالماً من أذاها
فاتَّباع الهوى هوانٌ ولكن
هان للنفس كي تنال منهاها

ومنه قول الإمام ابن حزم^(٤):

لا تُتَّبِع النفس الهوى
وَدَعْ التَّعْرِضَ لِلْمِحْنِ

(١) الديوان، ص ٢٠٥.

(٢) ديوانه، ص ١١١.

(٣) هو أحد شيوخ لسان الدين كان مولعاً باختصار الكتب، لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص ٨٧.

(٤) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٥٦.

الصدق:

وقد دعا الشعراء إلى اتخاذ الصدق سبيلاً للحياة والابتعاد عن الكذب وفي هذا يقول ابن حمديس^(١):

إن شئت أن تحيا فكن صادقاً فإتاما الكذاب كالميت

وهو مقتبس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"وإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن العبد ليتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن العبد ليتحرى الكذب حتى يكتب كذاباً"^(٢).

وكذلك حديث رسول الله: "أ يكون المؤمن كذاباً؟ قال: لا"^(٣).

في الحضّ على الصبر والرضا بالقضاء والقدر:

وسنلاحظ اقتباس اللفظ من القرآن الكريم:

"فاصبر صبراً جميلاً".

والآيات التي حثت على الصبر في كتاب الله كثيرة منها:

"واصبر وما صبرك إلا بالله"^(٤).

"واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلاً"^(٥).

"يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا"^(٦).

والرضا بقدر الله وقسمته حضت عليه السنة النبوية:

"وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس"^(٧).

(١) ديوانه، ص ٧٤.

(٢) صحيح مسلم ٢٠١٢/٤.

(٣) موطأ الإمام مالك رواية يحيى الليثي ٩٨٩/٢.

(٤) سورة النحل، آية ١٢٧.

(٥) سورة المزمل، آية ١٠.

(٦) سورة آل عمران، آية ٢٠٠.

(٧) سنن الترمذي ٥٥١/٤.

وكذلك حديث رسول الله "الصبر ساعة في بعض مواطن المسلمين خير من عبادة أربعين عاماً"^(١).

كما حثّ الشعراء على ضرورة الصبر على نوائب الدهر التي تصيب الجميع، فالدهر لا يبقى على حال وفي هذا يقول ابن خاتمة^(٢):

هو الدهر لا يُبقي على لاندٍ به فمن شاء عيشاً يصطبر لنوائبه
فمن لم يُصَب في نفسه فمصائبه بقوت أمانيه وفقد حبايبه

وفي الحضّ على الصبر، وذمّ الجزع، يقول عبد الكريم القيسي^(٣):

صبراً جميلاً لهذا الحادث الجلل وإن يكن ما به للقلب من قبيل
فالصبر بالأجر مقرون ومرتب في عاجل العمر أو مستقبل الأجل
واحذر من الجزع المذموم وارض بما في ابنك قد مضت الأحكام في الأزل

والشعراء في حثهم على الصبر يدعون إلى الرضا بقضاء الله يقول عبد الكريم القيسي^(٤):

اصبر لحكم الله وارض بما قضى تُكتب لديه من الأتام خيارا

ويقول في موضع آخر موصياً بالصبر أيضاً^(٥):

تَصَبِّرْ فِدَتَكَ النفوس عليه عسى أن ترى للخلاص مجالاً

فالصبر عاقبته الفرج في هذا يقول الصفاقسي^(٦):

ومن تحمّل ثقل الصبر في زمن يخفُّ في زمن ما عنه قد ثُقلا

(١) مسند الطيالسي ١/١٦٨.

(٢) ديوان ابن خاتمة، ص ٤٢٠.

(٣) ديوانه، ص ٤٢٠.

(٤) السابق، ص ٢٥.

(٥) السابق، ص ٢٦٨.

(٦) ديوان الصفاقسي، ص ١٠٣.

ففي الصبر رضا لنفس الحر، وفي هذا يقول ابن شكيل^(١):

فاصبر، فإنَّ الحرَّ من إنْ تدَّعه للصَّبِّ، طابَتْ نفسه وتَسَلَّتْ

وفي هذا يقول ابن جبير:

عليك بكتمان المصائب واصطبر عليها فما أبقي الزمان شفيقا

ولما يلقاه الصابرون من أجر يوصي ابن حمديس بالصبر قائلاً^(٢):

فصبراً فليس الأجر إلا لصابر على الدهر إن الدهر لم يخلُ من خطب

وابن زيدون يوصي بحسن الصبر الذي يكون معه الأجر من الله تعالى قائلاً^(٣):

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر

فمن شيم الأبرار - في مثلها - الصبر

ستصبر صبرَ اليأس أو صبرَ حِسْبَةٍ

فلا تؤثر الوجه الذي معه الوزر

فإنه يُعوِّض الصابرين بصبرهم الحسنى والخير وفي هذا يقول ابن شكيل^(٤):

فاصطبر وارتقب مراجعة الحُسنَى من الله فهو غير شحيح

كما أوصى الشاعر الأندلسي بالرضا والقناعة فيما قسمه الله من أمر الدنيا، يقول المعتمد

بن عبَّاد^(٥):

(١) أحمد بن يعيش بن شكيل الصَدْفِي الأديب، من أهل شريش وأحد شعرائها الفحول.

انظر: حياة قارة، أبو العباس أحمد بن شكيل الأندلسي شاعر شريش، ط١، منشورات المجمع الثقافي - الإمارات العربية، ١٩٩٨، ص٤٣.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص٣٧.

(٣) ديوان ابن زيدون، ص١٤٠.

(٤) ديوان ابن شكيل، ص٥٢.

(٥) المعتمد بن عبَّاد: الملك الشاعر، كان له في الأدب باع وساع، ينظم وينثر، تسابق إليه الشعراء، شعره كان موجوداً بأيدي الناس، شعره مقطوعات واضحة المعاني والألفاظ، تقلب في حياته من الشعر إلى التحسن.

انظر: ابن الأبرار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، الحلة السبيرة في أشعار الأمراء، تحقق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣، ج٢، ص٥٥.

وانظر: المعتمد بن عبَّاد وشعراء عصره، تحقق: محمد زهدي يكن، دار يكن للنشر، بيروت، ١٩٧٥،

اقنع بحظك من دنياك ما كانا

وعزّ نفسك إن فارقت أوطاننا^(١)

وفي القبول بقدره عزّ وجل نظم ابن الأثير^(٢):

ولا تُسَخِّطِ المقدور وارضَ بما جرى عليك به إن الرضى يفضّل السُّخْطَا

الحض على غضّ البصر:

وفي غضّ البصر يقول ابن جبير^(٣):

صُنّ العقل عن لحظة في هوى فإنّ البصيرة طوع البصر
وغضّ الجفون على عِقَّة فإنّ زناء العيون النظر

وقد أوصى القرآن الكريم بضرورة غضّ البصر والعقّة، وقد جاء ذلك في مواضع

عديدة من كتاب الله منها قوله تعالى:

'قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم، وقل للمؤمنات

يغضضن من أبصارهنّ ويحفظن فروجهنّ ولا يبدين زينتهنّ إلا ما ظهر منها'^(٤).

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة فمن

تركها من خوف الله أثابه جلّ وعزّ إيماناً يجد حلاوته في قلبه"^(٥).

(١) ديوانه، ص ١٩٢.

(٢) ديوان ابن الأثير، ص ٤٧٢.

(٣) ديوانه، ص ٤٢.

(٤) سورة النور، آية ٣٠، ٣١.

(٥) المستدرک على الصحيحين ٣٤٩/٤.

التوَكَّلُ:

تأتي الوصايا في تفويض الأمر لله والتوكل عليه، وفي هذا يقول ابن خاتمة الأنصاري^(١):

إذا ما الدهر نابك منه خطب وشدّ عليك من حَقِّ عقاله
فكَلِ اللهُ أمرك لا تفكّر ففكرك فيه خَبْطٌ في حباله

وهم يصدرون عن معانٍ قرآنية ونبوية بحتة كقوله تعالى: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه"^(٢) "وتوكل على العزيز الرحيم"^(٣). والآية القرآنية "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"^(٤). وفي ذلك يقول في موضع آخر^(٥):

فروض الأمر لتدبيره مرتضياً منه بما حَقَّ لك
وكن كما كنت له أولاً يكن لك الآن كما كان لك

وفي التسليم لأمر الله والرضا بما قسم وقدر يقول عبد الكريم القيسي^(٦):

فسلم الأمر لله العظيم كما أمرت وأرض بما أمضاه واحتمل

ومن تمام التوكل عليه دعوته منفرداً وترك دعوة غيره، فهو المعطي والرازق وفي هذا

(١) أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري، شاعر وكاتب ومترسل وفيه ومصنف وزاهد، له مؤلفات عدة منها: "مزيّة المريّة على غيرها من البلاد الأندلسية". انظر محمد رضوان الداية، ديوان ابن خاتمة الأنصاري، دار الفكر المعاصر، بيروت ودار الفكر، دمشق، ط، ١٩٩٤، ص ١٢٨.

(٢) سورة الطلاق، آية ٣.

(٣) سورة الشعراء، آية ٢١٧.

(٤) سورة الرعد، آية ١١.

(٥) ديوان ابن خاتمة، ص ١٢٨.

(٦) عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القيسي، عاش معظم القرن التاسع الهجري قبل سقوط غرناطة، عمل في الإمامة والخطابة والتوثيق والفيثا وعقد الشروط وعين والياً على منطقة أندلسية، تعرض للأسر من قبل النصارى، جمعه شيخه ومحمد الطرابلسي، ديوان عبد الكريم القيسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس، ١٩٨٨، ص ٤٢١.

يقول ابن الأثير^(١):

دع الوري وارح إليه الوري فإتفه ذو القبض والبسط

وهنا نلاحظ استخدام أسماء الله الحسنى (أسماء الصفات) فالله تعالى هو القابض وهو الباسط :
"يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر".

وفي هذا نظم ابن جبير قائلًا^(٢):

من الله فاسأل كل شيء تريده فما يملك الإنسان نفعاً ولا ضراً

نلاحظ أن ابن جبير يستلهم معاني قرآنية ويحث على طلب الحاجات من الله، وترك طرق باب كل من هو دونه فلا يملك النفع والضر إلا الله: قال تعالى: "أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه"^(٣) ويستمد من حديث رسول الله : "إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك".

وفي هذا يقول ابن حمديس^(٤):

سألم الأمر منك الله واعلم أن ما قد قضى به سيكون

وقول ابن حمديس هذا مقتبس من معاني قرآنية ففضاء الله واقع لا محالة وقدره نافذ لا يملك إنسان رده ولا يقدر مخلوق على دفعه "إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون"^(٥)،
"إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون"^(٦).

(١) ابن الأثير، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلسني، أخذ عن شيوخ الأندلس في بلنسية وغيرها، عمل كاتباً في بلاط أبي عبدالله الموحي، نفاه أبو عبدالله المستنصر، له عدد كبير من المؤلفات منها الحلة السيرة في أشعار الأمراء.

انظر: عبد السلام الهراس، ديوان ابن الأثير، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٥، ص ٤٧١.

(٢) ديوان ابن جبير، ص ٦١.

(٣) سورة الملك، آية ٢١.

(٤) ديوان ابن حمديس، ص ٥١٦.

(٥) سورة يس، آية ٨٢.

(٦) سورة آل عمران، آية ٤٧.

وفي الثقة بالله ودعوته دون غيره يقول ابن حمديس^(١):

كُنْ وَاثِقاً بِاللَّهِ سَبْحَانَهُ فهو الذي يصرف عنك الخطوب
واصرف إليه الوجّه عن معشر قد صرفوا عنك وجوه القلوب
وفي هذا يقول في موضع آخر من ديوانه^(٢):
أليس بنو الزمان بنو أبيكا فجرد عن حقائقك الشكوكا
ولا تسأل من المملوك شيئاً فترجع خائباً وسل المليكاً

وابن حمديس يبحثُ على الثقة بالله ويحضُّ على طلب المعونة منه وحده دون غيره، فهو وحده من لا يخيب سائله، وهو وحده القادر على دفع الملمات والمصائب عمّن وجهوا وجوههم لمن كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه، ويوصي بصرف الوجه عن معشر أوصدوا قلوبهم في وجوه سائلهم والتوجه إلى من لا يوصد بابه دون أحد.

ويعود في القصيدة الأخرى ليؤكد هذا المعنى ويرسخه، وليعيد إلى الأذهان حقيقة ربما نسيتها أو تناستها، وهي أن البشر كلهم بنو آدم مستمداً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والناس بنو آدم وادم من تراب"^(٣) وهي حقيقة لا مجال للتشكيك فيها، وأنّ البشر - وإن تفاوتت قدراتهم - إلا أنهم لا يعدون صفات الأدميين، وإنّ سؤالهم في نهاية الأمر لا يعدو سؤال الند للند وسؤال العبد المملوك لمملوك مثله وخاب وخسر من يدعو مملوكاً وأبواب المليك دونه مشرعة، ثمّ يؤكد حقيقة دينية استلهم معناها من قول سيّد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم: "ألا وإنّ نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها"^(٤)، ولو كان الرزق قاب قوسين أو أدنى فإن المرء لن يناله ما لم يكن قد قدر له أن يصيبه أو يصيب منه.

وهنا نلاحظ أن شعراء الأندلس في وصاياهم الدينية لا يزالون يصدرّون عن معان قرآنية وإرشادات نبوية فيقتبسون تارة اللفظ والمعنى وتارة يعمدون إلى المعنى فيسوقونه بتعبيرات شعرية تترك صدًى في القلوب وأثراً في النفوس.

(١) ديوان ابن حمديس، ص ٤٤.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص ٣٤٩.

(٣) سنن الترمذي ٤٣٥/٥.

(٤) المعجم الكبير للطبراني ١٦٦/٨.

الحض على الزهد:

وقد أوصى كثير من الشعراء بالزهد والتجرد عن الدنيا فهذا ابن الأثير يقول^(١):

تَجَرَّدَ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ إِنَّمَا خَرَجْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنْتَ مُجَرَّدٌ

كما أوصى القضاة والزهاد بذلك ومنهم محمد بن سعد بن قاسم الأوسي قال^(٢):

أَخْرَجَ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا تَعْتَلِقْ مِنْهَا بِمَا لَا بُدَّ أَنْ يُتَسَفَّفَ

ومن ذلك ما أوصى به الفقيه الوزير أبو بكر بن صنوان بقوله^(٣):

دَعِ عَنْكَ زُخْرَفَ عَيْشٍ لَا بَقَاءَ لَهُ

كَأَنَّهُ فَوْقَ ظَهْرِ الْمَاءِ تَصْوِيرٌ

وَإِخْلَعْ ثِيَابَ الْأَمَانِيِّ فَهِيَ كَاذِبَةٌ

دَنُوهَا وَإِنْ أَمْتَدَّ الْمَدَى زُورٌ

وفي ترك الشهرة والتواضع قال ابن جبيرة^(٤):

إِيَّاكَ وَالشَّهْرَةَ فِي مَلْبَسٍ وَالْبَسَ مِنَ الْأَثْوَابِ أَسْمَالَهَا

تَوَاضَعَ الْإِنْسَانُ فِي نَفْسِهِ أَشْرَفَ لِلنَّفْسِ وَأَسْمَى لَهَا

وفي قول ابن الأثير إشارة إلى قوله تعالى: "كما بدأكم تعودون"^(٥).

وقول ابن جبيرة مأخوذ من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُلُوا واشربوا والبسوا

(١) ديوانه، ص ٤٤.

(٢) لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحق إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت، د.ت، ص ١١٧.

(٣) ابن خميس، أبو بكر محمد بن علي المالقي، كتاب أدباء مالقة المسمى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخبار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار، تحق: صلاح جرار، دار البشير ومؤسسة الرسالة، ط ١، ١٩٩٩، ص ٣٩٧.

(٤) ديوانه، ص ١٢٣.

(٥) سورة الأعراف، آية ٢٩.

وتصدقوا في غير إسرافٍ ولا مخيلة" (١).

ومن قوله: "ومن تواضع لله رفعه" (٢).

في ترك البدع وزخرف الدنيا وعدم الالتفات إلى الأعراض الفانية الزائلة يقول ابن الأبار (٣):

لا تبتدع غير ما تبغي بمصنعه مرضاة من صنّع الأشياء وابتدعا
ولا تُعرج على أعراض فانية ثؤليك هجرأ إذا أوليتها ولعأ
إياك والأخذ فيما أنت تاركه من ترهات تجرّ الشين والطبعا
دين باطراحك دنيا طالما غدرت وزخرفاً من حلال شدّ ما خدعا

في ترك المحدثات من الأمور والتزام منهج السلف الصالح، نظم ابن جبير يقول (٤):

قد أحدث الناسُ أموراً فلا تعمل بها إني امرؤ ناصح
فما جماعُ الخير إلا الذي كان عليه السلف الصالح

وابن جبير وابن الأبار يحذران من ابتداع الأمور التي تُغضبُ الله ورسوله، وفي قولهما إفادة وإشارة إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد" (٥) وإشارة إلى وصية رسول الله: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ..." (٦).

وفي الابتعاد عن الدنيا والتمسك بالدين والمسارة إلى التقوى، وضرورة العمل، واغتنام العمر فإنّ طريق الحق والهداية واضح، قال أبو عمر ابن عبد البر يوصي ابنه (٧):

تجاف عن الدنيا وهون قدرها ووف سبيل الدين بالعروة الوثقى

(١) صحيح البخاري ٢١٨٠/٥.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ١٧٢/٨.

(٣) ديوانه، ص ٣٧٧.

(٤) ديوانه، ص ٣٤.

(٥) صحيح البخاري ٩٥٩/٢.

(٦) مسند أبي داود ٦١٠/٢.

(٧) نفح الطيب، ج ٤، ص ٢٨-٢٩.

وسارع بتقوى الله سرّاً وجهرة
فلا ذمّة أقوى هُديت من التقوى
ولا تنسَ شكر الله في كل نعمة
يَمُنُّ بها فالشكر مستجاب النعمى
فدع عنك ما لا حظ فيه لعاقِل
فإن طريق الحقّ أبلج لا يخفى
وشحّ بأيام بقين قلائل
وعمر قصير لا يدوم ولا يبقى
ألم ترَ أن العمر يمضي موليّاً
فجدّثه تبلى ومُدّتته تفتنى

الحث على فعل الخير وترك الشر:

أوصى الشعراء الناس بضرورة تقديم الخير والعمل الطيّب؛ لأن النتائج تأتي على قدر الأعمال، ووفقاً لها. فمن يزرع خيراً يحصد خيراً، والعكس صحيح، وفي هذا يقول ابن الأبار^(١):

ولتزرع الخير تحصد غبطة أبداً
فإنما يحصد الإنسان ما زرعاً

ومثله قول علي الغراب الصفاقي^(٢):

زارع البغي حاصد للندامة
فاطلب السلم إن أردت السلامة

وفي هذا تمثّل لقوله عزوجل:

"من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً"^(٣).

ولقوله أيضاً:

"ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فأولئك لهم الدرجات العلى"^(٤).

وقد دعا الشعراء إلى مراقبة الله عز وجل في الأعمال وترك تتبّع النجوم وحركاتها فأنه

(١) ديوانه، ص ٣٧٨.

(٢) ديوانه، ص ١١١.

(٣) سورة النساء، آية ١٢٣.

(٤) سورة طه، آية ٧٥.

تعالى هو الذي يقضي ويُقدّر وليست النجوم، وفي هذا يقول الحكيم^(١):

لا تَرَجُ فِي أَمْرِكَ سَعْدَ الْمُشْتَرِي

وَلَا تَخَفُ فِي قُوَّتِهِ نَحْسَ زُحَلٍ

وَارْجُ وَخَفْ رَبَّهُمَا فَهُوَ الَّذِي

مَا شَاءَ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ شَرٍّ فَعَلْ

وقصة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه حين انخسف القمر بعد موت ابنه صلى الله عليه وسلم ابراهيم : "إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَصَلُّوا وَادْعُوا حَتَّى يَكْشِفَ مَا بَكُمْ"^(٢).

وهذا من قوله عز وجل:

"وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ"^(٣).

"وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبأ في السموات والأرض"^(٤).

وأوصى الشاعر الأندلسي بالأمل بالله وبفرجه ولطفه، وألا يبببب الإنسان مكتئباً في كمده وفي هذا يقول ابن الأبار^(٥):

يَا شَفِيقَ النَّفْسِ أَوْصِيكَ وَإِنْ شَقَّ فِي الْإِخْلَاصِ مَا تَنْتَهَجُهُ

لَا تَبْتَ فِي كَمَدٍ مِنْ كَبَدٍ رَبِّ ضَيْقٍ عَادَ رَحْباً حَرَجُهُ

وَبَلْطَفِ اللَّهِ أَنْصَبِحْ وَانْقَبَأْ كُلَّ كَرْبٍ فَعَلِيهِ فَرَجُهُ

فمهما اشتدَّ الكرب وعظم البلاء واحلوك الليل فإنَّ مع العسر يسرا إنَّ مع العسر يسرا^(٦)، ولا يغلب عسرٌ يسرين.

(١) ديوانه، ص ١٣٦.

(٢) صحيح البخاري، ٣٥٣/١.

(٣) سورة فصلت، آية ٣٧.

(٤) سورة النمل، آية ٣٤.

(٥) ديوانه، ص ١١٨.

(٦) سورة الشرح، آية ٥، ٦.

الحض على الاستغفار والتوبة:

وتأتي الوصايا الدينية بالتذكير بضرورة الاستغفار والعودة إلى الله والندم على ما فات ،
ومراجعة النفس قبل الرحيل وفيه يقول مَرَجُ الكحل^(١):

انكر ذنوبك أيهاذا الناسي واستغفرن الله رب الناس
واقرع على ما فات سنك نادماً واكرع من العبرات في أكواس
وانفض عن الدنيا يدك ولا تكن تُغنى بهذي الأربيع الأدراس
انظر لنفسك قبل وقت رحيلها واذكر بقبرك قلّة الإيناس

وفي هذا المعنى يقول المعتمد بن عبّاد:

وطن على الكره وارقب إثره فرجاً واستغفر الله تغنم منه غفرانا

وفي الحثّ على التوبة يقول عبد الكريم القيسي^(٢):

وجيء تائباً لله مما جنيتُهُ وأكثر عليه في أناملك العضّاً
فعدّ عن الزلّات وانهض لطاعة فخير الورى من نحوها أسرع النهضا

وهو يشير في هذا إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "خير الخطائين التوابون"^(٣).

وفي هذا المعنى يقول الأمير عبدالله بن محمد^(٤):

فبادر بالإنابة غير وان على شيء يصير إلى فناء

(١) مَرَجُ الكحل: محمد بن إدريس عاش في أيام الحكم الموحد للأندلس لازم الأديباء ومدح الأعيان
والمشاهير، كان أكثر شعره من المقطوعات. انظر: صلاح جرار، مرج الكحل الأندلسي ، سيرته وشعره،
دار البشير، عمان، ١٩٩٣، ص ١٢٢.

(٢) البيان المغرب، ج ٢، ص ١٥٥.

(٣) سنن الترمذي ٦٥٩/٤.

(٤) ديوانه، ص ١٢٢.

ومن ذلك قول ابن الأثير^(١):

واسبق مشيبيك بالمتاب حزيمة فله حلوٌ عاجلٌ أو آجلٌ

وفي التوبة قبل فوات الأوان يقول ابن جبير^(٢):

وثب قبل عضّ بنان الأسى ومن قبل قرعك سينّ الندم

وفي ضرورة الاتعاض بالشيب ومسارة التوبة يقول ابن حمديس^(٣):

وُعِظْتَ بِلَمَّتِكَ الشَّائِبَةَ وفقْدَ شَبِيبتِكَ الذَّاهِبَةَ

وسبعين عاماً ترى شمسها بعينك طالعة غاربة

فيا حاضرأً أبداً ذنبه وتوبته أبداً غائبة

أذب منك قلباً تجاري به سوابق عبرتك الساكبة

على كل ذنب مضى في الصبا وأتعب إثباته كاتبه

عسى الله يدرأ عنك العقاب وإلا فقد دُمّت العاقبة

وفيه يقول في موضع آخر^(٤):

خلت منك أيام الشبيبة فاعمرها وماتت لياليها من العمر فانشرها

وهذا لعمرى كله غير كائن فأخراك واصلها ودنياك فاهجرها

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة ولم يتب"^(٥).

وفي التوبة يقول ابن عبد ربه^(٦):

بادر إلى التوبة الخالص مجتهداً

والموتُ ويحك لم يمدد إليك يدا

(١) ديوان ابن الأثير، ص ٢٦٦.

(٢) ديوان ابن جبير، ص ٨٥.

(٣) ديوان ابن حمديس، ص ٤٠/٤١.

(٤) ديوانه، ص ٢٦٥.

(٥) جاء في صحيح البخاري ٢٣٦٠/٥ "أعذر الله إلى امرئ أخر أجله حتى بلغه ستين سنة.."

(٦) نفع الطيب، ج ٤، ص ٣٢١.

وارقب من الله وعداً ليس يخلفه

لا بُدَّ لله من إنجاز ما وعدا

ومن ذلك ما قاله الفقيه القاضي أبو الحسن البلوطي يوصي جمهور العامة من المتلقين^(١):

وتعامى عمداً وأنت اللبيب	كم تصابى وقد علك المشيب
أن سيأتي الحمام منك قريب	كيف تلهو وقد أتاك نذيرٌ
بعد ذلك الرحيل يومٍ عصيب	يا سفيهاً قد حان منه رحيلٌ
لا يداويك إن أتتك طبيب	إن للموت سكرةً فارتقبها
ثم تأتيك دعوةً فنجيب	كم تواني حتى تصير رهيناً
فاعمّن جاهداً لها يا أديب	بأمور المعاد أنت علم
إن من يذكر فسوف يُيب	وتذكر يوماً تُحاسب فيه
للمنايا عليك فيها رقيب	ليس من ساعةٍ من الدهر إلا

ولا يستغرب أن يوصي القضاة الذين يتكلمون بالحق ويتبنون الصدق وهم أصحاب العلم والخبرة العامة رغبة منهم في إصلاح شؤونهم.

التحذير من الموت:

يشكل الموت ركيزة أساسية تدور كثير من الوصايا والمواعظ في فلكها، فهو النهاية المحتومة، والأجل المقدر الذي سيحاسب الإنسان بعده على ما قدمت يداه؛ لذا فإن (الموصي) يلجأ إلى التذكير بالموت دائماً ليحفز المتلقي على العمل الصالح وتقوى الله، وفي ذلك يقول لسان الدين بن الخطيب^(٢):

خُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِلْمَمَاتِ الْآتِي وَبَادِرْ مَا دَامَ الزَّمَانُ مَوَاتِي

(١) هو القاضي منذر بن سعيد بن عبدالله، أبو الحكم المعروف بالبلوطي، كان عالماً فقيهاً وأديباً خطيباً له

تأليف كثيرة منها الناسخ والمنسوخ، ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص ٢٣٩.

(٢) ديوان لسان الدين، ص ١٨٧.

ومن ذلك قول ابن خاتمة الأنصاري^(١):

ملاك الأمر تقوى الله فاجعل
تقاه عُدة لصلاح أمرك
وبادر نحو طاعته بعزم
فما تدري متى يمضى بعمرك

وفي ذكر الموت ونفاذه على البشر يقول عبد الكريم القيسي^(٢):

هو القضاء إذا يمضي مُقدّره
لم يستطع رده ذو الحول والحيل
والموت حكم على الأحياء كلهم
قضى به خالق الإنسان من عجل
فمن يُقدّر عليه الموت في صغر
لحدّ عمر كبير السن لم يصل
ومن يكن عمره المكتوب ذا قصر
لم يلفه الدهر ممتداً ولم يطّل
فسلم الأمر لله العظيم كما
أمّرت وارض بما أمضاه واحتمل

فالموت ماض حكمه وفي هذا يقول ابن شكيل^(٣):

فالموت أمر عمّ فينا حكمه
خضعت لعزّته الرقاب ودّلت

فعلى المرء أن يتنبه من نومه وغفلته، فالموت ماض في الخليقة يفني الملوك والعامّة

ولا ينجو من أمره أحد، وفي هذا يقول عبد الكريم القيسي^(٤):

أفق لمشيب برقه يُكثر الومضا
وبت بفؤاد حرّه دونه الرمضا
وأيقظ جفوناً طالما اعتادت الكرى
فأجفان أهل الصدق لا تعرف الغمضا
وكيف يطيب النوم للجفن لحظة
وفي الخلق قاضي الموت أحكامه أمضى
فأفناهم كلاً ملوكاً وسوقة
وما حاش منهم إذ نحا نحوهم بعضا
وكم قصدوا منه الفرار فما نجوا
بقصدهم إذ ركضه يعجز الركضا

(١) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص ١٢٧.

(٢) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٢١.

(٣) ديوان ابن شكيل، ص ٤٣.

(٤) ديوانه، ص ٣٠٦.

وأحكامه في الخلق بالعدل قد مضت فما منهم من يستطيع لها نقضا

فالشاعر الأندلسي يعي أن الحياة الدنيا متاع زائل، لذا فهو يتزوّد منها لأخرفته، وفي هذا المعنى الإسلامي المتمثل في قوله تعالى: "وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور"^(١) يستمد الشاعر الخشني نصيحته قائلاً^(٢):

أخي إنما الدنيا محلّة فرقة ودار غرور آذنت بفراق
تزوّد أخي من قبل أن تسكن الثرى ويلتف ساق للنشور بساق

وفي هذا المعنى يقول الأمير عبدالله بن محمد^(٣):

أرى الدنيا تصير إلى فناء وما فيها لشيء من بقاء
فبادر بالإجابة غير وان على شيء يصير إلى فناء

فالعمر قصير يمر سريعاً قال ابن شهيد^(٤):

فإذا بكيت فبك عمرك ، إنه زجل الجناح يمر مر الكوكب

لذا فالشاعر الأندلسي يوصي بضرورة التزام العمل الصالح، و ليختم الإنسان عمره برضوان الله، لأن الموت قد يفجؤه ويغتته في أية لحظة، وفي هذا قال يحيى بن الحكم الغزال^(٥):

فطوبى لعبدٍ أخرج الله روحه إليه من الدنيا على عمل البرّ

وما الدنيا إلا سبيل إلى الآخرة على الإنسان أن يتزوّد منها بالخير والعمل الصالح ما استطاع، وفي هذا يقول ابن الأبار^(٦):

(١) سورة آل عمران، آية ١٨٥.

(٢) جذوة المقتبس، ج ١، ص ١١٨.

(٣) البيان المغرب، ج ٢، ص ١٥٥.

(٤) ديوانه، ص ٩١.

(٥) يحيى بن حكم المعروف بالغزال، كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، جليل في نفسه وعلمه ومنزلته، كان جميل الشكل ذكياً أليماً...

انظر: محمد رضوان الداية، ديوان يحيى بن الحكم الغزال، دار قتيبة، ط ١، ١٩٨٢، ص ٩١.

(٦) ديوانه، ص ٢٦٦.

دُنْيَاكَ لِلْآخِرَى سَبِيلَ سَابِلٍ فاعْمَلْ لَهَا، إِنَّ الْمُوقِقَ عَامِلٌ
 واحرص على نيل السعادة جاهداً بالبرِّ والتقوى فنعم النائل
 وأعدّ زاداً للرحيل فإتما أيام عمرك لو عقلت مراحل

ويؤكد ذات المعنى فيقول في موضع آخر^(١):

تَبَلَّغْ بِقَوْتِ الْيَوْمِ فَالْعَمْرُ خَلْسَةٌ وَقَدِّمْ جَمِيلاً فَالْحَيَاةُ بِلَاغٌ

وفي التحذير من مفاجأة الموت، وانتهاء الأجل، وضرورة العمل استعداداً لملاقاته قال القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البلسي^(٢):

هو الموت فاحذر أن يجيئك بغتة

وأنت على سوء من الفعل عاكف

وإياك أن تمضي من الدهر ساعة

ولا لحظة إلا وقلبك واجف

وبادر بأعمال تسرك أن تُرى

إذا نُشرت يوم الحساب الصحائف

ولا تيأسن من رحمة الله إته

لرب العباد بالعباد لطائف

وقد أوصى الشعراء بنبذ الحسد، وهو صفة مذمومة نهى عنها الإسلام، وفي هذا يقول الصفاقسي^(٣):

تأس إذا أبصرت صاحب ثروة وإن كنت ذا قلّ تبت طوي الحشا

ولا تك حسداً لصاحب نعمة فذلك فضل الله يؤتيه من يشا

وفيه إشارة إلى قوله تعالى: "ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض"^(٤).

(١) ديوان ابن الأبار، ص ٣٨٦.

(٢) نفع الطيب، ج ٤، ص ٣١٦.

(٣) ديوانه، ص ٣١٦.

(٤) سورة النساء، آية ٣٢.

"لا تمدن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه"^(١).

وفي حث العلماء على الترقع عن مجارة الجهّال، وحضّهم على الكسب الحلال، والابتعاد عن الحرام، وألا يبيعوا الدين بالمال، وأن يرضوا بما يكفي دون الحرص على كنز المال؛ لأن المرء محاسب عن ماله، يقول أبو إسحاق الإلبيري الغرناطي^(٢):

لا شيء أخسر صفقة من عالم	لعبت به الدنيا مع الجهّال
فغدا يفرّق دينه أيدي سباً	ويديله حرصاً لجمع المال
لا خير في كسب الحرام وقلماً	يُرجى الخلاص لكاسبٍ لحلال
فخذ الكفاف ولا تكن ذا فضلة	فالفصل تُسأل عنه أيّ سؤال

(١) سورة طه، آية ١٣١.

(٢) نفح الطيب، ج٤، ص٣١٨.

المبحث الثاني الوصايا الاجتماعية

وهي باب تحدّث فيه شعراء الأندلس عن أدب الحياة العامة والخاصة، وبينوا فيه سبل التعامل مع الآخرين، فحدّدوا للمتلقين أسساً عاماً في الكلام والمحادثة، ثم إنهم وضعوا قواعد عامّة لكثير من الوظائف التي تختلط بالعامة، وتتولى شؤونهم، وبينوا كثيراً من شؤون الحياة، فنصحوا الناس باغتنام الشباب، والضرب في الأرض، والاقتصاد، وحثّوهم على الصمت، والاعتماد على النفس، وعلى العمل والحزم والعزم، وعلى السفر والاعتراب، وبيّنوا كيفية التعامل مع الأصدقاء والأعداء، ووضعوا أسساً عامة في التعامل مع النساء، وفي مخالطة الناس ومعاشرتهم، ودلّوا الناس على العلوم التي ينبغي أن يقبلوا على تعلمها.

ففي الحضّ على ضرورة تحرّي المرء لما يقول والتنبّه لما ينطق به لسانه، لأنه يعبر عن ذاته يقول ابن درّاج القسطلي^(١):

أجد الكلام إذا نطقت فإنما عقل الفتى في لفظه المسموع
كالمرء يختبر الإناء بصوته فيرى الصحيح به من المصدوع

وقد أوصى بعضهم الأدباء والكتّاب فيما يمكن أن نطلق عليه الوصايا الأدبية واللغوية. فالحكيم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز يوصي الشعراء بضرورة المزوجة بين اللفظ الجميل والمعنى الشريف، لأن اللفظ جسم روحه المعنى، يقول في ذلك^(٢):

جرّد معاني الشعر إن رُمّته كيما توقي اللوم والطعنا
ولا تراعي اللفظ من دونها فاللفظ جسم، روحه المعنى

وفي هذا المعنى يقول ابن حمديس^(٣):

حرّر لمعناك لفظاً كي تزان به وقل من الشعر سحراً أو فلا تقل

(١) ابن درّاج، أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي، كاتب المنصور بن أبي عامر شاعر مجيد وعالم متقدم. انظر: محمود علي مكي، ديوان ابن درّاج القسطلي، منشورات المكتب الإسلامي، دمشق، ط١، ١٩٦١، ص ٧١٥.

(٢) ديوان الحكيم، ص ١٤٨.

(٣) ديوان ابن حمديس، ص ٤٠١.

فالكحل لا يفتن الأبصار منظره حتى يُصير حشوَ الأعين الثُّجُل

وهم في معرض توصيتهم لأصحاب الوظائف الخاصة كالأدباء أو صوا غيرهم كالقضاة مثلاً، ففي ضرورة أن يحكم القاضي بما أمر الله، ويعيد النظر في أحكامه ويغتنم تقلده للمنصب إن أخطأ قبل عزله يوصي عبد الكريم القيسي قائلاً^(١):

أعد نظراً فيما أتيت به فقد بدا أن هذا الفعل منك تهكم
وبادر زمان الحكم من قبل فوته فما كل وقت أنت تقضي وتحكم

وهو في موضع آخر ينصح القضاة في كيفية التعامل مع الشهود قائلاً^(٢):

بذل النصيحة واجب لك سيدي فأصخ ففك نصيحتي لم أخزن
إنّ العدول من الشهود يسوؤهم جعل المبرز منهم كالمخزن^(٣)

وقد تأتي الوصية في شأن عام من شؤون الحياة أو لنقل في كفيتهها، فهذا ابن الخطيب يوصي باغتنام اللذات قبل فوات الأوان يقول^(٤):

فبادر إلى اللذات من قبل فوتها فمهما تولت ساعة، مالها رد

وفي هذا يدعو الغزال إلى اغتنام الشبيبة، وإعطائها حقها قائلاً^(٥):

أعط الشبيبة لا أبالك حقها منها فإن نعيمها متحول

وقد حذر الشاعر الأندلسي من الركون إلى الزمن والوثوق بالأمل، فالمرء لا يعرف ماذا يكون له فيما بعد، وهذا ما عبّر عنه ابن شكيل بقوله^(٦):

حذار حذار من ركون إلى الزمن فمن ذا الذي يبقي عليه ومن ومن

(١) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٢١٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٤٥.

(٣) المبرز: الظاهر والرفيع. المخزن: الخفي الوضيع.

(٤) ديوان لسان الدين ابن الخطيب، ص ٢٨٠.

(٥) ديوان يحيى بن الحكم الغزال، ص ٩٣.

(٦) ديوان ابن شكيل، ص ٨١.

وفي هذا يقول علي الصفاقسي^(١):

لا تثق بالمنى فما كل باغ نال ما يرتجي، ووفى مرامه
ربما كانت الأماني مطايا للمنايا وموردًا للندامة

ومن هذا الركون يُحدّر يحيى بن الحكم الغزال مبيّنًا أن للزمن صولات، فهو لا يدوم على حال قائلًا^(٢):

وإن أعطيت سلطاناً فحاذر صولة الزمن

وهذا ابن الأبار يُحدّر من الأمل الكاذب الذي يغرُّ صاحبه قائلًا^(٣):

إياك والأمل الكذوب فربّما أودى بمطرور^(٤) الغرور الأمل

وقد حثّ الشعراء على الكسب والضرب في الأرض لطلب الرزق وعدم اليأس، وفي هذا يقول الحكيم أبو الصلت أمية الداني^(٥):

لا تقعدن بكسر البيت مكتئباً يفنى زمانك بين اليأس والأمل

واحتل نفسك في شيءٍ تعيش به فإن أكثر عيش الناس بالحيل

ولا تقل إن رزقي سوف يدركني وإن قعدت فليس الرزق كالأجل

وقد تحدث في هذا القضاة فالقاضي أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد بن أبي حبل المعافري يقول^(٦):

(١) ديوان علي الصفاقسي، ص ١١١.

(٢) ديوان الغزال، ص ١١٣.

(٣) ديوان ابن الأبار، ص ٢٦٦.

(٤) المطرور: من الطر وهو تحديد السكين.

(٥) ديوان الحكيم، جمع وتحقيق محمد المرزوقي، ص ١٣٣.

(٦) لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص ١٠٧.

تكفل بالرزق الذي تستحثه

إهك فلتجمل إذا أنت طالبه

وكن ساعياً فيه على وفق أمره

شكوراً له فالشكر لا شك جالبه

وإيّاك والسعي المذل فإنه

ينالك منه ما أنالك واهبه

دع الحرص فيه واسأل الله بسطة

فما الحرص مُدنيه ولا البسط سالبه

وفي ضرورة الاقتصاد والتدبير والاعتدال يقول ابن جبير^(١):

فكُن ذا اقتصاد في أمورِك كلها فأحسن أحوال الفتى حُسن قصده

وقد رفع الشاعر الأندلسي من شأن العقل وأوصى بالاحتكام إليه؛ إذ به يرتقي الإنسان،
وبهذا يوصي علي الغراب الصفاقي قائلاً^(٢):

بالعقل تبلغ نفس المرء ما أملا ويرتقي في مراقي العزّ كل علا

وفي التّفكّر والتأمل يقول ابن حمديس^(٣):

قف بالتفكّر يا هذا على زمن جمّ الخطوب ومثّل صرفه وقس

وفي الحثّ على الصمت وفضله يقول ابن خاتمة^(٤):

لسانك اسجُنْ ولتطّل حبسه إن شئت إكراماً وتصوينا

لو لم يكن للسجن أهلاً لما غدا بقعر القم مسجوناً

(١) ديوان ابن جبير، ص ٤٠.

(٢) ديوان علي الغراب الصفاقي، ص ١٠٣، ص ٤٠.

(٣) ديوان ابن حمديس، ص ٢٨٥.

(٤) ابن خاتمة، الديوان، ص ١٣٣.

وفي كتمان السر وحجبه عن اللسان، يقول ابن حمديس^(١):

إِنَّ السَّرَائِرَ عَوْرَاتٌ وَإِنَّ لَهَا مُهَذَّبًا أَخَذًا بِالْحَزْمِ يَسْتَرُهَا

فاطو السرائر في الجنبين تحجبها عن اللسان الذي للسمع ينشرها

وفي هذا المعنى يقول ابن حمديس^(٢):

لسان الفتى عبدٌ له في سكوته ومولىً عليه جائزٌ إن تكلمها

فلا تطلقته واجعل الصمت قيده وصير إذا قيّدته سجنه الفما

وفي الاعتماد على النفس وعدم الاتكال على الآخرين نظم ابن جبير قائلاً^(٣):

بنفسك صادم كل أمر تريده فليس مضاء السيف إلا بحده

وعزّمك جرّد عند كل مهمة فما نافع مكث الحسام بغمده

وفي الاعتماد على النفس وترك الاعتماد على الآخرين يقول ابن حمديس^(٤):

إذا خلل في الحال منك وجدته فأياك والتعويل منهم على خِلّ

وإن أراد الإنسان أن يقصد شخصاً في حاجة، فليقصد من يعرف قدره، وفيه يقول الصفاقسي^(٥):

وإذا قصدت لحاجة فاقصد لمعترف بقدرك

(١) ديوان ابن حمديس، ص ٢٦٣.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص ٤٧٧.

(٣) ديوان ابن جبير، ص ٤٠.

(٤) ديوان ابن حمديس، ص ٣٦٥.

(٥) ديوان الصفاقسي، ص ٣٠٩.

وينصح ابن حمديس بالعمل والإقدام والحزم والعزم، فالزمن لا يسمع شكوى شاكٍ،
ويمضي في أحداثه لا ينتظر أحداً أخذاً معه الشباب والصحة جالباً الهرم والمرض، لذا فإن على
الإنسان أن يعمل، قائلاً^(١):

ألا كم تُسْمَعُ الزمن العتابا	تُخاطِبُهُ ولا يدري الخطابا
أتطمع أن يرد عليك إلفاً	ويبقى ما حييت لك الشبابا
ألم ترَ صرفه يبلي جديداً	ويترك أهل ذي الدنيا بيايا
وإن كان الثواء عليك داءً	فبرؤك في نوى تمطي الركابا
وهمُّك هم مرتقبِ أموراً	تسيح على غرائبها اغترابا
وإن أذا الحزامة من كراه	كحسو مُرَوِّع الطير الثغابا
فتى يستطعم البيض المواضي	ويستسقي اللهاذم لا السحابا
فصرف في العلى الأفعال حزماً	وعزماً إن نحوت بها الصوابا
وكن في جانب التحريض ناراً	تزيد بنفحة الريح التهابا

وفي الحضّ على العزم والعمل يقول ابن حمديس في موضع آخر^(٢):

عول على العزم إن العزم منقطع عنه الخمول، وموصول به الأمل

(١) ديوان ابن حمديس، ص ١٤-١٥.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص ٣٥١.

وفي هذا يقول في موضع آخر^(١):

أمطتك همّتك العزيمة فاركب لا تلقين عصاك دون المطلب

وقد حتّ الشعراء على ضرورة تنبيه أفهام الشباب، وتعهدهم بالتعليم من الصغر، وفي هذا يقول ابن خفاجة^(٢):

تبّه وليدك من صباه بزجره فلربما ألقى هناك ذكاؤه

وانهّره حتى تستهل دموعه في وجنتيه وتلتظي أحشاؤه

فالسيف لا تذكو بكفك ناره حتى يسيل بصفحتيه ماؤه

وقد تأتي في ثنايا الوصايا الاجتماعية، وصايا صحية في الحمية والتداوي، وهي وإن جاءت في سياق دعابة أو ما شابه فإنها تقدم نصيحة، ومنه وصية لسان الدين ابن الخطيب لابن زمرك قائلاً^(٣):

يا طالباً من جاره إسكرفجاً هذا يُخبر أن جوعك فاجأ

ويدل أنك قد نبذت تدوايأ ويدل أنك قد تركت علاجاً

خف من غذاء غير معتدل القوى واحذر طعاماً يُفسد الأمشاجا

والشاعر الأندلسي إذ يتصدى فيوصي الناس، فهو يصدر في ذلك عن تجربة شخصية، فهذا ابن جببر الرّحالة يوصي بعدم الاغتراب عن الأوطان قائلاً: ^(٤):

لا تغترب عن وطن واذكر تصاريق النوى

أما ترى الغصن إذا ما فارق الأصل نوى

(١) ديوان ابن حمديس، ص ٥٣٧.

(٢) أبو اسحق إبراهيم بن خفاجة شاعر كبير وكاتب مجيد، تكسب من الشعر. انظر السيد مصطفى غازي، ديوان ابن خفاجة، منشأة المعارف، الاسكندرية، د.ط، ص ١٠١.

(٣) ديوان لسان الدين بن الخطيب، ص ٢١٧.

(٤) ديوان ابن جببر، ص ٣٠.

وفي هذا المعنى أوصى ابن خاتمة الأنصاري قائلًا^(١):

الزم مكانك بالتغرب ذلة لو لم تتل غير القرار نجاحاً

وقال فيه أيضاً^(٢):

مشواك عِزُّكَ فاحذر أن تفارقه فعزّة واغترابٌ قلما اتفقا

وفي حين أوصى ابن جبير وابن خاتمة بعدم السفر عاد ابن خاتمة الأنصاري يناقض نفسه ويوصي بالسفر لما له من فوائد كثيرة في غير موضع قال^(٣):

جُل في بلاد الله نحو العلا ولتجتنب أهلاً وأوطاننا

وفي موضع آخر قال^(٤):

سافر تتل بالأسفار كل علا وتشف النفس من مآربها

ومن الوصايا في معاملة الأصدقاء قول أبي بكر يحيى بن مجبر الموحد^(٥)، يحث على الترقق في معاملتهم والحفاظ على الود معهم:

إذا ما الصديق نبأ ودّه فلا يكُ ودُّك بالمنقلب

وعاتبه لكن رويداً كما تقصُّ على الطفل عند اللعب

وليس هذا المعنى بجديد، فقد سبقه إليه بشار بن برد في قوله:

جفا ودّه فازور أو ملّ صاحبه وأزرى به ألا يزال يعاتبه

(١) ديوان ابن خاتمة، ص ١٣٧.

(٢) ديوان ابن خاتمة، ص ١٣٧.

(٣) ديوان ابن خاتمة، ص ١٣٧.

(٤) المرجع السابق، ص ١٣٧.

(٥) ديوان أبو بكر يحيى بن مجبر الموحد (بحثري الأندلس)، تحقق: يوسف عيد، دار الفكر العربي - بيروت،

وقد نصح الشاعر الأندلسي بالتمسك بالصديق الوفي إن وجد، وفي هذا يقول الحكيم^(١):

إذا ألفت حراً ذا وفاء وكيف به فدونك فاعتمه

ويوصي ابن حمديس بإكرام الأصدقاء والاكتفاء بمودتهم دون التحري عنهم؛ إذ قد يتحرى المرء عن صديقه عند خصم له فيسمع ذمه وشمته، قائلاً^(٢):

أكرم صديقك عن سؤا لك عنه واحفظ منه ذمه

فلربما استخبرت عن ه عذوه فسمعت ذمه

وفي معاملة الأصدقاء يوصي عبد الكريم القيسي في التحفظ منهم، والتزام الصمت عندهم؛ لأنهم يتقلبون ويتبدلون، وفي هذا يقول^(٣):

إن شئت من دنياك حسن تخلص لا تظمن إلى صديق مخلص

وإذا تخالطه نهارك عده في الناس كالمجنوم أو كالأبرص

والزم سكوتك عنده وإذا اقتضى منك الكلام بما اقتضاه تربص

وانظر محاسنه التي يزهو بها ويتيه إعجاباً بعين الأحوص

إن الصديق ليستحيل تغييراً فيجيء من عدوانه بملخص

وفي هذا يقول في موضع آخر^(٤):

صاف الصديق وكن منه على حذر وعده مثل ما قد عفت من قذر

(١) ديوان الحكيم، ص ١٤٥.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص ٤٨١.

(٣) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٤٣.

(٤) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٥٩.

أقل كلامك لا تكثر بحضرته
 إن الصديق إذا أبدى تغيره
 وفي التحذير من الأصدقاء يقول ابن وكيع^(١):
 احذر عدوك مرة
 فربما انعكس الصديق
 وصم سمعك عما قال من هذر
 لم يُبق مما به يأتي ولم يذر
 واحذر صديقك ألف مرة
 فكان أبصر بالمُضرة

وفي التحفظ من الناس كتب عبادة إلى عروة بن محمد بن عبادة وقد كان فقيهاً فاضلاً
 بجامع قرطبة يوصيه قائلاً^(٢):

لا تطمنن إلى أحد
 واحبس متاعك ما استطعت
 وإذا فعلت فلا تعد
 واقلل من الإخوان
 لا تلق إلا حاسداً
 فأرفع أمورك كلها
 فإناس قد فسدوا فما
 فإن ذاك من الرشد
 إن الأرض نارٌ تنقد
 أو شامتا أو منتقد
 للواحد الفرد الصمد
 فيهم على من تعمد

وفي مخالطة الناس ومعاملتهم يوصي الفقيه أبو محمد غانم ابن الوليد الأندلسي
 المخزومي المالقي بعدم التسامح مع البغضاء يقول^(٣):

ولا تسامح بغيضاً في معاشره
 فقلما تسع الدنيا بغضين

(١) أبو يحيى الغرناطي، جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، تحقق: صلاح جرار، دار البشير، عمان،

١٩٨٩، ج ٣، ص ٧١.

(٢) ابن خميس، أدباء مالقة، ص ٣٠٣.

(٣) نفخ الطيب، ج ٤، ص ٢٨.

وفي العشق يوصي الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد الأندلسي المخزومي المالقي^(١):

صَيَّرَ فؤادك للمحبوب منزلة سَمُّ الخياط مجالاً للمحبيننا

ومن الوصايا الاجتماعية، وصايا في المعاملات بين الناس، يصدر فيها الموصي عن تجربة عميقة مكنته من معرفة الناس، وسبر أغوارهم، وكشف أحوالهم، وتبيين حقيقتهم من زيفهم.

فهذا الأعمى التطيلي^(٢) استدل ببصيرته على أمور عجز المبصرون عن استكشاف كنهها ومعرفة حكمها ، فلکم يخدع البصر صاحبه ويغريه ومن ثم يكتشف خذلان بصره له ، وقلما تخدع البصيرة صاحبها، فيقول^(٣):

تناصُرُ الشيب في فؤديه خذلان إن الزيادة في النقصان نقصان

فلا تُعَرِّ بعين ينظرون بها فإتما هي أحداق وأجفان

كم مقلّة ذهب في الغي مذهبها بنظرة هي شان أو لها شان

رهن بأضغاث أحلام إذا هجعت وربما حلمت والمرء يقظان

فانظر بعقلك إن العين كاذبة واسمع بحسك إن السمع خوآن

ولا تقل كل ذي عين له نظر إن الرعاة ترى ما لا ترى الضان

(١) نفخ الطيب، ج ٤، ص ٢٨.

(٢) الأعمى التطيلي: أبو جعفر وأبو العباس أحمد بن عبدالله بن هريرة القيسي، يعرض شعره لحياته الحزينة فقد أصيب بالعمى مذ كان صغيراً.

انظر: عبد الحميد الهرامة، الأعمى التطيلي ، حياته وأدبه، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ١٩٨٣، ص ١٥-٨٦.

(٣) ديوان أبو العباس الأعمى التطيلي، ص ١٣٨.

والشاعر في هذا يوازن بين حالين ليقنع المتلقي بخبرته الخاصة، فهو لا يكتفي بتقديم النصح بل يسوق الحجج والبراهين المقنعة لتلقى نصيحته الاستساغة والقبول ، فلا تبصر كل عين الحقيقة ، وليس كل ذي عينين مبصرا .

وفي مخالطة الناس ينصح لسان الدين بن الخطيب باليقظة والتنبه، فالناس يرقبون المرء عن كثب، فعليه أن يعاشرهم، وليأكل طعامهم، ويلبس لباسهم، وليحتط منهم، وليحذرهم وليعد شركه ليتصيدهم قبل أن يوقعوا به ، وليقتصد في أموره كلها، وليتنبه ممن يدنو متملقا بغية الفتك به على حين غفلة، يقول^(١):

ترنو إليك فعاملهم بإجمال	لا تحسب الناس في نوم، فأعينهم
وانصب لصيدهم أشراك محتال	وكل طعامهم، والبس لباسهم
وانظر لنفسك في جيش وفي مال	وخذ من الأمر بعضاً، واقتصد وأفق
يدنو إليك، وينوي فتك مغتال	وكن حذوراً ولا تغفل مكيدة من

وفي التعامل مع الآخرين يوصي الصفاقسي بالألا يطلب الإنسان الإنصاف ممن لا يقيم الحق على نفسه، وألا يتوقع الإنسان ودًا ممن يرى أن الناس محتاجة إلى درهمه وديناره يقول^(٢):

لا يوجب الحق على نفسه	لا تطلب الإنصاف من امرى
أنتك تحتاج إلى فلسيه	ولا ترجى الود ممن يرى

ومن الوصايا في التعامل مع النساء يرى أبو عبدالله ابن الحداد الأندلسي أن يخون الرجل عهد المرأة التي تخونه ، وفي هذا يقول^(٣):

خُنْ عهدا مثل ما خانتك منتصفاً

وامنح هواها بنسيان وسلوان

(١) ديوان ابن الخطيب، ج٢، ص٥١٤-٥١٥.

(٢) ديوان علي الصفاقسي، ص٣١٥.

(٣) هو أبو عبدالله محمد بن الحداد، محمد بن أحمد بن عثمان القيسي، سكن المرية واختص ببني صمادح، ديوان أبو عبدالله بن الحداد، ص٩٢.

ويوصي الغزال بعدم الكلف بوصل النساء لأن من يفعل ذلك لا عقل له يقول: (١)
يا راجياً ودَّ الغواني ضلّة ففؤاده كلفاً بهنّ مؤكّل
لا تكلفنّ بوصلهنّ فإنما الـ كلف المحبُّ لهنّ من لا يعقلُ

وابن حمديس يوصي الشيخ بالابتعاد عن صغيرات السنّ قائلًا (٢):

فلا تُخضب مشبيك للغواني فتغنى عنه ناعمة وتشقى
فشاهد زور خضبك ليس يعطي بباطله من العادات حقًا
فلاتهوا الفتاة وأنت شيخ فأبعد وصلها من صيد عنقا

فهو يوصي الكهول بعدم إخفاء ملامح كبر سنهم، وإخفاء أمارات الشيخوخة، وأبرزها المشيب لأن الأيام كفيلة بفضحه وبيان زوره، وليتخذ من النساء من تناسب عمره وسنه وليبتعد عن الصبايا.

وفي الترقع عن جواب السفية يقول ابن جبير (٣):

تنزّه عن العوراء مهما سمعتها صيانة نفس فهو بالحرّ أشبه
إذا أنت جاوبت السفية مشاتماً فمن يتلقّى الشتم بالشتم أسفه

والشاعر الأندلسي لا يقف عند التحذير من الداء بل يمضي ويصف الداء، إذ ينصح بالابتعاد عن السفهاء، ويدفع إلى الاعتماد على الحكماء وآرائهم وفي هذا يقول ابن حمديس (٤):

سارع إلى الحقّ وعولّ على قول حكيم بارع الحكمة

(١) ديوان يحيى بن الحكم الغزال، ص ٩٢-٩٣.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص ٣٣٩.

(٣) ديوان ابن جبير، ص ١٠٢.

(٤) ديوان ابن حمديس.

ومن وصاياهم في التعامل مع الناس، يدعو الحكيم إلى اعتزال، الناس وأن يعيش المرء فرداً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإن لم يستطع فليكن ذلك وفقاً لمعايير معينة يسوقها في قوله^(١):

ولم يبقَ في الباقيـن حافظَ خُلَّة	فِعش واحداً ما عِشْتَ تنجُ وتَسلم
فلستَ ترى إلا صديقاً لموسر	حسوداً لمجدود عَدُوّاً لمعدم
وكنـت إذا استبدلت خِلاً بغيره	كمستبدل من ذئب قفر بأرقم
فجانبهم ما اسطعت واقبل نصيحتي	ومن لم يطع يوماً أخا النصـح، يندم
فإن لم يكن بد من الناس فالقهم	ببشر وصن عنهم حديثك واكتم
فمن يلقيهم بالبشر يحمـد بفعله	من يلقيهم بالكبر يعتب ويذمم

وفي التحذير من الناس ومخالطتهم، نظم الفقيه أبو بكر المحاربي قائلاً^(٢):

كُنْ بذيـبٍ صائدٍ مستأنساً	وإذا أبصرتَ إنساناً ففر
إنما الإنسان بحرٌ، ماله	ساحلٌ فاحذره إياك الغرر
واجعل الناسَ كـشخص واحد	ثمَّ كُنْ من ذلك الشخص حذر

ولا يخفى ما في هذه الأبيات من مغالاة وتعميم غير أنها تُعبّر عما يراه قائلاًها.

(١) ديوان الحكيم، ص ١٤٣.

(٢) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج ٣، ص ٦٣٨.

وتأتي الوصايا في المعاملات مع الأعداء أيضاً وفي هذا يوصي ابن خاتمة بضرورة مداراتهم قائلاً^(١):

عَدُوّكَ دَارَهُ مَا اسْتَطَعْتَ حَتَّى يَعودُ لَدَيْكَ كَالخِيلِ الشَّفِيقِ

فَمَا فِي الأَرْضِ أَرَدَى مِنْ عَدُوٍّ وَلَا فِي الأَرْضِ أَجْدَى مِنْ صَدِيقِ

وقد وصّى الشعراء الطلاب ودلوهم على ما ينبغي لهم من العلوم حتى يرتقوا في سماء المجد، وفي هذا قال علي الغراب الصفاقسي^(٢):

أَلَا كُلُّ عِلْمٍ إِنْ أَرَدْتَ عَزِيْزَهُ يَعودُ ذَلِيلاً طَوولَ فَهْمِكَ لَا يَكْدي

عَلَيْكَ بِأسرارِ البِلاغةِ بَعْدَ أَنْ تَنالَ أَصولَ النَحْوِ بِالعِزمِ وَالجَدِّ

فَتَرقى سَماءَ المَجدِ عِزاً وَرِفعةً وَتَبلُغَ فِي عَليكَ مَنزِلَةَ السَعدِ

ولم يبخل الشعراء الأندلسيون على قرائهم بخبرتهم ومعرفتهم بشؤون الحياة، فنراهم ينصحونهم ويعظونهم في شؤون الحياة كلها، فهذا ابن خاتمة ينصح البخلاء الذين ينفقون أعمارهم في جمع المال بالإقلاع عن هذا محذراً إياهم من عواقب ذلك، قائلاً^(٣):

يا مَنْ غَدًا يُنْفِقُ العَمرَ الثَمينَ بَلا جَدوى سَوى جَمْعِ مالِ خِيفةِ العَدمِ

ارْجِعْ لِنَفْسِكَ وانظُرْ فِي تَخْلِصِها فَقدَ قَذَفَتْ بِها فِي لُجَّةِ العَدمِ

(١) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص ١٢٩.

(٢) ديوان علي الغراب الصفاقسي، ص ٣٠٦.

(٣) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص ١٣٠.

وهذا ابن الجياب الغرناطي يحضّ الناس على عدم البخل؛ لأن الله هو المنفق يجزي
بالإنفاق الجزاء الحسن يقول^(١):

يا أيُّها المُمسِكُ البَخيلُ إلهك المُنْفِقُ الكفيلُ
أنْفِقْ وثِقْ بالإله تَرَبِّحْ فإنَّ إحسانه جزيلُ
وقدّم الأقرّبين وانكّر ما روى ابدأ بمنّ تعولُ

والشعراء إذ أوصوا بدم البخل وتركه أوصوا بالبذل والكرم والعطاء، وفي هذا قولهم^(٢):
أبذل المال لا تبال ببذله قبل ترحاله ونأي محّله
إنما المال غيرك ابن سبيل وقري ابن السبيل تجهيز رحله

وهم يحضّون على العطاء مذكّرين بأن الله تعالى يُخلف للمعطي ويبارك له، وفي هذا
يقول الشاعر^(٣):

إذا وجَدتَ فُجْدًا للناس قاطبةً الحال تفنى ويبقى الذكر أحوالاً

وقد أوصى بعض الأدباء أصدقاءهم وصايا خاصة؛ فقد أوصى الوزير أبو عامر
الأشجعي^(٤) (ابن شهيد) في أخريات أيامه في آخر ما قاله من شعر ابن حزم بقوله^(٥):

فَمَنْ مُبْلَغٌ عني ابن حزم وكان لي

يداً في مِلّاتي وعند مضايقي

(١) ابن الجياب الغرناطي، ص ٢٠٥.

(٢) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص ١٣١.

(٣) ديوان ابن خاتمة الأنصاري، ص ٣١.

(٤) هو أحمد بن عبد الملك بن شهيد الأشجعي، وزير كاتب شاعر استوزره المستظهر ثم المعتد بالله. من مؤلفاته رسالة التوايح والزوايح.

(٥) ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقق: محمد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣، ط ١، ص ٢٠١.

عليك سلام الله إني مفارقٌ

وحسبك زاداً من حبيب مفارق

فلا تنسى تأبيني إذا ما ذكرتني

إذا غيبوني كلَّ سهم غرانق

وهو يوصي بهذه الأبيات صديقه ابن حزم- وقد شعر بدنو أجله - بأن يشيِّعه ويؤبِّنه.

المبحث الثالث الوصايا السياسية

لا يستطيع أي شاعر أن يتصدى للحديث في أمور السياسة ثم لا يتأتى لكل القادرين على الحديث في شؤونها أن ينبروا ليعظوا ويوجهوا، فهي شأن من شؤون الخاصة دون شك، لذا فإننا لا نعثر على كثير من الوصايا السياسية، غير أن ما نعثر عليه في هذا المجال صادر عن صاحب خبرة يستحق البحث والدراسة فعندما ينصح لسان الدين بن الخطيب في هذا الشأن، فإن نصائحه جديرة بالأخذ لأنه لازم الولاة والسلاطين، وخير شؤونهم، فهو يقول في قصيدته (المنح الغريب في الفتح القريب) (١):

أهديك من أدب السياسة ما به تبأى الملوك على الملوك وتفضل

وأول ما يستهان به وصايا للملوك السلاطين الحزم فهو عقل الإمارة والإدارة، يقول (٢):

لا تُغفل الحزم الذي بعقاله إبل الإمارة والإدارة تُعقل

وينصح له بالصمت أخذاً للعبارة مما فات لما هو آت، يقول (٣):

واجعل صماتك عيرةً فيما مضى وعليه قس من بعدما يُستقبل

ويعظه بالألّا يُغفل صغائر الأمور لأهميتها؛ إذ ربما نجم عنها الأمر الخطير قائلاً (٤):

والأمر تحقيره وقد يئمي كما تنمي الجسوم على الغداء و تعبل

فاحذر صغير الأمر وتتحقل به وإذا عقلت فاتّه يستعجل

(١) ديوان لسان الدين، ج٢، ص٥٠٣.

(٢) السابق نفسه، ص٥٠٣.

(٣) السابق نفسه، ص٥٠٣.

(٤) السابق نفسه، ص٥٠٣.

فالتار أول ما تكون شرارة والغيث بعد رذاذه يسترسل

وينصحه بمشاورة أصحاب العقل دون غيرهم فيقول^(١):

شاور إذا الشورى دعتك، أولى النهى فخطاب غير أولى النهى لا يجمل

ويوصيه أن يحكم بين الناس وفقاً لأفعالهم وحسبما يستحقون بالعدل، فإنه متى يعرف به فلن يحاول أحدًا استمالته، وأن يعطي كل ذي حق حقه، ويقدر الناس حق قدرهم قائلًا^(٢):

وأجز المسيء إذا أساء بفعله والمحسن الحسنى جزاءً يعدل

وإذا عدت فلا الهوادة والهوى من بعده أبداً لديك تؤمل

ومن استبحت ذماره بعقوبة فغيره من بعدها يستبدل

وإذا عقدت فالغني لا للهوى فبكل قدر رتبة لا تهمل

ووعظه أن يصون لسانه عن القبيح، فاللسان أحدٌ من السيف لا يُدمل جرحه، يقول^(٣):

وصن اللسان عن القبيح قريباً يمضي اللسان بحيث ينبو المتصل

وإذا جرحت فواد حر لم تطق إدماله وبأي شيء يدمل

وأوصى السلطان أن يستمع إلى كل من يحاول أن يعظه ولو كان كاذباً فقد يصدق وهو كذوب، يقول^(٤):

وأقبل وصية من أتى لك ناصحاً واشكره وهو الكاذب المتحيل

(١) ديوان لسان بن الخطيب، ج ٢، ص ٥٠٤.

(٢) السابق نفسه، ص ٥٠٤.

(٣) السابق نفسه، ص ٥٠٤.

(٤) السابق نفسه، ص ٥٠٤.

وأن يثبت في السعاية، ويتحقق منها؛ لأن الأحكام لا تستعاد بعد نفاذها، وفي هذا المعنى يقول^(١):

وعلى التثبّت في السّعاية فاعتمد فمردّ أمرّ فات لا يُستسهلُ

وأن يحلم السلطان مع مَنْ يقترف ذنباً وهو جاهل فالجاهل يعذر بجهله^(٢):

وإذا جنى جان تبين جهله فاحلم عليه، فأين مَنْ لا يجهلُ

وأن يتحرّى ما يقوله الناس عنه، وأن يعرف لأهل السابقة فضلهم ولا ينسيه المنصب، وفيه يقول^(٣):

وارع السوابق، لا تُضعها إنها دين يلام لأجله مَنْ يَملُ

وإذا ترحل عن جوارك راحلٌ فانظر بعقلك عنك ماذا ينقل

ولتجعل السير التي رتبها عيناً تجيء بكل ما يُتقول

ويعظ السلطان أن يتجلد و ألا يتهاون في الشدائد؛ لأن ضعفه ووهنه يحط من قدره ، ولأن حسن تصرفه فيها يحفظ قدره، يقول^(٤):

لا تُبدِ هوناً في الشدائد إن عرت فبقدر ما تُبديه قدرك يَحْمَلُ

و أوصاه أن لا يدخل بيت مال المسلمين وخزينة الدولة درهما إلا بحقه ، لأن المال عصب الدولة ، ويستعان به على الشدائد ، وعلى صروف الدهر وتقلباته ، كما أوصاه أن يوازن بين المدّخر والمنفق ، وأن يكون كيساً لبقاً يدرك مواطن البذل والإنفاق فينفق ، ويعلم متى ينبغي له الإمساك فيمسك، قال^(٥):

(١) ديوان لسان الدين، ج ٢، ص ٥٠٤.

(٢) ديوان لسان بن الخطيب، ج ٢، ص ٥٠٤.

(٣) السابق نفسه، ص ٥٠٤.

(٤) السابق نفسه، ص ٥٠٤.

(٥) السابق نفسه، ص ٥٠٤.

والمالُ خُذَهُ بِحَقِّهِ واعلم بأنَّ
والمالَ للغرضِ البعيدِ يُوصَلُ
وازن به مُؤن السياسةِ وادّخر
فضلاً وواز بخرجه ما يدخُلُ
والمَنحِ والمَنعِ اعتبر قطاسه
فالبخل والتبذير مما يُرذَلُ

وأوصاه بتقوى الله وحسن الخلق، لأنه ينهى عن الرذائل، وأن يشغل نفسه عن ملذات الدنيا بما يشغل الحكيم به نفسه، يقول^(١):

وعليك بالتقوى وبالخلق الذي
ينهى النفوس عن القبيح ويعذِلُ
واشغل عن اللذات نفسك بالذي
نفسُ الحكيم به تَلدُّ وتُشغَلُ

وأن يأخذ رعيته بالعفو واللين، يقول^(٢):

بالعفو خُذْ مِنْهُمْ وَلَا تَكشِفْ لَهُمْ
سِتْرًا، فَلَسْتَ عَلَى كَبِيرٍ تَحْصُلُ

وأن يحمد الله ويشكره فالله يزيد الشاكرين^(٣):

واشكر صنيع الله فيك فإنه
يُنمي ثواب الشاكرين ويجزل

ولسان الدين بن الخطيب إذ يعظ السلطان وينصح له في سياسة الرعية وشؤون الحكم، لا ينسى أن يتأدّب في هذا الوعظ فهو يعي أنه لا يعظ من هو دونه، فيحترز لذلك مُعلياً من شأن المتلقي ومشيداً بحكمته وعلمه وخبرته، قائلاً^(٤):

هذا، وعقلك في الخلافة قدره
أسنى، ورأيك في السياسة أفضل

(١) ديوان لسان الدين، ج ٢، ص ٥٠٤.

(٢) ديوان لسان بن الخطيب، ج ٢، ص ٥٠٤.

(٣) السابق نفسه، ص ٥٠٤.

(٤) السابق نفسه، ص ٥٠٤.

ولكنه لا يقلل من شأن وصيته أبداً بل ينوّه بفضلها ويشيد بها قائلاً^(١):

خُذْهَا كَمَا شَاءَ الْخُلُوصُ كَأَنَّهَا عَقِدُ بِالْقَابِ الْبَدِيعِ مَفْضَلِ

أَهْدَى الْبَيَانَ بِهَا فَرَايِدَ حِكْمَةٍ يَبْأَى النَّدَى بِنَشْرِهَا وَالْمَحْفَلِ

وقد تحدّث الشعراء الأندلسيون عن كيفية التعامل مع الملوك والسلاطين وتباينت هذه النصائح بين موص بالإقبال عليهم وناصح بتجنبهم، فابن خاتمة يرى ضرورة الحذر من السلطين طالما لم تستقر أركان ملكهم بعد، فهم إذ ذاك كالبحر الهائج يخشى ركوبه، وفي هذا يقول ناصحاً^(٢):

خَفِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرِ أَنْ تُلَايِسَهُمْ مَا دَامَ أَمْرُهُمْ فِي الْمُلْكِ مُضْطَرِبًا

إِنَّ الْمُلُوكَ بَحَارٌ فِي خَلْقِهِمْ وَمَنْ سَمَا الْبَحْرَ، فِي أَهْوَالِهِ، عَطِبَا

وهو في موضع آخر ينصح من يريد العز أن يغش أبواب الملوك ويدانيهم، فالذل في قربهم عز، يقول^(٣):

إِنْ شِئْتَ عِزًّا فَاغْشِ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ وَلَا تُبَلِّ

فَالذَّلُ مِنَ قَبْلِ الْمُلُوكِ كِ اجْلُ مِنَ عِزِّ الْخَوَلِ

لكن ثمة من يخالف ابن خاتمة الرأي، ويرى أن يقف الإنسان عزيزاً بين أيدي الولاة، وألا يريق ماء وجهه على أعتابهم وأبوابهم فهم لفرط كبرهم واختيالهم تخالهم يتمايلون تمايل النشوان، ويشير ابن جببر إلى قضية عقديّة وهي أن التعظيم لا يكون إلا لله وأن تقبيل أيدي الملوك والانحناء لهم قد يورد المرء الشرك والعياذ بالله، يقول^(٤):

وَلَا تَتَوَاضَعْ لِلْوَلَاةِ فَإِنَّهُمْ مِنَ الْكِبْرِ فِي حَالِ تَمُوجِ بِهِمْ سُكْرَا

(١) ديوان لسان الدين، ج٢، ص ٥٠٤.

(٢) ديوان ابن خاتمة، ص ١٣٢-١٣٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٣٢.

(٤) ديوان ابن جببر، ص ٦١.

وإيّاك أن ترضى بتقبيل راحة فقد قيل فيها إنها السجدة الصغرى

وقد كتب أبو عبدالله محمد بن عبدالله العربي العقيلي في: "الروض العاطر الأنفاس في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس"^(١) تجربته وعصارة ما علمته الحياة .

وأوصى فيها سلطان فاس الشيخ الوطاسي بضرورة اليقظة والتنبّه والاعتاظ بما جرى للسلطان أبي عبدالله محمد الذي زالت بزوال دولته مملكة الإسلام بالأندلس، يقول فيها^(٢):

كُنّا ملوكاً لنا في أرضنا دول نمنا بها تحت أفنان من النعم

فأيقظتنا سهامٌ للردى صُيِّبٌ يرمى بأفجع حتف من بهن رُمي

فلا تم تحت ظل الملك نومتنا وأي ملك بظلّ الملك لم ينم

ونصحه لسلطان فاس في البيت الأخير واضح بيّن، فهو يوصيه بالتنبه واليقظة والحدز لئلا يصيبه ما أصابهم .على أن من يتولى فعل النصح للحكام يحترز لئلا يبدو كمن يعلمهم بأنه أعلم منهم، لذا يلجأ الموصي - في مثل هذه الحالة - إلى تبيان فضل المتلقي وعلمه ومنه^(٣):

فأقد علمت ولن تُبصرك الهدى فلأنت أهدى في الأمور وأحزم

ومن وعظ الملوك في شؤون الدولة والحكم ما حمله أتباع ابن صمادح إلى المعتمد^(٤) ينصحونه بقطع دابر المتمادين والمنافقين:

يا أيها الملك المُعلّى الأعظم اقطع وريدي كُلاً باغ ينم

فاحسم بسيفك داء كل منافق يبدي الجميل وضد ذلك يكتم

(١) نفع الطيب، ج٤، ص٥٢٩-٥٣٥. وأزهار الرياض، ج١، ص٧٢-١٠٢.

(٢) انظر نفع الطيب، ج٤، ص٥٢٨.

(٣) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ص٧٤.

(٤) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ص٧٤.

وفي المقابل فإن الحكام يوصون رعاياهم بالتوقف عن إثارة البلايل والقلائل والفتن ،
وبمدد يد الولاء والطاعة ، وقد يأتي ذلك في سياق التحذير والتهديد ، ومِن ذلك ما قاله
المعتمد^(١):

كُفُّوا وَإِلَّا فَارْقَبُوا لِي بَطْشَةٌ يُلْقَى السَّقِيهَ بِمِثْلِهَا فَيَحْمُ

(١) ابن خاقان، قلائد العقيان، ج١، ص٧٦.

الفصل الثاني

خصائص الوصايا الشرعية

- التأثر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

ويأتي هذا في مضامين الوصايا الدينية بوجه خاص، ويقف في الوصايا الاجتماعية والسياسية، ويختلف مستوى هذا التأثر فيأتي واضحاً في بعض المواضع كقول محمد بن عبد السلام الخشني^(١):

تَزَوَّدَ أَخِي مِنْ قَبْلِ أَنْ تَسْكُنَ الثَّرَى وَيَلْتَفِ سَاقَ لِلنَّشُورِ بِسَاقِ

إذ يبدو التأثر بقوله تعالى^(٢): "والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق" واضحاً.

وقد يأتي التأثر بالقرآن الكريم في الصورة والتشبيه فابن الجياب الغرناطي يشبه ما تؤمل به النفس صاحبها بسراب بقيعة في قوله ناهياً عن اتباع هوى النفس^(٣):

وَلَا تَعْبَأَنَّ بِمِيعَادِهِمَا فَمِيعَادُهَا كَسْرَابِ بَقِيعَةٍ

وهو ما شبه الله به أعمال الكافرين في قوله تعالى^(٤): "أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماءً".

وهنا نلاحظ أن ابن شكيل يقتبس اللفظ القرآني "فارتقبهم واصطبر" ولم يخرج المعتمد بن عبّاد و ابن الأبار عن المعاني القرآنية والنبوية لفظاً تارة ومعنى تارة أخرى فالقبول والرضا بالقدر أمر حضّ عليه الشارع الحكيم في مواضع أسلفنا الإشارة إليها.

وعبد الكريم القيسي وهو يوصي الغافل بالتنبيه واليقظة والأوبة والتوبة علّ من رفع السموات العلى يكشف الكربة و يغفر الزلة ويمحو الحوبة يذكر بنعم الله وبديع صنعه مقتبساً من معاني وألفاظ القرآن الكريم نحو قوله: "قم للذي عنت الوجوه لوجهه ... فاللفظ والمعنى مقتبساً من قوله تعالى: "وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً"^(٥).

(١) جذوة المقتبس، ١/١١٨.

(٢) سورة القيامة، آية ٢٩-٣٠.

(٣) ديوان ابن الجياب الغرناطي، ص ٢٠٤.

(٤) سورة النور، آية ٣٩.

(٥) سورة طه، آية ١١١.

وقوله: "ودحا بسيط ... مستمد من قوله تعالى: "والأرض بعد ذلك دحاها"^(١).

وكذلك اقتباسه للنص القرآني: "خلق الإنسان من علق"^(٢).

وبالنسبة للذكر فهو وصية الله لعباده ووصية حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم للمسلمين "فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً"^(٣) وقوله تعالى: "فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم"^(٤).

والواحد الصمد من قوله عز وجل: "قل هو الله أحد الله الصمد"^(٥).

وقيام الليل والناس نيام مذكور في قوله تعالى: "تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً"^(٦).

وقوله: "قم الليل إلا قليلاً..."^(٧) وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل"^(٨) يعني يبكي.

وأوصى القرآن الكريم وحثّ من اتباع الهوى وجعله إلهاً "أفأنت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً"^(٩) وقوله تعالى واصفاً المؤمنين الذين يعصون الهوى بغية رضا الله بأن متواهم الجنة "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى"^(١٠).

وعلي الغراب الصفاقسي يذهب إلى المعنى نفسه ولكن الجياب الغرناطي يقتبس ألفاظاً قرآنية نحو قوله: كسراب بقية فهو مقتبس من قوله تعالى: "والذين كفروا أعمالهم كسراب بقية يحسبه الظمان ماء"^(١١).

(١) سورة النازعات، آية ٣٠.

(٢) سورة العلق، آية ٢.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٠٠.

(٤) سورة النساء، آية ١٠٣.

(٥) سورة الإخلاص، آية ١.

(٦) سورة السجدة، آية ١٦.

(٧) سورة المزمل، آية ٢.

(٨) سنن النسائي ١٣/٣.

(٩) سورة الفرقان، آية ٤٣.

(١٠) سورة النازعات، آية ٤٠.

(١١) سورة النور، آية ٣٩.

وابن الجياب الغرناطي يستمد من معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "أول ما يقضى بين الناس بالدماء"^(١) وهو قوله به "غداً يبدأ الحساب" ويذكر رأي فئة من العلماء ترى أنّ القاتل لا توبة له ثم يعود مرة أخرى لاقتباس المعنى القرآني "والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يُضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مُهاناً"^(٢).

ولسان الدين ابن الخطيب يوصي بالعمل لما بعد الموت وادخار شيء ليوم لا ينفع فيه الإنسان إلا عمله وكأنما يغرف من نبع النبوة من نحو قول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "اغتنم خمساً قبل خمس ومنها : حياتك قبل موتك".

وكذلك ابن خاتمة كأنما يشير إلى قوله تعالى: "وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت"^(٣) حين قال: فما تدري متى يُمضى بعمرِكَ . وعبد الكريم القيسي حين يتحدث عن عدم القدرة على ردّ الموت ونفاذه في البشر يستمد من نحو قوله تعالى: "أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة"^(٤).

ونلاحظ أن عبد الكريم القيسي يرى بأن الشيب ما هو إلا بمثابة جرس إنذار وضوء تحذير لصاحبه بأن ساعة الرحيل قد اقتربت ولحظة الفراق قد أزفت وأن على المرء أن يتنبّه لذلك كما يحدثنا القرآن عن تنبّه زكريا حين دعا ربه بأن لا يذره فرداً لا ذرية له لأنه استشعر دنو الأجل حين استقل الشيب برأسه ورقّ عظمه فقال: "قال ربّ إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً"^(٥) وسبق وأسلفنا الحديث عن الإشارات النبوية والقرآنية التي تحت أولي الشيب أن يتنبّهوا فلم يبق من العمر قدر ما مضى وأن الموت لا يفرق بين قوي ولا ضعيف ولا حاكم ولا محكوم فهو أمر محتوم لا مفرّ منه وإنّ سعى المرء واجتهد وركب لذلك سبل الخلاص كلها: "قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم"^(٦).

(١) صحيح البخاري ٢٣٩٤/٥.

(٢) سورة الفرقان، آية ٦٩.

(٣) سورة لقمان، آية ٣٤.

(٤) سورة النساء، آية ٧٨.

(٥) سورة مريم، آية ٤.

(٦) سورة آل عمران، آية ١٥٤.

ويحذو الخشني حذو القيسي وأقرانه من شعراء الأندلس فينهل من قيس النبوة ويقتبس ألفاظ القرآن ومعانيه من نحو قول الله عزوجل "وانتفت الساق بالساق"^(١) وقول الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم : "ما أنا والدنيا إنما أنا والدنيا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها"^(٢).

والحال نفسه عند عبدالله بن محمد وعند ابن سعيد فالحديث عن قصر العمر الذي أقرّه البارئ جل وعلا بقوله: "قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون. أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون..."^(٣).

ويتحدّث الغزال عن حُسن الخاتمة فيرى أن خير ما يكافأ به المرء أن يختم له بعمل صالح وابن الأبار يطلب التزوّد من الدنيا للأخرة ويراهما - الدنيا - ممراً ومعبراً لدار الخلود والسعيد من تزوّد بأسباب العبور وأعد للأمر عدته وأخذ له أهبتة.

ومرج الكحل يقتبس معان قرآنية صرفة ومقاصد نبويّة بيّنة المعالم واضحة الآثار فمراجعة النفس والتفكّر والتدبّر بالأفعال قبل فوات الأوان أمور حضّ عليها القرآن وحثت عليها سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، ونرى مرج الكحل ينهل من هذا المعين أكثر من نحو قوله تعالى:

"والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون"^(٤) ويحثّ مرج الكحل على المبادرة والتعجيل قبل فوات الأوان وقبل الانتقال إلى الدار الآخرة وقبل ورود القبر حيث لا ينفع مال ولا بنون، والآيات القرآنية زاخرة بهذه المعاني نحو قوله تعالى:

"واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً"^(٥)، وقوله :
"أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن السخرين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كربة فأكون من المحسنين"^(٦).

(١) سورة القيامة، آية ٢٩.

(٢) سنن ابن ماجه ١٣٧٦/٢.

(٣) سورة المؤمنون، آية ١١٥.

(٤) سورة آل عمران، آية ٣٥.

(٥) سورة لقمان، آية ٣٣.

(٦) سورة الزمر، آية ٥٦، ٥٨.

وقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: "يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله"^(١).

وكذلك فإن عبد الكريم القيسي لم يجاوز هذه المعاني في الحض على التوبة ونفض غبار المعصية علَّ المرء يستدرك فيما بقي له شيئاً مما فاته والأمير عبدالله بن محمد يستفيد من المعنى القرآني إفادة مباشرة ويستمدّ من نحو قوله تعالى: "وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب"^(٢).

فالسنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وقد اتكأ الشعراء الأندلسيون في وصاياهم ووعظهم عليها، واستمدوا منها كثيراً من المعاني والقيم، وحضوا على التزام أوامر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم واجتناب نواهيه وضمنوا أقواله عليه الصلاة والسلام في أشعارهم.

فهذا ابن الجيّاب الغرناطي يضمن قوله صلى الله عليه وسلم في الحَضّ على الإنفاق "اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى وابدأ بمن تعول"^(٣).

في قوله في المعنى ذاته^(٤):

وقدّم الأمرَ بين واذكر ما روى ابدأ بمن تعول

والحق أن مثل هذا كثير كثير، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في مواضع كثيرة مبثوثة بين ثنايا الصفحات السابقة في التعليق على الوصايا الشعرية ولعله من التكرار أن نعيد ذلك.

٣. التأثير بالشعراء السابقين:

استفاد الشاعر الأندلسي من الإرث الثقافي السابق عليه فضمّن تجربة غيره من الشعراء صراحة تارة وضمناً تارة أخرى. فقد حرص الشعراء الأندلسيون على ربط إنتاجهم الأدبي

(١) صحيح البخاري ٢٣٨٨/٥.

(٢) سورة الزمر، آية ٥٤.

(٣) صحيح البخاري ٥١٨/٢.

(٤) ابن الجيّاب الغرناطي، ص ٢٠٥.

بشعر الشعراء الفحول من المشاركة وسواء أكان ذلك الربط بهدف الإفادة من تجارب الآخرين أم بهدف إثبات التفوق والتميّز فإنه ظهر جلياً في أشعارهم بعامّة^(١).

فهذا الحكيم ينصح في معاملة الصديق بقوله:

ولم يبق في الباقي حافظ خُله فعش واحداً ما عشت تتج وتسلم^(٢)

ثم ينهي ذلك بقول زهير بن أبي سلمى^(٣):

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

وقد تأثر ابن حمديس بالمتنبي^(٤) بقوله في فضل الكتاب:

أعزُّ مكان في الدنا سرج ساج وخير جليس في الزمان كتاب
قد أفاد منه ابن حمديس في قوله^(٥):

وأفيتُ الجليسَ على خلفي فلست مجالساً إلا كتاباً

وقد يأتي التأثر بالشعر واضحاً صريحاً ومنه قول الموصي^(٦):

لا تتركَنَّ للناس موضع تهمة واحزُم فمئتك في العظام يحزُم

قد قال شاعر كندة فيما مضى بيتاً على مر الليالي يُعلمُ

"لا يسلم الشريف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدّم"

(١) انظر: مصطفى عليان، تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص٣٠٤-٣١٤.

(٢) ديوان الحكيم، ص١٤٣.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص.

(٤) ديوان المتنبي، ص.

(٥) ديوان ابن حمديس، ص١٥.

(٦) ابن خاقان، فلاند العقيان، ج١، ص٧٤.

فاجعله قدوتك التي تعتاها في كل من يبغى ورأيك أحكم

إذ وظف بيت المتنبّي كاملاً في سياق نصه الشعري معتمداً عليه؛ إذ قدّم له بمقدمة احتفالية معلناً عن استثماره له في قوله.

- الوعظ المباشر الذي صرّح به بلفظ الوعظ ومضمونه:

ومن ذلك ما صرّح به القاضي جعسوس بقوله^(١):

ووالله يا إنسان لولا وصية

لشيخ نصيح كان من خيرة الجنس

قول : عبد الكريم القيسي^(٢):

يبغي الخلاص لنفسك المسكينة

اسمع وصية ناصح لك مشفق

ومن ذلك قول ابن الأبار^(٣):

شقّ في الإخلاص ما تنتهجه

يا شقيق النفس أوصيك وإن

فالشاعر يرى النصيحة للآخرين واجباً دينياً وهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم

"الدين النصيحة"^(٤).

وفي تمثّلها يقول ابن جبّير^(٥):

والنصح من محض الديانة

اسمع أخي نصيحتي

(١) هو القاضي علي بن عبد الله بن الحسن النباهي البني ، لسان الدين بن الخطيب، الكتيبة الكامنة، ص ١٥٠.

(٢) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٢٣٥.

(٣) ديوان ابن الأبار.

(٤) صحيح مسلم ١/٧٤.

(٥) ديوان ابن جبّير، ص ٩٨.

- الوعظ عن طريق التهكم والهزل:

ونجد ذلك فيما كتبه المعتمد بن عبّاد إلى ابنه الراضي الذي ترك الحرب وانشغل بالعلم فكتب إليه متهكماً هازلاً ينصحه بالتزام الدفاتر والتخلي عن قيادة الجيش، لأن العلم يقهر الجيوش وأن القلم أشدُّ طعناً في النحور ، وذباً عن الثغور ، وأن الدواة أحدّ من الحسام، والمعتمد يلجأ إلى التهكم ويتخذ من السخرية سبيلاً للنصيحة والوعظ علها تترك أثرها على فلذة كبده ، فيتدبر ويتفكر ويتعظ ويعتبر، فيقول^(١):

المُكِّ في طيِّ الدفاتر	فَتَخَلَّ عَنْ قَوْدِ العساكر
طُف بالسريير مسلماً	وارجع لتوديع المنابر
وازحف إلى جيش المعارف	تقهّر الحبر المقامر
واضرب بسكين الدوا	ة مكان ماضي الحدّ باتر

- التمهيد بين يدي الوصية

يسعى الشاعر قبل أن يبتّ المتلقي نصائحه ووصاياه إلى التمهيد بين يدي وصيته بشيءٍ عن خبرته الخاصة التي تجعل منه إنساناً مجرباً ذا حكمة ودراية تؤهله لنصح غيره، وهو في هذا يُقدّم لخطابه الوعظي الإقناعي ويجعل المتلقي مستعداً، وقد فعلَ هذا كثير من الشعراء، ومن ذلك قول ابن حمديس في تجربته الخاصة: ^(٢)

وقفتُ من التناقض مستريباً	وقد يقف اللبيب إذا استرابا
وفي خلق الزمان طباع خلف	ثمررُ في فمي الثعب العذابا
وقد بُدلت بعد سرارة قومي	ذئاباً في الصّحابة لا صحابا
وأفويت الجلّيسَ على خلفي	فلست مجالساً إلا كتابا
وما ضاقت عليّ الأرض إلا	دحوت مكانها خُلُقاً رحابا

فهو اللبيب الذي جرّب حوادث الدهر التي تجعل العذب مرّاً وقد خبر الأصحاب على اختلافهم فلم يجد جليسا أفضل من الكتاب وتقل في بلاد الله مما أغنى تجربته.

(١) ديوان المعتمد بن عبّاد، ص ١٣٨.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص ١٥.

فالإنسان يتعلم من خلال التجربة، إذ يكون قبلها جاهلاً وفي هذا يقول ابن حمديس^(١):

علمت بتجربتي أموراً جهلتها وقد تُجهل الأشياء قبل التجارب

ويفطن الموصي إلى ضرورة أن يبدأ بنفسه ناصحاً وواعظاً لها ومنه^(٢):

قعدتُ لتذكير ولو كنت منصفاً لذكرت نفسي فهي أحوج للذكرى
إذا لم يكن مني لنفسي واعظاً فيا ليت شعري، كيف تفعل في أخرى

كما ينصح عبد الكريم القيسي نفسه بأن تتبعد عن الهوى وتتعظ بما فات قائلًا^(٣):

إذا ما النفس مال بها هواها لأمر ما شمالاً أو يميناً
أقول لها اقصي نفسي وكُفّي فإني قد بلغت الأربعيناً
وحسبي ما مضى عني ووَلّي وأصبحت الغداة به رهيناً
فما زال الهوى يُردي قديماً ويورث أهله داء دفيناً

إذ على الموصي أن يتمثل النصائح ويكون نموذجاً حياً يمثلها كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصي بما يفعل وقد قالت عنه السيدة عائشة: "كان خلقه القرآن"^(٤) وفي هذا المعنى مدح ابن هانئ الأندلسي قائلًا^(٥):

وأوصيته منهم برفقك مردفاً بجودك معقوداً به عهدك البرُّ
وصاة كما أوصى بها الله رسله وليس بأذن أنت مُسمعها وقرُّ

(١) ديوان ابن حمديس، ص ٢٩.

(٢) ديوان لسان الدين، ج ٢، ص ٤٠٨.

(٣) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٤٠٧.

(٤) مسند الإمام أحمد ٩١/٦.

(٥) ديوان ابن هانئ الأندلسي، ص ١٣٧.

وقد تؤهل الخبرة الطويلة الموصي ليوصي ويعظ لغيره ممن يتصدون لهذا الأمر فهذا لسان الدين ابن الخطيب يوصي لمن يوصي غيره فيقول^(١):

وَبَدَارَ مَا دَامَ الزَّمَانُ مَوَاتِي	خُذْ مِنْ حَيَاتِكَ لِلْمَمَاتِ الْآتِي
قَدْ خُوِّدِعَ الْمَاضِي بِهِ وَالْآتِي	لَا تَغْتَرَّرْ فَهُوَ السَّرَابُ بَقِيْعَةٌ
يَوْمًا لِيُوقِظَهُ مِنَ الْغَفَلَاتِ	يَا مَنْ يَوْمًا وَعَظْمًا وَمُذَكَّرًا
بِمَدَافِنِ الْآبَاءِ وَالْأَمَهَاتِ*	هَلَّا اعْتَبَرْتَ وَيَا لَهَا مِنْ عِبْرَةٍ!

والموصي قد لا يلقي اهتماماً إلى ردة فعل من يتوجه إليهم بالنصح لأنهم قد لا يتفاعلون معه، وكلهم ينصح إرادة منه في ذلك وفي هذا يقول ابن الخطيب^(٢):

وإن كنتَ قد أهديتها ثم لم تُجِدْ	ولكنني أهدي إليك نصيحتي
تحوّلت الأعراض منه إلى الضدِّ	إذا مقول الإنسان جاوز حدّه
وأصبح منه الهزل في صورهِ الجِدِّ	فأصبح منه الجِدُّ هزلاً مُذَمَّماً

لكن الشاعر ينبه الموصي ليرى أن يلقيها إليه، وهو في هذا يريد لنصحه أن يحقق مقصده ويربأ به عن العبث؛ إذ غاية هذا النص التأثير والاعتاظ والاعتبار ومن ذلك قول عبد الكريم القيسي^(٣):

اسمع وصية ناصح لك مشفق	يبغي الخلاص لنفسك المسكينة
------------------------	----------------------------

والموصي إذ يقدم نُصَحَه حريصٌ على أن يبين للمتلقى مكانته من نفسه لتكون وصيته أوقع في النفس وأعظم فائدة وأعمَّ عائدة، ومن ذلك قول ابن حزم^(٤):

أودُّكَ وُدًّا لَيْسَ فِيهِ غَضَاضَةٌ

وبعض مَوَدَّاتِ الرِّجَالِ سَرَابٌ

(١) ديوان لسان الدين، ص ١٨٧.

* كذا في الديوان، ولعلها "الأمات".

(٢) ديوان لسان الدين، ص ٣٣٣.

(٣) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٢٣٥.

(٤) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ٤-٥.

وأحضك النصيح الصريح وفي

الحشا لوذك نقش ظاهر وكتاب

بل إن الشاعر الأندلسي يرى أنه من الواجب عليه أن ينصح لغيره وفي هذا يقول
الشاعر القيسي^(١):

بذل النصيحة واجب لك سيدي فأصخ فغك نصيحتي لم أخزن

وقد تأتي النصيحة رداً على سؤال ينهل فيه السائل من خبرة المسؤول، وقد نصح ابن
حمديس لمن سأله عن خبرته قائلاً^(٢):

فيا سائلي عن أهل ذا العصر دعهم

فبالفرع منهم يستدلّ على الأصل

إذا خلل في الحال منك وجدته

فإياك والتعويل منهم على خيل

يستخدم الموصي الموازنة العقلية ليقنع المخاطب بما يريد في محاولة منه لحشد طاقاته
المعرفية واللغوية في إيصال رسالته، وهو ما تحدّث عنه القرطاجني في الإقناع من أن النفس
تتعلق بفعل الشيء واعتقاده لأنه يحس من جهة العقل^(٣).

فهذا ابن صمادح يحشد الموروث الثقافي وحصيلته المعرفية ليقنع المعتمد بصدق نصحه
له ليوقع بابن زيدون فيقول^(٤):

فُثِلُّ من مهجاتهم ما يحرم

إن الملوك تخاف من أبنائها

فيه الولي يثير حرباً تُضرم

ولذاك قيل: الملك أعقم لم يزل

(١) ديوان عبد الكريم القيسي، ص ٣٤٥.

(٢) ديوان ابن حمديس، ص ٣٦٥.

(٣) انظر: القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ١٠٦.

(٤) فلائد العقيان، ج ١، ص ٧٤.

فالدَّاءِ يسري إن غدا لا يُحسَمُ	فاحسِمِ دواعي كل شرٍّ دونه
بركان نار كل شيءٍ يحطِمُ	كم سقط زنديقٌ حتى غدا
أولاه طُلُّ ثم وبل يسجِمُ	وكذلك السيل الجُحاف فإنما
فافهم فإتِّك بالبوطن أفهم	والمال يُخرج أهله عن حدِّهم

ولا يخفى ما في هذا الأسلوب من احترام لعقل المتلقي؛ إذ ترك الموصي الإفصاح عن كثير من مكنون نفسه اعتماداً على حصافة المتلقي وقدرته على التأويل والفهم.

الباب الثالث

دراسة تطبيقية لوصيتين أندلسيتين

الفصل الأول
وصية لسان الدين بن الخطيب النثرية لأبنائه

أولاً: نص الوصية^(١):

الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب، إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبغته الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب، ملهم الهدى الذي تطمئن به القلوب، وموضح السبيل المطلوب، وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب، لا سيما للولي المحبوب، والولد المنسوب، القائل في الكتاب المعجز الأسلوب "أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب" (البقرة-١٢٣) "ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب" (البقرة:١٣٢) والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زرت على نوره جيوب الغيوب، وأشرف من خلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تقتحمه العيون ولا تصممه العيوب، والرضى عن آله وأصحابه المثابرين على سبيل الاستقامة بالهوى المغلوب، والأمل المسلوب، والافتداء الموصل للمرغوب، والعز والأمن من اللغوب.

وبعد، فإني لما علاني المشيب بقمته، وقادني الكبر في رمته، وادكرت الشباب بعد أمته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رعيه، وتعلق بعيني سعيه، وأمّلت أن تتعدى إليّ ثمرة استقامته وأنا رهين قوّات، وفي برزخ أموات، ويأمن العثور في الطريق التي اقتضت عثاري، إن سلك - وعسى أن لا يكون ذلك - على أتاري، فقلت أخطب الثلاثة الولد، وثمرات الخلد، بعد الضراعة إلى الله تعالى في توفيقهم، وإيضاح طريقهم، وجمع تفريقهم، وأن يمن عليّ منهم بحسن الخلف، والتلافي من قبل التلف، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدي السلف، فهو ولي ذلك، والهادي إلى خير المسالك:

اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضلال، وبرضاه ترفع الأغلال، وبالتماس قربه يحصل الكمال، إذا ذهب المال، وأخلفت الآمال، وتبرأت من يمينها الشمال - أني مودعكم وإن سالمني الردى، ومفارقكم وإن طال المدى، وما عدا ممّا بدا، فكيف وأدوات السفر تجمع، ومناذي الرحيل يسمع، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر، وعجالة مقتصر، ورتيمة^(٢) تُعقد في خنصر، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر، تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدي، وتوضح لكم من الشفقة والحنوّ قصدي، حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدي، فهي أربكم الذي لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رفاً عليكم سقفه، وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ، وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروع بأسل، لا بل

(١) نفع الطيب، ج٦، ص٣٩٢-٤٠٥.

(٢) الرتيمة: الخيط الذي يشد في الإصبع لتستذكر به الحاجة.

السام^(١) من كل حذب قد نسل، والمعاد للحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء
عسكر مَجْر، وغداً شيوخ مضيعة وهجر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة،
والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها السداد، وعلامة سلامة الاعتقاد، ثم اسحبوا فضل
تعظيمهم على فقهاء الملة، وأئمتها الجلة، فهم صقلة نصولهم، وفروع ناشئة من أصولهم،
وورثتهم وورثة رسولهم.

واعلموا أنني قطعت في البحث زماتي، وجعلت النظر شأني، منذ برآني الله تعالى
وأشأني، مع نبل يعترف به الشاني، وإدراك يسلمه العقل الإنساني، فلم أجد خابط ورق، ولا
مصيب عرق، ولا نازع خطام، ولا متكلف فطام، ولا مقتحم بحر طام، إلا وغايته التي يقصدها
قد نضلتها^(٢) الشريعة وسبقتها، وفرعت ثنيتها وارقتها، فعليكم بالترام جادتها السابلة،
ومصاحبة رفقتها الكاملة، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين
"وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (آل عمران: ٨٥)
وقد علت شرائعه، وراع الشكوك رائعه، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين، وابدلوا دونه النفوس
فعل المهتدين، فلن ينفع متاع بعد الخلود في النار أبد الأبد، ولا يضر مفقود مع الفوز
بالسعادة والله أصدق الواعدين، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين، اللهم
قد بلغت فأت خير الشاهدين.

فاحذروا المعاطب التي توجب في الشقاء الخلود، وتستدعي شوه الوجوه ونضج
الجلود، واستعيذوا برضى الله من سخطه، وارباوا بنفوسكم عن غمطه، وارفعوا آمالكم عن
الفتوح بغرور قد خدع أسلافكم، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل انتلافكم، واقتنعوا منه
بما تيسر، ولا تأسوا على ما فات وتعدر، فإتما هي دجنة ينسخها الصباح، وصفقة يتعاقبها
الخسار والرباح، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها، وكفكفوا الشبه أن تدنوا إليها.

واعلموا أن الإخلال بشيء من ذلك خرق لا يرفوه عمل، وكل ما سوى الراعي همل،
وما بعد الرأس في صلاح الجسم الميت أمل، وتمسكوا بكتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة، واجعلوا
حملة على حمل التكليف علاوة، وتفكروا في آياته ومعانيه، وامتلوا أوامره ونواهيه، ولا
تتأولوه ولا تغلوا فيه، وأشربوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه، وأكثروا من بواعث حبه،
وصونوا شعائر الله صون المحترم، واحفظوا القواعد التي يبني عليها الإسلام حتى لا ينخرم.

(١) السام - بتخفيف الميم - : الموت.

(٢) الأزهار و ق: فضلها؛ ونضلتها: سبقتها وبزتها في الرمي.

الله في الصلاة ذريعة التجلّة، وخاصة الملتّة، وحاقنة الدم، وغنى المستأجر المستخدم، وأم العبادّة، وحافضة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة، والناهية عن الفحشاء والمنكر وإن عرض الشيطان عرضهما، ووطأ للنفس الأمارّة سماءهما وأرضهما، والوسيلة إلى بل الجوانح ببرود الذكر، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر، وضامنة حسن العشرة من الجار، وداعية للمسالمة من الفجار، والواسمة بسمة السلامة، والشاهدة للعبد برفع الملامة، وغاسول الطبع إذا شأنه طبع، والخير الذي كل ما سواه له تبع، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة، فالخير عادة، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية، وتؤثروا على العلية الدنية، فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تنبس^(١)، والفلك بها من أجلكم لا يحبس، وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل، والحكم الذي لا يغيّره الغدو ولا الأصيل، والوظائف بعد أدائها لا تفوت، وأين حق من يموت من حق الحي الذي لا يموت، وأحكموا أوضاعها إذا أقتموها، وأتبعوها النوافل ما

أقتموها، فبالإتقان تفاضلت الأعمال، وبالمراعاة استحقت الكمال، ولا شكر مع الإهمال، ولا ربح مع إضاعة رأس المال، وذلك أخرى بإقامة الفرض، وأدعى إلى مساعدة البعض البعض.

والطهارة التي هي في تحصيلها سبب موصل، وشرط لمشروطها محصل، فاستوفوها، والأعضاء نظفوها، ومياهاها بغير أوصافها الحميدة فلا تصفوها، والحجول والغرر فأطيلوها، والنيات في كل ذلك فلا تهملوها، فالبناء بأساسه، والسيف برئاسه، واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور، وذكر مجهور وغير مجهور، تستغرق الأوقات، وتنازع شتى الخواطر المفترقات، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعقال، وكان في درج الرجولية ذا انتقال، واستقاض صداه بصقال، وإن تراخى فهقر الباع، وسرقتة الطباع، وكان لما سواها أضيع فشمّل الضياع.

والزكاة أختها الحبيبة، ولدتها القربية، مفتاح السماحة بالعرض الزائل، وشكران المسؤول على الضدّ من درجة السائل، وحق الله تعالى في مال من أغناه، لمن أجهده في المعاش وعناه، من غير استحقاق ملأ يده وأخلى يد أخيه، ولا علة إلا القدر الذي يخفيه، وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه. فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها، في اختيار عرضها ونتاجها، واستحيوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل، وخالفوا الشيطان كلما عدل، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون، ولا تدرون أين تسلكون، فوهب وأقدر، وأورد بفضلته

(١) تنبس: تسرع.

وأصدر، ليرتب بكرمه الوسائل، أو يقيم الحجج والدلائل، فابتغوا إليه الوسيلة بماله، واغتموا رضاه ببعض نواله.

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زُلفى، الممحوضة لمن يعلم السر وأخفى، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام، والقيام ببر القيام، والاجتهاد، وإيثار التهجد على المهاد، وإن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية، ولواحقه الشرعية، فبذلك تحسن الوجوه، وتحصل من الرقة على ما ترجوه، وتذهب قسوة الطباع، ويمتد في ميدان الوسائل الباع.

والحج - مع الاستطاعة - الركن الواجب، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرض عن ربه وسنّه، وقال ليس له جزاء عند الله إلا الجنة.

ويلحق بذلك الجهاد في سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوة عليه، وغنى لديه، فكونوا ممن يسمع نفيده ويطيعه، وإن عجزتم فأعينوا من يستطيعه.

هذه عمد الإسلام وفروضة، ونقود مهره وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناويكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مُبدلين ولا مُغيرين، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين.

واعلموا أن بالعلم تُستكمل وظائف هذه الألقاب، وتجلي محاسنها من بعد الانتقاب، فعليكم بالعلم النافع، دليلاً بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب، والموصل إلى اللباب، والله عزّ وجل يقول: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولو الألباب" (الزمر: ٩) والعلم وسيلة النفوس الشريفة، إلى المطالب المنيفة، وشرطه خشية الله تعالى والخيفة، وخاصة الملاء الأعلى، وصفة الله في كتبه التي تُتلى، والسبيل في الآخرة إلى السعادة، وفي الدنيا إلى التجلّة عادة، والذخر الذي قليله ينفع، وكثيره يشفع، لا يغلبه الغاصب، ولا يسلبه العدو المناصب، ولا يبتزّه الدهر إذا مال، ولا يستأثر به البحر إذا هال، من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله، وقليل وإن جم ماله، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم، وتخطى حسابكم، فالتمسوه لبنيككم، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم، واحملوهم على جمعه ودرّسه، واجعلوا طباعهم ثرى لغرسه، واستسهلوا ما ينالهم من تعب من جرّاه، وسهر يهجر له الجفن كراه، تعقدوا لهم ولاية عزّ لا تُعزل، وتخلّوهم مثابة رفعة لا يُحطّ فارعا ولا يُستنزل، واختاروا من العلوم التي ينفقها الوقت، ما لا يناله في غيره المقت.

وخير العلوم علوم الشريعة، وما نجم بمنابقتها المريعة، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها، فإنما هي آلات لغير، وأسباب إلى خير منها وخير، فمن كان قابلاً لازدياد، وألقى فهمه ذا انقياد، فليخص تجويد القرآن بتقديمه، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيم، ثم الشروع في أصول الفقه فهو العلم العظيم المنة، المهدي كنوز الكتاب والسنة، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة، والتدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة، وهذه هي الغاية القصوى في الملة، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى، وتقاعد عن التي هي أسمى، فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب وإحكامه، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه، وإياكم والعلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكاً، ورأياً ركيكاً، ولا يثمر في العاجلة إلا اقتحام العيون، وتطريق الظنون، وتطويق الاحتقار، وسمة الصغار، وخمول الأقدار، والخسف من بعد الإبدار، وجادة الشريعة أعرق في الاعتدال، وأوفق من قطع العمر في الجدل، هذا ابن رشد قاضي المصير ومفتيه، وملتمس الرشد وموليه، عادت عليه بالسخطة الشنيعة، وهو إمام الشريعة، فلا سبيل إلى اقتحامها، والتورط في ازدحامها، ولا تخطوا سامكم بحامها، إلا ما كان من حساب ومساحة، وما يعود بجدوى فلاحه، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة، وما سوى ذلك فمحجور، وضرم مسجور، وممقوت مهجور.

وأمرؤا بالمعروف أمراً رقيقاً، وانهوا عن المنكر نهياً حرياً بالاعتدال حقيقاً، واغبطوا من كان من سنة الغفلة مفيقاً، واجتنبوا ما تُهَوَّنَ عنه حتى لا تسلكوا منه طريقاً.

وأطيعوا أمر من ولاه الله تعالى من أموركم أمراً، ولا تقربوا من الفتنة جمرأ، ولا تُداخلوا في الخلاف زيداً ولا عمراً.

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين، وأهم ما أضرى عليه الآباء السنة البنين، وأكرم منسوب إلى مذهبه، ومن أكثر من شيء عُرف به . وإياكم والكذب فهو العورة التي لا تُؤارى، والسوأة التي لا يُرتاب في عارها ولا يُنمارى، وأقل عقوبات الكذاب، بين يدي ما أعد الله له من العذاب، أن لا يقبل منه صدقه إذا صدق، ولا يعول عليه إن كان بالحق نطق.

وعليكم بالأمانة فالخيانة لوم، وفي وجه الديانة كلوم، ومن الشريعة التي لا يعذر بجهلها، أداء الأمانات إلى أهلها، وحافظوا على الحشمة والصيانة، ولا تجزوا من أقرضكم دين الخيانة، ولا توجدوا للغدر قبولاً، ولا تقروا عليه طبعاً مجبولاً "وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤولاً" (الإسراء: ٣٤) ولا تستأثروا بكنز ولا خزن، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين في

سهل ولا حَزَن، ولا تبخسوا الناس أشياءهم في كل أو وزن، والله الله أن تعينوا في سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام، واعلموا أن الإنسان في فسحة ممتدة، وسبل الله تعالى غير مُسَدَّة، ما لم ينبذ إلى الله تعالى بأمانه، ويغمس في الحرام بيده أو لسانه، قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به سنناً قويمًا، وجلّى من الجهل والضلال ليلًا بهيمًا "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً" (النساء: ٩٣) واجتناب الزنا وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه، وامتد في سبيل السعادة باعه، لو لم تتلق نور الله الذي لم يهد شعاعه، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه، ولا عدم إقناعه، ومن غلبت عليه غرائز جهله، فلينظر هل يحب أن يُزنى بأهله، والله قد أعدّ للزاني عذاباً وبليلاً، وقال: "ولا تقربوا الزنا إنّه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً". (النساء: ٢٢).

والخمر أم الكبائر، ومفتاح الجرائم والجرائر، واللهو لم يجعله الله في الحياة شرطاً، والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذي سوّغ وأعطى، وقد تركها في الجاهلية أقواماً لم يرضوا لعقولهم بالفساد، ولا لنفوسهم بالمضرة في مرضاة الأجساد، والله تعالى قد جعلها رجساً محرماً على العباد، وقرنها بالأنصاب والأزلام في مباينة السداد.

ولا تقربوا الربا فإنه من مناهي الدين، والله تعالى يقول: "وذرّوا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين" (البقرة: ٢٧٨) وقال: "فإن لم تفعلوا فآذنوا بحرب من الله ورسوله" (البقرة: ٢٧٩) في الكتاب المبين، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق يبيحه، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحكم على قدمه، ولا يكل اختياره إلا للثقة من خدمه، ولا تلجأوا إلى المتشابه إلا عند عدمه، فهو في السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع، والمحافظة عليه مغبوط، وإياكم والظلم فالظالم ممقوت بكل لسان، مجاهر الله تعالى بصريح العصيان، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان. والنميمة فساد وشتات، ولا يبقى عليه متات، وفي الحديث "لا يدخل الجنة قتات"^(١).

واطرحوا الحسد فما ساد حسود، وإياكم والغيبة فباب الخير معها مسدود، والبخل فما رؤي البخيل وهو مودود، وإياكم وما يُعْتَدَر منه فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها، ومظنّات الفضائح لا تؤمن غمراتها، وتفقدوا أنفسكم مع الساعات، وأفشوا السلام في الطرقات والجماعات، ورقوا على ذوي الزمانات والعاهات، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم في

(١) القتات: النمام الذي ينقل الحديث أو الذي يتسمع على القوم وهم لا يعلمون.

البضاعات، وعلّوا عليه وحده في الشدائد، واذكروا المساكين إذا نصبتهم الموائد، وتقربوا إليه باليسير من ماله، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله، وارعوا حقوق الجار، واذكروا ما ورد في ذلك من الآثار، وتعاهدوا أولي الأرحام، والشوائج البادية الالتحام، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر، وتفسد السرّ والجهر، والرّشا فإنها تحط الأقدار، وتستدعي المذلة والصغار، ولا تسامحوا في لعبة قمر، ولا تشاركوا أهل البطالة في أمر. وصونوا المواعيد من الإخلاف، والإيمان من حنث الأوغاد والأجلاف، وحقوق الله تعالى من الإزراء والاعتساف، ولا تلهجوا بالآمال العجاف، ولا تكلفوا بالكهانة والإرجاف. واجعلوا العمر بين معاش ومعاد، وخصوصية وابتعاد. واعلموا أن الله سبحانه بالمرصاد، وأن الخلق زرع وحصاد، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم، واحذروا القواطع عن السعادة كما تُحذر السموم. واعملوا أن الخير أو الشر في الدنيا محال أن يدوم، وقابلوا بالصبر أذية المؤذنين، ولا تقارضوا مقالات الظالمين، فالله لمن بُغي عليه خير الناصرين، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت، ولا تضجوا للأمراض إذا أعضلت، فكل منقرض حقير، وكل مُنقّض وإن طال قصير، وانتظروا الفرّج، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرج، وأوسعوا بالرجاء الجوانح، [واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح]، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء، والجاؤا إليه في البأساء والضراء، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذي يقيد به الشارد، ويعذب الوارد، وأسهموا منها للمساكين وفضلوا عليهم، وعينوا الحظوظ منها لديهم، فمن الآثار "يا عائشة، أحسني جوار نعم الله، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم". ولا تطغوا في النعم فتقصروا عن شكرها، وتلقكم الجهالة بسكرها، وتتوهموا أن سعيكم جلبها، وجدكم حلبها، فالله خير الرازقين، والعاقبة للمتقين، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين، والله لا تنسوا الفضل بينكم، ولا تُذهبوا بذهابه زينكم، وليلتزم كل منكم لأخيه، ما يشتد به تواخيه، بما أمكنه من إخلاص وبر، ومُراعاة في علانية وسر، ولإنسان مزية لا تُجهل، وحق لا يُهمل. وأظهروا التعاضد والتناصر، وصلوا التعاهد والتزاور، ثرّعوا بذلك الأعداء، وتستكثروا الأوداء، ولا تتنافسوا في الحظوظ السخيفة، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان، وطاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان، فإذا أسديتم معروفاً فلا تذكره، وإذا برز قبيح فاستروه، وإذا أعظم النساءُ أمراً فاحقروه.

والله لا تنسوا مقارضة سجلي، وبروا أهل مودتي من أجلي، ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الافتضاح والافتقار،

ومعوقاً عن الانتقال، أمام الثوب الثقيل، وإذا كان رزق العبد على المولى، فالإجمال في الطلب أولى، وازهدوا جهدكم في مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرّها، ونفعها لا يقوم بضرّها، وأعقاب من تقدّم شاهدة، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة، ومن بلي بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال، والتقلل من المال، وليحذر معاداة الرجال، ومزلات الإدلال، وفساد الخيال، ومداخلة العيال، وإفشاء السر، وسكر الاغترار، وليصن الديانة، ويؤثر الصمت ويلزم الأمانة، ويسير من رضى الله على أوضح الطرق، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق، وليقف في التماس أسباب الجلال دون الكمال غير النقصان، والزعازع تسالم اللدن اللطيف من الأغصان، وإياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً، واستظهاراً على الحظوظ وغلاباً، فذلك ضرر بالمروءات والأقدار، داع إلى الفضيحة والعار، ومن امتحن بها منكم اختياراً، أو جبر عليها إكراهاً وإيثاراً، فليتلقَ وظائفها بسعة صدره، ويبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره، فالولايات فتنة ومحنة، وأسر وإحنة، وهي بين إخطاء سعادة، وإخلال بعبادة، وتوقع عزل، وإدالة بإزاء بيع جد من الدنيا بهزل، ومزلة قدم، واستتباع ندم، ومآل العمر كله موت ومعاد، واقتراب من الله وابتعاد، جعلكم الله ممّن نفعه بالتبصير والتنبيه، وممّن لا ينقطع بسببه عمل أبيه.

هذه أسعدكم الله وصيتي التي أصدرتها، وتجارتي التي لربحكم أدرتها، فتلقوها بالقبول لنصحها، والاهتداء بضوء صبحها، ويقدر ما أمضيت من فروعها، واستغشيت من دروعها، اقتنيت من المناقب الفاخرة، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة، ويقدر ما أضعتم لآليها النفيسة القيم، استكثرتم من بواعث الندم. ومهما سئمت إطالتها، واستغزرت مقالتها، فاعلموا أن تقوى الله فذلكه الحساب، وضابط هذا الباب، كان الله خليفتي عليكم في كل حال، فالدنيا مناخ ارتحال، وتأميل الإقامة فرض محال، فالموعد للالتقاء، دار البقاء، جعلها الله من وراء خطة النجاة، ونفق بضائعها المزجاة، بلطائفه المرتجاة، والسلام عليكم من حبيبكم المودع، والله سبحانه يلامه حيث شاء من شمل متصدع، والدكم محمد بن عبدالله بن الخطيب، ورحمة الله وبركاته.

مناسبة الوصية:

يبدو أن لسان الدين بن الخطيب، وقد شعرَ بدنو أجله أراد أن يَخُصَّ أبناءه - وهو الناظم النائر - بوصيةٍ تسيّر على نحو لطيف البيان، يُضَمِّنُها خلاصة تجربته، وقد عرّكته الأيام، وخبر منها ما شأن وزان، فكتب إليهم موصياً واعظاً موجهاً مرشداً، مُبَيِّناً لهم أصول السداد، وسبل الرشاد، وهذا واضح في قوله: "فإني لما علاني المشيب بقيمته وقادني الكبر في رمتي، وادكرت الشباب بعد أمته، أسفت لما أضعت، وندمت بعد الفطام على ما رضعت، وتأكد وجوب نصحي لمن لزمني رعيه وتعلق بعيني سعيه، وأملت أن تتعدى إليّ ثمرة استقامته...".

والنص السابق يوضح أنها وصية أب حريص مشفق أراد أن يترك لأولاده خلاصة تجربته. وأولاد لسان الدين بن الخطيب ثلاثة هم: عبدالله ومحمد وعلي.

وقد اكتسبت هذه الوصية أهمية لمضمونها الوعظي ومستواها الفني ثم لأنها واحدة من إبداعات لسان الدين بن الخطيب.

ثانياً: تحليل مضمون الوصية

يستطيع الناظر في وصية لسان الدين بن الخطيب هذه أن يتبين أجزاءً ثلاثة انتظمتها بعامة، وهي مقدمة وعرض وخاتمة، ولعل الأجدى أن نعرض لمضمون هذه الوصية وفقاً للطريقة التي اجتباها صاحبها.

المقدمة:

بدأ لسان الدين وصيته بمقدمة تقليدية، سارت على الخُطى المرسومة في أسس الكتابة العربية التي تفتتح بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله وعلى آله وصحبه الكرام.

وهو إذ بدأ مُقلداً في مقدمته بدأ مُجدداً بأسلوبه الرائق الذي سخر الكلمات وطوّع العبارات لتمهد منذ الكلمات الأولى لغرضه العام.

لقوله: "الحمد لله الذي لا يروعه الحمام المرقوب إذا شيم نجمه المثقوب، ولا يبعثه الأجل المكتوب، ولا يفجؤه الفراق المعتوب... وجاعل النصيحة الصريحة في قسم الوجوب، ولا سيّما للولي المحبوب، والولد المنسوب...".

وهو بهذا يرمي باتجاه هدفه، ويستثمر المساحات الكلامية ليصل إلى غرضه، ولعلّ هذا يعود إلى أنّه يكتب إلى أبنائه لينصح لهم ويعظهم، فلا مكان للإطالة في غير الموضوع الرئيسي ثم لا مجال للمقدمات الطويلة والتمهيد.

فهذا خطاب الوالد إلى ولده حيث لا تكلف ولا تورية على أن هذا لا ينفى جمال الأسلوب وحسن المدخل كما سيأتي.

ولسان الدين بن الخطيب في هذه المقدمة يُصرّح في الكلمات الأولى بغرضه ألا وهو النصيحة؛ إذ قدّم لذلك بيان وجوبها مستشهداً عليه بآيات من القرآن الكريم.

ثم ينتقل لسان الدين من ذلك الخطاب العام إلى خطاب أكثر اختصاصاً، إذ ينتقل إلى الحديث عن تقدمه في السن واستشعاره دنو أجله فباتت الوصية لأقرب المقربين واجبة وغدت النصيحة لازمة وأمسى الوعظ حاجة ملحة، وجاءت الوصية جملاً قصيرة متتابعة لتخبر عن قصر العمر من ناحية، وتتبيّن عن قرب الأجل من ناحية أخرى وكأن لسان الدين ينبه بهذه الجمل إلى قصر الأعمار وقرب لقاء القهار؛ إذ يمهّد إلى أن ما دفعه إلى كتابتها إنما هو وجوبها من ناحية، وقرب أجله من ناحية أخرى، ويعلل لذلك بأن رعايتهم - أي أبنائه - منوطة به، وهو إذ يعظهم يأمل أن تتعدى إليه ثمرة صلاحهم.

ويجنح لسان الدين بعد ذلك إلى الإطالة وتكرار المقالة، مؤكداً علاقته ببنيه وحرصه عليهم وأمله في صلاحهم، وهو ما يُكسب الوصية - مسبقاً - صفة الخطاب العاطفي فهي صادرة من رجل مُسنٍّ و أب حان ومربٍّ عزيزٍ عليه مألهم. وهو يستند إلى قواعد عقلانية تجعل من خطابه مشروعاً فالموت والفرق حق على العالمين "ولا أقلّ للحبيب المودع من وصية محتضر".

وعلى عادة القدماء يمهّد لسان الدين بين يدي وصيته بالدعاء للموصى لهم برضى الله وتوفيقه الأمر الذي يجعل هدفه واضحاً مبدئياً ألا وهو الغرض الديني العام. فهو يربط بين العمل الصالح ودنو الأجل، ويذكر متلقيه بقرب آجالهم، وضرورة التزوّد ليوم المعاد، وهو ما أكسب الوصية طابعاً دينياً ظل يكتنفها من مبدئها إلى منتهاها، وبدا حرص صاحبها جلياً في تقديم الدين على الدنيا من مستهلها إلى ختامها حاثاً ذريته بخبرته وتجربته على التزامها في كافة شؤونهم إن أرادوا الفلاح والنجاح، وهذا بيّن في قوله: "وكأني بشبابكم قد شاخ، وبراحلكم قد أناخ وبناشطكم قد كسل، واستبدل الصاب من العسل، ونصول الشيب تروغ بأسل، لا بل السام من كل حدب قد نسل، والمعاد اللحد ولا تسل، فبالأمس كنتم فراخ حجر، واليوم أبناء عسكر

مَجْر، وغداً شيوخ مضيعة وهَجْر، والقبور فاغرة، والنفوس عن المألوفات صاغرة، والدنيا بأهلها ساخرة، والأولى تعقبها الآخرة".

وهو إذ يقدم لهم وصيته يؤكد أهميتها وما تعود به عليهم من خير وحفظ إن هم التزموها لقوله: "فهي أدبكم الذي لا يتغير وقفه، ولا ينالكم المكروه ما رفاً عليكم سقفه". وهذه دعوة صريحة إلى التمسك بفرائد نوادرها والتزام أوامرها واجتناب زواجرها والاعتصام بحبلها.

على أن لسان الدين أراد لهذه الوصية أن تكون هداية لأولاده الثلاثة وذريتهم من بعدهم أيضاً؛ لذا فهو يوصي بضرورة تناقلها فيما بينهم لقوله: "فاقتنوها من وصية، ومرام في النصح قصية، وخصوا بها أولادكم إذا عقلوا، ليجدوا زادها إذا انتقلوا".

ثم يعود مرة أخرى ليؤكد أهمية وصيته وخالص نصحه لبنيه، وكأنه يرفض الانتقال إلى مضمونه الوعظي قبل أن يتيقن من حصول الاقتناع لدى بنيه بأهمية هذه الوصية، وبصدق غرض الموصي منها وبأنها الطريق إلى نيل الشرف والسعادة في الدين والدنيا لقوله: "ولتلقنوا تلقينا، وتعلموا علماً يقينا، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبي، ويفترش التراب جنبي، ويسح انسكابي، وتهرول عن المصلى ركابي أحرص مني على سعادة إليكم تجلب، أو غاية كمال بسببكم ترتاد وتطلب، حتى لا يكون في الدين والدنيا أورف منكم ظلاً، ولا أشرف محلاً، ولا أغبط نهلاً وعلاً".

ثم يبين لسان الدين دور الموصي له وما يجب عليه تجاه هذه الوصية الناصحة بقوله: "وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولي الأذان، وتستملحوا صُبح نُصحي فقد بان".

المضمون:

افتتح لسان الدين وصيته على عادته بحمد الله والثناء عليه^(١) ثم وشّحها بلوحة غنيّة من الاقتباسات والإشارات إلى بعض الوصايا التي أوصى بها الأنبياء والأتقياء مقتبساً من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فقد اقتبس وصية لقمان الحكيم لابنه، وهي وصية عامة في التوحيد، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر والحض على التواضع وترك الكبر بكل مظاهره ثم انتقل إلى وصية (خليل الله وإسرائيل) لأبنائه بضرورة الالتزام بالشرائع السماوية والتسليم لله.

(١) وهذه عادة لسان الدين في نثره، انظر على سبيل المثال: ريحانة الكتاب، ج٢، ص٤٣٧، ٤٤٧. وج١،

ص٤٥٠، ٤٦٠، ٤٦٥، ٤٧٥ وغيرها.

ثم بدأ لسان الدين يُرسي دعائم عامة توجّه إلى التزام شعائر الإسلام، وكُلّ ما جاء من أمور تستند إلى عقل أو نقل، والعمل بهما معاً واجب، وبدأ من الأساس العام وهو التوحيد لقوله: "فإنّ الله واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، ليس له والد ولا ولد، تنزّه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده الأكوان، خالق الخلق وما يعملون، الذي لا يُسأل عن شيء وهم يُسألون...".

ولسان الدين إذ يبدأ من التوحيد إنما يريد أن ينطلق في بناء وصيته من الأساس الذي إن صلح صلح بصلاحه البنیان، فانطلق من الركنين الأساسيين وهما: كتاب الله وسنة نبيه.

ثم أوصى أولاده بالعمل بوصايا النبي صلى الله عليه وسلم ومحبته وأصحابه منبهاً على ضرورة تقديم أولي الفضل من الصحابة، والبعد عن العصبية في ذلك، ولعله يشير في هذا إلى اختلاف أصحاب الفرق في نظرهم إلى الصحابة رضوان الله عليهم، ثم أوصى بضرورة إجلال الفقهاء والأئمة لأنهم أي العلماء ورثة الأنبياء وحملة كتاب الله تعالى.

وبعد هذا المضمون يعود لسان الدين ليتحدث عن ثقافته العريقة وخبرته العميقة التي جعلته للنصح أهلاً ولثقة محلاً، فقد نال من كل علم حظاً ونهل من كل فن قسطاً، وكلما حلق حظ حيث انطلق في ربوع كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهما المقصد والغاية، والمبتداً والنهاية، وضمانة الفلاح والنجاح.

ولسان الدين يُلح على أهمية وصيته في غير موضع منها فهو يؤكد أهمية الوصية ويؤكد أنها الإرث الثمين الذي يرثه الأبناء عن الآباء لقوله: "ومتاع الحياة الدنيا أخسّ ما ورث الأولاد عن الوالدين".

ثم ينتقل مرة أخرى إلى الوعظ فيستأنف محذراً من اقتراف المهلكات من الذنوب التي تستدعي النار عقاباً؛ فالدنيا متاع زائل، وهي دار غرور. والرايح فيها من التزم عقيدة الإيمان، وهو بعد أن حذر بنيه من الحرام البيّن حذرهم من الوقوع في الشبهات. وأوصاهم مكرراً ومؤكداً ضرورة التمسك بكتاب الله فصلاح الدين هو الصلاح، وفساده يفسد ما سواه إذ هو بمثابة الرأس من الجسد ولا قيمة للجسد إذا انفصل عنه الرأس.

وهو إذ يوصي بالالتزام بكتاب الله يبين لمتلقيه كيفية حمل تعاليمه بأن يتمسكوا به، وأن يتفكروا في معانيه، ويمتثلوا أوامره، ويجتنبوا نواهيه، وألا يتأولوه، ولا يغلو فيه. وأن يشربوا قلوبهم حُبّه وحبّ الرسول الكريم عليه صلوات الله وسلامه إلى يوم الدين.

لينتقل إلى التخصيص في حديثه عن التزام الأوامر واجتناب النواهي منطلقاً من

الفرائض، إذ بدأ بضرورة المحافظة على الصلاة أم العبادة، الناهية عن الفحشاء والمنكر، والواسمة بسمة السلامة، والشاهدة للعبد برفع الملامة، داعياً إلى الصبر على أدائها على أحسن وجه، والقيام بذلك في الوقت المفروض، ثم نوه على أهمية النوافل على أن يكون ذلك كله متقناً كاملاً. ولما كان السياق يستدعي الحديث عن الطهارة في سياق يبسط فيه لسان الدين الحديث في الأمور الدينية مفصلاً شارحاً انتقل إلى الطهارة التي هي شرط لصحة الصلاة، فقد أوصى بضرورة تنظيف الأعضاء ومراعاة النية في ذلك فالبناء بأساسه مبيناً أن الصلاة والطهارة والذكر تستغرق الأوقات فلا يؤديها إلا من ملك زمام نفسه، ولسان الدين إذ يذكر الطهارة هنا يبدو منطقياً في عرض أفكاره التي تأتي منسجمة متناسبة منظمة في أماكنها الواجبة لها.

ثم انتقل إلى الزكاة أخت الصلاة التي بها يشكر العبد ربه على إكرامه له وإنعامه عليه بأن رفعه عن درجة السائلين والمحرومين، فوجبت على العبد الغني حقاً للعبد الفقير، فلا يمنع البخل ولا وسوسة الشيطان العبد من أدائها.

ويأتي بعدها ذكر الصوم حتى يستكمل الموصي أركان الفرائض التي بدأ بذكرها فانقل إلى صيام رمضان مؤكداً صيام الجوارح عن الآثام، ومراعاة القيام، والاجتهاد والتهجد والاعتكاف إن أمكن، فالصيام يكسب الوجوه ضياء ونورا ويجعل للرقعة في النفوس حضوراً ويورث القلوب من قسوة الطباع نفوراً .

ثم انتقل إلى الحج الركن الواجب مع الاستطاعة الذي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره وليس له جزاء عند الله إلا الجنة.

لتحط به الرحال بعد ذلك عند الحديث عن وجوب الجهاد - في سبيل الله تعالى - بالنفس لمن قدر على ذلك فإن عجزوا فعليهم أن يعينوا من يستطيعه وذلك إنما يكون بالمال والقلم.

وبهذا يكون قد أرسى - في أذهان متلقيه - فروض الإسلام، "هذه عمد الإسلام وفروضة، ونقود مهرة وعروضه، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين، وعلى من يناديكم ظاهرين، وتلقوا الله لا مُبدلين ولا مُغيرين، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين".

ثم انتقل من بعد ذلك إلى الدعوة إلى تعلم العلم النافع، وأن يبتغي به وجه الله تعالى ويقصد رضاه، فالعلم مفتاح العمل بما يُرضي الله وهو وسيلة النفوس الشريفة إلى مطالبها على أن يقوم ذلك العلم على خشية الله تعالى، فالعلم هو المغنم الذي لا ينقضي، والعز الذي لا يزول،

وهو إذ يوصي بنيه بالعلم يعي أنهم ربما لا يقدرّون على تحصيله وهم في هذه السن؛ لذا وجّههم إلى التماسه لبنيهم وحضهم - أي أحفاده - على جمع العلم وتدارسه، والسهر على تحصيله.

وهو إذ يحضُّ على طلب العلم بوجهٍ عام يخصص بعد ذلك ليحض على تعلم علوم الشريعة خاصة فهي أسباب إلى الخير، ثم يخصّ من علوم الشريعة تجويد القرآن ثم حفظ الحديث الشريف، ومعرفة صحيحه من سقيمه، ثم أصول الفقه، ثم المسائل المنقولة عن العلماء والتدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة، فإن قصر الساعي دون تلك العلوم فليرو الحديث بعد تجويد الكتاب، وإحكامه ثم ليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه.

ولم يكتف لسان الدين بأن جعل العلوم منازل في الخير؛ إذ جعل من العلوم ما هو شرّ حذر من الإقبال عليه وذمّه، وذكر الأسباب الموجبة للذم، والعلوم المذمومة من وجهة نظره هي العلوم القديمة، والفنون المهجورة الذميمة لأن أكثرها لا يورث صاحبه إلا تشكيكاً وولعا بالجدل، وعلوم الشريعة أحرى بالإقبال عليها.

وهو إذ يذم تلك العلوم يذكر بما حصل لابن رشد من جرّاء إقباله على تلك العلوم لكنه يستدرك على حكمه على تلك العلوم السابقة، ويستثني من ذلك بعض العلوم النافعة من الحساب والمساحة والزراعة والطب. ثم انتقل بعد ذلك ليحضّ متلقيه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم وجههم إلى إطاعة ولي الأمر، والابتعاد عن الفتن. ثم أوصاهم بالتزام الصدق فهو شعار المؤمنين، وحذرهم الكذب الذي هو العورة التي ينكشف خباؤها وإن طال إخفاؤها، وذكر لهم ما أعدّه الله للكذابين.

ثم انتقل ليوصي بالتزام الأمانة، واجتناب الخيانة، وضرورة أداء الأمانات إلى أهلها، وأن يلتمسوا صالح المسلمين في كل أمر هيّن أو عظيم، وألا يبخسوا الناس أشياءهم. وألا يعينوا على سفك الدماء بالإشارة أو بالكلام أو بالكتابة، فسبل التوبة مفتوحة والدروب مفسوحة بين العبد وربّه ما لم يقع في الحرام ويقتل مؤمناً متعمداً.

ثم أوصى باجتنب الزنا وكل ما تعلق به من أخلاق، والاستغناء بما أحلّ الله عما حرّم، والاتعاظ بما أعد الله للزاني من عذاب وبيل.

ثم دعا إلى اجتناب الخمر التي هي أم الكبائر ومفتاح الجرائم.

كما دعا إلى الابتعاد عن الربا لأنه من مناهي الدين منوهاً إلى أهمية الابتعاد عن

المتشابه لأنه يورد المهالك ، إلا عند انعدام وجود نص محكم في ذلك.

وحدّر من الظلم لأنه ممقوت، ولما فيه من مجاهرة بصريح العصيان، وحدّر من النميمة ودعا إلى اطراح الحسد، والابتعاد عن الغيبة والبخل، ثم دعا إلى الابتعاد عن كل ما يشين "وإياكم وما يعتذر منه فمواقع الخزي لا تستقال عثراتها، ومظنات الفضائح لا تؤمن عمراتها...".

ثم حضّ على إفشاء السلام، والعطف على ذوي العاهات، والحرص على الصدق، وضرورة التوكل على الله عزّوجل ، وإطعام المساكين ورعاية حقوق الجار، وصلة الرحم، والابتعاد عن شهادة الزور والرّشا ولعب الميسر، وعدم مخالطة أهل البطالة، والالتزام بالمواعيد، وصون الأيمان من الحنث.

وأن يراعوا أعمالهم ناظرين إلى عواقبها فانه تعالى بالمرصاد، وأنّ الدنيا لا تدوم فلا بدّ من الصبر على الأذى، وحوادث الأيام والمرض، ولا بدّ من انتظار الفرج، والتضرع إلى الله تعالى بالدعاء، واللجوء إليه في البأساء والضراء، ومقابلة أنعمه بالشكر.

ثم أوصى بنيه بأمور تنظم علاقتهم، وتحفظ بينهم المودة؛ إذ أوصاهم بألا ينسوا الفضل بينهم، وأن يلتزموا الإخلاص فيما بينهم وأن يبروا بعضهم في السر و العلانية ، وأن يتناصروا ويتعاضدوا ويتزاوروا فيقهروا بذلك أعداءهم ويظهروا عليهم، وألا يتنافسوا في أمور الدنيا، وألا يفسدوا المعروف بينهم بالمن والأذى، وألا يطيعوا نساءهم في تنظيم الأمور فيما بينهم فطاعة النساء شرّ ما أفسد بين الإخوان، وأن يستروا القبيح بينهم، ويحقروا ما تستعظمه النساء.

ثم أوصاهم بضرورة التزام وصيّته وبرّ أهله وأصدقائه، ليرشدهم بعد ذلك إلى تنظيم أمور معاشهم فلا يستهلكوا جميع أموالهم في العفار؛ لكيلا يصبحوا عرضة للمذلة والاحتقار، فهم يعيشون في بلد قلق المهاد لا يصلح إلا للجهاد وهذا يدل على اضطراب الأحوال آنذاك في بلاد الأندلس ، فإذا وقع القدر منعهم جمع المال في العقار من الانتقال على أن الله هو الرازق ولكن السعي أولى.

وأوصاهم بالزهد في مصاحبة أهل الدنيا، والصبر على نوائب الدهر، وأن لا يستكثرُوا من الأموال، ويحذروا معادة الرجال ومداخلة العيال، وإفشاء السر. وإن اشتبه على أحد منهم أمر أن يختار أقربيه إلى الحق.

ثم حدّروهم من طلب الولاية والسعي وراء المناصب لأن الولاية امتحان واختبار فإن

ابتلى أحد منهم بها اختياراً، أو أسندت إليه إكراهاً أو إجباراً ، فليتلقها بالصبر وسعة الصدر، فهي زائلة وليس لها دوام ، وفتنة تزل بها الأقدام .

الخاتمة:

ختم لسان الدين وصيته بالدعاء لئبنيه بأن ينير الله بصائرهم ويجعلهم من الصالحين الذين ينفع الله بهم وبدعائهم أباهم، وأن يجعلهم سبباً في اتصال أعماله بعد انتقاله ، واستمرار أجره بعد ارتحاله .

ثم أعاد على مستمعيه أهمية وصيته، وذكرهم بفوائدها، وأنها خلاصة تجربة غنية داعياً إياهم إلى الإقبال عليها، والاهتداء بنورها. فإنما يحصلون سعادة الدنيا والآخرة بقدر ما يمضون من فروعها ويقتنون من مناقبها وإلا يفعلوا فإنهم سيندمون.

ثم أشار إلى أن هذه الوصية وإن وجدوها طويلة غزيرة المقال فإنها تقوم على أساس تقوى الله، وأن الدنيا دار زوال وفناء وثواء وانقضاء ، والكيس من عمل لدار البقاء.

وختم وصيته بتحية الإسلام ، وكانت تحيته مثاراً للغرابة والإعجاب ، فلم يؤد التحية كما ألفتها النفوس بل خرج عن النطاق المألوف والسلام المعروف ليقول : " والسلام عليكم من حبيبكم المودع، والله سبحانه وتعالى يلامه حيث شاء من حبيب متصدع ، والدكم محمد بن عبد الله الخطيب ، ورحمة الله وبركاته " ، وشتان بين تحايا التلاقي والتجميع ، وتحايا التواري والتوديع ، وأي توديع؟؟ إنه وداع الأهل والأحباب والخلان والأصحاب، وداع خاص يتطلب تحية خاصة كلما وقعت عليها النظرات فاضت العيون بالعبرات ، وتذكرت بأن العمر وإن طال منصرم ، والشمل وإن التأم والتحم متصدع منخرم .

ثالثاً: الدراسة الفنية

اللغة

الجملة:

للموضوع تأثير في تشكيل البنية اللغوية للعمل الأدبي على نحو معين؛ إذ يستدعي استعمال كلمات ذات طابع خاص، ويقضي خَلْقَ مجاورات ومحاورات بين الألفاظ^(١)، ولعل هذا ما تكشف عنه اختيارات لسان الدين اللغوية، إذ يقع اختياره على الجملة الفعلية لتؤدي معاني الوصية وتنهض بمضمونها، فقد استخدم خمسمئة وسبعة وعشرين فعلاً تراوحت بين الماضي والمضارع والأمر، وهو ما وضع الوصية في جَوِّ من الحركة والانفعال فأكسبها بذلك أبعاداً عاطفية أكثر.

ثم إنَّ لسان الدين إذ يختار الجملة الفعلية يركز على الجملة الشرطية، وهو اختيار منسجم مع الغرض العام الذي يقدم نصيحة بالترامها وتحققها يتحقق الخير لصاحبها فإن لم يتحقق الشرط تعدّر تحقق الجواب؛ فقد استخدم سبعة وثلاثين جملة شرطية، وهو الأمر الذي يستحوذ على أذهان المتلقين الذين حُفَروا واستنُفِرت عقولهم بإثارة الشرط لتلقي الجواب ومن أمثلة ذلك:

- مَنْ رزق منكم مالاً بهذا الوطن القلق المهاد، الذي لا يصلح لغير الجهاد، فلا يستهلكه أجمع في العقار.
- وَمَنْ امْتَحَنَ بها منكم اختياراً، أو أُجبر عليها إكراهاً وإيثاراً، فليتلقَ وظائفها بسعة صدره.
- ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق.

ثمَّ إنَّ البنية الفعلية في الوصية تتراوح بين الأمر والنهي غالباً؛ إذ نفع على تسعة وتسعين فعلاً أمرياً، وأربعة وثلاثين فعلاً مسبقاً بنهي.

وهذا كله يَصْبُ في صالح المضمون الوعظي المتأرجح بين "افعل ولا تفعل" وهذا يضع

(١) انظر: عدنان حسين قاسم، الاتجاه الأسلوبى البنيوي في نقد الشعر العربي، مؤسسة علوم القرآن بعجمان

ودار ابن كثير بدمشق، ط١، ١٩٩٢، ص١٥٨.

المتلقي في جوٍّ عامٍ يحُضُّ على امتثال الأوامر، واجتتاب النواهي، ولعل هذا أدعى إلى الاتعاظ وتلبية ما يدعوهم إليه والدهم.

الثنائيات اللغوية:

لمّا كان من النادر أن تُترجم واقعة ذهنية برمز واحد^(١)، فإن لسان الدين لم يكتف بهذا التنوع الغني على مستوى الجملة الفعلية؛ فقد حشد طاقات لغوية تتكئ على المفرد أيضاً؛ إذ نقع على اثنتين وخمسين مفردة متضادة في المعنى من مثل:

المعروف - المنكر.

صحيح - سقيم.

الآخرة - الدنيا.

السر - الجهر.

الخير - الشر.

محرم - حلال.

سهل - حزن.

الأمانة - الخيانة.

وغيرها، وهو أمر تقتضيه طبيعة المضمون الذي يأمر ببعض الأفعال فيحجب المتلقي إليها ويرغبه فيها عن طريق ذكر مزاياها وعواقبها المحمودة، وفي المقابل يُنقِر من مخالفتها ومن اقتراف ما يغيبرها من الأفعال فيبغضها إلى المتلقي، ويُنقِر منها عن طريق ذكر مساوئها وعواقبها الوخيمة، وعليه فإن صاحب الوصية لا بُدَّ سيختار ألفاظاً وتراكيب من الوجهين: المرغوب فيه والمرغوب عنه وهذا سيقضي الانزياح إلى الثنائيات اللغوية.

كما أنّ هذا منسجم مع أسلوب لسان الدين في نثره بعامّة إذ لجأ لسان الدين إلى استخدام المحسنات البديعية في كتاباته ولا سيّما الطباق منها وهذه الوصية شاهد حيٌّ على هذا.

(١) انظر: شارلي بالي، علم الأسلوب وعلم اللغة العام، في: شكري عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، دار

التكرار:

صَرَّحَ لسان الدين بن الخطيب بهدفه الوعظي غير مرة في مقدمة وثنايا الوصية فهو يورد الكلمة (وصية) وجذرها اللغوي ثماني مرات في ثنايا الوصية.

والجذر اللغوي (نصح) ثماني مرات أيضاً، ويستخدم الفعل (وعظ) أيضاً.

وهو إذ يقدم هذا المضمون الوعظي بوجهه وجهة دينية صرفة - كما اتضح - لذا فهو يكرر استخدام لفظ الجلالة (الله) اثنتين وستين مرة. الأمر الذي ينسجم مع هدفه، وهو ربط الحياة الدنيا بالآخرة، وهو الذي يدفع إلى إدراك الغاية الأسمى، وهي تحقيق مرضاة الله سبحانه وتعالى.

فلسان الدين إذ يكرر ذلك إنما يُلح على هدفه حتى يبلغ به درجة الرسوخ في أذهان المتلقين. لا غرو وهي وصية أب ناصح ينشد لأولاده الفلاح في الدنيا والآخرة. ولا يخفى ما للتكرار من تأثير على نفوس المتلقين.

التلخيص:

القرآن الكريم:

جعل لسان الدين من وصيته لوحة فنية تستأنس بالموروث الثقافي العام، فهو يقتبس من القرآن الكريم ما يُعَضِّد به مبدأ الوصية العام، ومن ذلك أنه استشهد بقوله تعالى:

"أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب"^(١).

وقوله تعالى: "ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب"^(٢).

وقوله تعالى: "وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه: يا بني لا تُشرك بالله إنَّ الشرك لظلمٌ عظيم"، يا بُنيَّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنَّ ذلك من عزم الأمور ولا تُصعِّرْ خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إنَّ الله لا يُحبُّ كلَّ مختالٍ فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك إنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير"^(٣).

(١) البقرة، ١٣٣.

(٢) البقرة، ١٣٢.

(٣) لقمان، ١٣-١٩.

وقوله تعالى: "يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون"^(١).

وقوله تعالى: "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير"^(٢).

وقوله تعالى: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب"^(٣).

وقوله تعالى: "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين"^(٤).

وقوله تعالى: "ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً"^(٥).

وقوله تعالى: "ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً"^(٦).

وقوله تعالى: "وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين"^(٧).

وقوله تعالى: "فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله"^(٨).

وهو إذ يقتبس - فيما مضى عرضه - النص القرآني بلفظه فإنه في عموم الوصية يقتبس النص بمضمونه ومحتواه، إذ يصدر فيها عن معان إسلامية سعياً وراء مرضاة الله وقد ابتداءً وصيته بتلخيص محتواها وتوجيهها نحو هدفها الذي هو حضّ أبنائه على التزام جادة الشريعة الإسلامية.

والتزاماً بهذا الهدف وصدوراً عن تلك الغاية يقتبس نصوصاً من القرآن الكريم باللفظ تارةً، وبالمعنى تارةً أخرى، ومن ذلك قوله: "فإنه واحد أحد، فرد صمد، ليس له والد ولا ولد تنزه عن الزمان والمكان، وسبق وجوده وجود الأكوان" ناقلاً مضمون سورة الإخلاص.

ومنه قوله في الحضّ على الصلاة "... والناهية عن الفحشاء والمنكر..." في إشارة إلى قوله تعالى "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي".

(١) البقرة، ١٣٢.

(٢) الشورى، ١١.

(٣) الزمر، ٩.

(٤) آل عمران، ٨٥.

(٥) النساء، ٩٣.

(٦) الإسراء، ٣٢.

(٧) البقرة، ٢٧٨.

(٨) البقرة، ٢٧٩.

الحديث النبوي الشريف:

ويقتبس لسان الدين نصوصاً من الأحاديث النبوية الشريفة، وهذا أمر منسجم مع غرضه ومتناغم مع سياق الوصية الوعظي العام؛ فالأحاديث النبوية هي المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله، وهو يفتح اقتباساته من الأحاديث النبوية بقوله صلى الله عليه وسلم: "تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه"^(١) وهو إذ يورد هذا الحديث يأتي به في سياق الحز على التمسك بأعمدة الشريعة القرآن الكريم والسنة النبوية لينطلق بعد ذلك إلى سلسلة من الاقتباسات مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "لا يدخل الجنة قتات"^(٢) وقوله: "يا عائشة، أحسني جوار نعم الله، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم"^(٣).

وهو إذ يذكر الحديث النبوي بلفظه في المواقع السالفة الذكر يشير إليه في مواضع أخرى كقوله: "والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد في الصحاح الحسان".

ومن ذلك قوله في الحج: "وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فرض عن ربه وسنّه، وقال ليس له جزاء عند الله إلا الجنة"^(٤).

ومنه قوله في ختام وصيته: "جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه" وذلك في إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له"^(٥).

الموروث الثقافي:

ويضمن لسان الدين وصيته عبارات وإشارات من الموروث الثقافي العام، وهو أمر مألوف في سياق النصح والإرشاد، إذ يلجأ عادة إلى الإفادة من تجارب السابقين والاعتاظ بهم الأمر الذي يُغني المضمون الوعظي، ويكسبه بعداً إضافياً يتكئ على التجريب، ويعرض لنماذج بشرية تركت آثاراً وتناقلت الأجيال أخبارها، فذهب ما حدث لها مثلاً أو ما هو بمثابة المثل، ومن ذلك إيراده لقول الزبّاء حين انتحرت وأبت أن تستسلم لعمر بن عدي "بيدي لا بيد عمرو"

(١) موطأ مالك ٢/٨٩٩.

(٢) صحيح البخاري ٥/٢٢٥٠.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني ٨/٣٨.

(٤) صحيح البخاري ٢/٨٦٤.

(٥) صحيح مسلم، ٣/١٢٥٥.

وهو اقتباس مُوقّق في توجيه المتلقي نحو الحزم واتخاذ نهج قويم في الحياة حتى يفوز ولا يكون من الخاسرين.

ومن هذا استثناسه في الحديث عن تفاضل العلوم، وذم الإقبال على العلوم القديمة والفنون المهجورة بما حدث لابن رشد الفيلسوف، وهو إذ يُذكر بذلك يشير إلى حادثة إحراق كتب ابن رشد وما تعرّض له من اتهام واضطهاد، بسبب إقباله على تلك العلوم وهو أي ابن رشد - قاضي المصر وإمام الشريعة، وهذه إشارة ذكية تثمر ما ابتغاه لسان الدين منها؛ إذ لا أدلّ على خطر تلك العلوم على المقبلين عليها مما حدث مع ابن رشد.

يتضح مما سبق أن لسان الدين بن الخطيب حشدَ النصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية والتجربة الإنسانية العامة من أجل ترسيخ هدفه إلا أنه لم يخصص للشعر نصيباً من ذلك ولعل مضمون ومناسبة الوصية لا يسمحان بهذا؛ إذ هو يقصد إلى الوعظ والإرشاد، وهي وصية والد لأولاده أراد بها أن يوجههم إلى ما ينفعهم، وما فيه صلاح أمرهم، وهو مدرك أنه في سن متقدمة وأنه يغتتم الفرصة من أجل أن يعظهم.

لقوله: "إني مودعكم وإن سالمني الردى، ومفارقكم وإن طال المدى وما عدا مما بدا فكيف وأدوات السفر تجمع ومنادي الرحيل يسمع ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر وعجالة مقتصر ورتيمة تعقد في خنصر ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر...".

ولربما كان الشعر غير ملائم لمثل هذا السياق العام لا سيما وأنه - كما أسلفنا - سياق وعظي يستند إلى الشريعة الإسلامية، وليس أنسب لذلك من إيراد نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية وقد فعل لسان الدين ذلك كما بيّنا.

فهو إذ يُسقط الشعر لا يكون قد انتقص من عناصر الوصية شيئاً فلا يكاد القارئ يستشعر أثر ذلك، إذ لا يتطلب ذلك المضمون ولا المقام، هذا بالإضافة إلى أن لسان الدين بن الخطيب أراد - وهو يوصي أبناءه - أن يكون مباشراً يخاطب عقولهم، وغير خافٍ أبداً أن النثر يخاطب العقول في حين يخاطب الشعر العواطف، كما أن الشعر - في الغالب - يبتعد عن الصراحة والمباشرة إلى الكنايات والاستعارات والمبالغات والخيال، بينما يحتاج الموصي - خاصة وهو مفارق مودع - إلى الصراحة والمباشرة والوضوح ليضمن سلامة الفهم وحسن الاستيعاب، والنثر أقدر على ذلك.

وهذه الوصية - لا ريب - تحمل مضموناً قيماً، ومعاني سامية، وأهدافاً نبيلة، بالإضافة

إلى ما تتمتع به من جمال أسلوب، ورقة عبارة، وحسن جُملة؛ إذ جاءت هذه الوصية قطعة نثرية تمثل ذكاء صاحبها وعظيم خبرته، وقدرته على استشراف الأحداث لا أدلّ على ذلك من شعوره المسبق بزوال دولة الأندلس الذي يظهر جلياً في تحذيره لبنيه من اقتناء العقارات فيها وكأنه يستشعر الخطر قبل وقوعه، وهذا يحمل دلالة واضحة على الأوضاع غير المستقرة التي عاشتها الدولة آنذاك، وعلى سوء أحوال الساسة وتقلب الدول إذ حدّر أبناءه من العمل في السياسة وبيّن أنه أمر غير دائم.

الحق أن هذه الوصية تنطوي على ملاحظ قيمة ولطيفة شديدة التمثيل لعصر كاتبها وغرضه وثقافته. فهي لوحة جميلة تضمنت كثيراً من الاقتباسات والإشارات التي تعكس ثقافة لسان الدين بن الخطيب واطلاعه على العلوم العقلية والنقلية^(١).

(١) انظر في هذا: ابن الأحمر، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، ١٩٦٧، ص ٢٤٢-٢٤٥.

الفصل الثاني
وصية أبي مروان الجزيري الأندلسي الشعرية لأبنائه

أولاً: نص الوصية^(١):

شَحَطَ^(٢) المزارُ فلا مزارَ ونافرت
 عيني الهُجُودَ^(٣) فلا خيالَ يَعْتري^(٤)
 وقصرتُ^(٥) عنهم فاقتصرتُ على جوى^(٦)
 لم يُدعَ بالواني^(٧) ولا بالمُقصرِ^(٨)
 أزرى^(٩) بصبري وهوَ مشدودُ القوى^(١٠)
 وطوى سروري كله وتأنذي
 بالعيش طيَّ صحيفةً لم تُنشر^(١١)
 ها إتما ألقى الحبيبَ توهُماً^(١٢)
 بضمير تذكاري^(١٣) وعَيْنَ تفكُّري
 سدّت سبيلُ الوصلِ وانحلت عُرا
 أسبابه^(١٤) بحلُولِ يومِ أوزور^(١٥)
 تركَ القلوبَ صوادياً^(١٦) يحدو^(١٧) بها
 حادي الردى بين اللّهي^(١٨) والحجَرِ

(١) شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي، تحق: احمد عبد القادر صلاحية، دار المكتبي، ط١، ١٩٩٧، دمشق، ص١٣٢-١٦٥.

(٢) شحط: بَعُد.

(٣) الهجود: النوم.

(٤) يعتري: يأتي إليه.

(٥) قصرت عنهم: مُنعت وكُففت عنهم.

(٦) الجوى: شدة الوجد من عشق أو حزن.

(٧) الواني: الضعيف الفاتر.

(٨) المقصر: المنتهى والمكف عن الأمر.

(٩) أزرى بصبري: هونه وأضعفه وعابه.

(١٠) القوى: الطاقة الواحدة من حبل أو وتر.

(١١) يقال: نشر الكتاب: بسطه، وصحف منشرة، والنشر ضد الطي.

(١٢) التوهم: التخيل والتمثل.

(١٣) التذكار: التذكّر، ذكره: ذكراً وتذكّراً.

(١٤) الأسباب: جمع سبب: الحبل؛ كل ما يتوصّل به إلى غيره.

(١٥) الأوزور: المائل والناظر بمؤخر عينه، والمقصود: يوم شديد.

(١٦) الصوادي: شديد العطس.

(١٧) يحدو بها: يسوقها ويحثها على السير.

(١٨) اللّهي: أقصى الفم، اللّحة المشرفة على الحلق.

فَكَانَ نَغْبَةً ^(١) بَيْنَهَا ^(٢) مَرَجَتَ لَهْ	فِي كَاسِهِ حُمَةً ^(٣) الشُّجَاعِ ^(٤) الأَبْتَرِ ^(٥)
صَفَرَتَ ^(٦) يَدَاهُ كَمَ شَجَا ^(٧) مِنْ طِفْلَةٍ	صَفَرَاءَ تُنْسَبُ فِي بَنَاتِ الأَصْفَرِ ^(٨)
قَدْ قَسَمَ التَّوْدِيْعَ لِحِظِّ جَفَوْنَهَا	قَسَمِينَ بَيْنَ مُعْرَضٍ ^(٩) وَمُعَبَّرٍ ^(١٠)
وَتَرَقَّرَقَتْ ^(١١) عِبْرَاتُهُ فَشَغَلَتْهُ	عَنْ شَغْلِهِ بَسْنَا ^(١٢) الْوَجُوهَ الحُسْرَ ^(١٣)
وَأَرَاهُ عِرْفَانُ ^(١٤) النَّوَى ^(١٥) مِنْ حَسْنَهَا	مَرَأَى مِنْ المَوْتِ الزَّوَامِ ^(١٦) الأَحْمَرِ
أَتَى لَنَا بِالْوَصْلِ إِلا فِي الكَرَى ^(١٧)	لَوْ أَنْ وَصَلَ النُّومَ لَمْ يَتَعَدَّرَ
فَوَصَّالْنَا لَمَا تَعَدَّرَ بِالمَنَى	أَوْ بِالتَّحِيَّةِ فِي مِثَانِي أُسْطَرِ ^(١٨)
وَلرَبِّمَا حَمَلَتْهَا رِيحَ الصَّبَا	وَسْنَا البُرُوقَ المُتَجَدِّاتِ ^(١٩) العُورَ ^(٢٠)

(١) النغبة: الجرعة.

(٢) البين: البعد والفرق.

(٣) الحمة: سم كل ما يلدغ ويلسع.

(٤) الشجاع: الحية، أو الحية الذكر.

(٥) الأبتَر: المقطوع الذنب من أي موضع كان، والأبتَر - أيضاً - حية خبيثة قصيرة الذنب.

(٦) صفرت يدها: خلت، والمقصود الدعاء عليه، يقال: صفرت إناؤه ومرّ طابه: أي خلا من جسمه روحه، أي مات.

(٧) شجا: أحزن.

(٨) بنات الأصفر: بنات الروم، ويقصد زوجه.

(٩) يقال: نظر إليه معارضة وعن عرض وعن عرض عن عرض أي جانب.

(١٠) معبرك مدمع، عبرت عينه: دمت، وعبر به: أراه عبر عينه أي ما يسخنها ويكيها.

(١١) ترقرقت عبراته: جالت دموعه في عينه، أي عن دموعه حجبت عنه وجوه أحبته المشرقة.

(١٢) السنا: الضوء.

(١٣) الحسر: المكشوفة.

(١٤) عرفان: عرفه عرفاناً ومعرفة: علمه، وأدركه بتفكر وتدبر لأمره.

(١٥) النوى: البعد.

(١٦) الزوام: الكريه، أو المجهز.

(١٧) الكرى: النوم.

(١٨) مثنائي أسطر: تضاعفها وطاقاتها، أي بوساطة الرسائل.

(١٩) المنجدات: المرتفعات.

(٢٠) العور: المنخفضات.

فإذا الدُّبُورُ^(١) سرتَ يرجع^(٢) جوابها
سقياً^(٥) لمتواهم^(٦) ومَن يثوي به
يا عابد الرحمن^(٧) - جُنِبَتِ الأسي-
تتقطعُ الصُّعداءُ^(٩) أنفاسي به
أبلغُ عبيدَ الله صِنُوكَ^(١٠) أنني
علقي^(١٢) النفيسُ الخطرُ^(١٣) أفديه من الـ
ومحمداً لله درُّ محمدٍ
وصغيركم عبدَ العزيزِ فإني
ذاك المقدمُ في الفؤادِ وإن غدا

جاءتْ بأعطرَ من دُخان^(٣) المِجْمَرِ^(٤)
ولعهدهم إن كانَ لم يتغيّر
كم من أسيِّ لك في الجوانح^(٨) مضر
وتفيضُ أجفاتي وإن لم أشعرُ
لفراقه كالسَّادرِ^(١١) المتحيّر
خطبِ الملمِّ بكلِّ علقٍ مُخْطِر
زهرٌ تفتَحُ غباً^(١٤) مُزناً^(١٥) مُمطر
أطوي^(١٦) لفرقة جوى^(١٧) لم يصغرُ
كُفواً^(١٨) لكم في المنتمى والعنصر^(١٩)

(١) الدُّبُور: ريحٌ شديدة، سميت في الأصل بذلك لأنها تأتي من دُبُر الكعبة.

(٢) الرجوع: جواب الرسالة.

(٣) الدَّخان: "وتشدد الخاء" جمع أدخنة: ما يتصاعد من النار إذا لم يتم اشتعالها.

(٤) المِجْمَر: العود نفسه، وكذلك ما يوضع فيه العود.

(٥) سقياً: دعاء بالسُّقيا، يقال: سقياً له ورعياً.

(٦) المثوى: المنزل الذي يقام فيه.

(٧) عابد الرحمن: ابنه عبد الرحمن الذي وجّه إليه القصيدة.

(٨) الجوانح: الأضلاع التي تحت الترائب مما يلي الصدر.

(٩) الصعداء: تنفّس ممدود طويل النفس بتوجّع.

(١٠) الصنوك: الأخ الشقيق.

(١١) سدر: تحير من شدة الحرّ أو ما شابهه، وسدر في البلاد: ذهب فيها فلم يثنه شي.

(١٢) العلق: النفيس من كل شيء.

(١٣) الخطر والخطر: ارتفاع القدر والمنزلة.

(١٤) غبّ: بعد.

(١٥) المزن: السحاب ذو الماء أو المضيء.

(١٦) أطوي: أخفي وأكتم.

(١٧) الجوى: شدة الوجد من عشق أو حزن.

(١٨) الكفاء: النظير المساوي.

(١٩) العنصر: الأصل والحسب.

إِنَّ الْبِنَانَ^(١) الْخَمْسَ أَكْفَاءً مَعَا
 وَإِذَا الْفَتَى فَقَدَ الشَّبَابَ سَمَا لَه^(٢)
 وَانْكَرَ بِسِرِّ^(٤) تَحِيَّتِي مَنْ لَمْ أُبْحِ
 مِمَّنْ أَوْدُ لَهُ الرَّدَى^(٥) لَا عَن قَلِي^(٦)
 بِأَبِي الدَّرَارِيِّ^(٧) الْمَنِيرَةَ فِي الدَّجَى
 عَوَّضْتُ مَنْ رَعِي لَهَا وَحَضَانَتِي
 وَجَال قُرْبِي مِنْ مَطَالَعِ زُهْرَهَا^(١٠)
 فِي رَأْسِ أَجْرَدَ^(١٢) شَاهِقِ عَالِي الدُّرَا^(١٣)
 يَأْوِي إِلَيْهِ كُلُّ أَعْوَرَ نَاعِبٍ^(١٥)
 وَيَكَادُ مَنْ يَرْقَى إِلَيْهِ مَرَّةً
 وَتَخَالُ مَعْمُورَ الْمَنَازِلِ حَوْلَهُ

وَالْحَلِيُّ دُونَ جَمِيعِهَا لِلْخُنْصَرِ^(٢)
 حُبُّ الْبِنَانِ وَلَا كَحُبِّ الْأَصْغَرِ
 لَكَ بِاسْمِهِ وَلَعَلَّةً لَمْ يُذَكَّرْ
 وَتَوَدُّ لَوْ أَبْقَى بَقَاءَ الْأَدْهَرِ
 لِلنَّاطِرِينَ وَأَنْتِ مِنْهَا الْمَشْتَرِي
 رَعِي كَوَاكِبَ كُلِّ دَاجٍ^(٨) أَخْضَرَ^(٩)
 حَالَ الْقَصِيِّ الثَّائِلِ^(١١) الْمَسْتَعْبِرِ
 مَا بَعْدَهُ لِمَوْحَدٍ مِنْ مَعْصِرٍ^(١٤)
 وَتَهَبُّ فِيهِ كُلُّ رِيحٍ صَرَّصَرٍ^(١٦)
 فِي عَمْرِهِ يَشْكُو انْقِطَاعَ الْأَبْهَرِ^(١٧)
 ضَيْقًا وَإِظْلَامًا مَلَا حِدَ مَقْبَرٍ^(١٨)

(١) البنان: الأصابع.

(٢) الخنصر: الإصبع الصغرى أو الوسطى.

(٣) سما له: ارتفع حتى ظهر.

(٤) السر من كل شيء: جوفه ولبه، والسر ما يكتم في النفس.

(٥) الردى: الهلاك.

(٦) القلى: البغض وأشد الكراهية.

(٧) الدراري: الكواكب.

(٨) الداجي: الليل الهاديء الساكن.

(٩) الأخضر: الأسود.

(١٠) الزهر: المقصود النجوم الزهر، أي المشرقة البيض المنيرة.

(١١) الثائل: الفاقد الولد.

(١٢) الأجرد: لا نبات فيه، والمقصود الجبل الأجرد.

(١٣) الذروة من الشيء: أعلاه.

(١٤) المعصر: اسم مكان من العصر، أي الملجأ والحرز والمنجاة.

(١٥) الناعب: الغراب، نعب الغراب: صاح وصوت.

(١٦) الصرصر: من الرياح الشديدة البرد جداً.

(١٧) الأبهري: الوريد في العنق، عرق مستبطن الصلب والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة.

(١٨) لحد القبر: حفرة، حفر حفرة مائلة عن الوسط.

كنتم لنفسي جنة فارقتها
 أسقي على فقد المتاع^(١) بحسبها
 الله يعلم أنني - مُدَّ غِيَّيت
 وجيئت صبراً^(٢) بعدها مرّ الجنى
 يا قرة العينين إني كلما
 وطوارق^(٨) الفكر التي عوّضتني
 برح الخفاء^(١١) فما لنفسي حيلة
 يلتاح^(١٢) من تلقاء أفقك لي سناً
 وإن استحالت^(١٤) عندها نفسي دماً

إذ راقَ منها كلُّ غرسٍ مُثْمِر
 وظلالها ونسيمها المُتَعَطِّر
 عن ناظري^(٢) - هجرتُ حُسْنَ المنظر
 ومريت^(٤) سماً درة^(٥) العيش المري^(٦)
 رُمْتُ السُّلُو^(٧) أباهُ شوقي المُعْتَرِي
 من صحتي حالَ السقيم^(٩) المُحْضَر^(١٠)
 في الصبر عنك ولو دنال لم أصبر
 وأريح^(١٣) من ذكراك ريح العنبر
 تهمني^(١٥) به عيني فيخضب^(١٦) محجري^(١٧)

(١) المتاع: ما يستمتع به الإنسان في حوائجه، وكل ما ينتفع به من عروض الدنيا كثيرها وقليلها، ولعل المقصود زوجه.

(٢) الناظران: العينان أو سوادهما اللذان يُبصر بهما.

(٣) الصبر: عصارة شجر مرة، قال الجوهرى: لا يسكن إلا لضرورة.

(٤) مري الناقة: مسح ضرعها لتدر.

(٥) الدرّة: اللبن، سيلان اللبن وكثرته.

(٦) المري: الهني لم يعقبه ضرر.

(٧) السلو: النسيان وترك الذكر.

(٨) الطوارق: جمع طارق، القادم ليلاً.

(٩) السقيم: المريض.

(١٠) المحضر: الذي نزل به الموت.

(١١) برح الخفاء: ظهر بعد خفاء.

(١٢) يلتاح: يظهر، يبين، يبرز.

(١٣) أريح: أجد نسيم الريح.

(١٤) استحالت: تحوّلت، تغيرت.

(١٥) تهمني: تسيل، تصب الدمع.

(١٦) خضب: غير لونه، صبغ.

(١٧) المحجر: ما دار بالعين من العظم في أسفل الجفن.

ويشي^(١) بوجدي أن أرى لك رقعة
 ويمر^(٥) حبلُ صبابتي إن بنثم
 وإذا دننا فطرًا أو أضحي هاجني
 حيرانُ أذهل^(٨) عن إجابة مَنْ دعا
 خرسُ اللسان كأنما مستنطقي
 ما كنتُ ذا عُذرٍ يبينُ لعاذري
 أشكو إلى الرحمن فرقةً شملنا
 يا ليتَ شعري هل لشعب^(١٧) وصالنا
 بل ليتَ شعري هل ثلّبي دعوتي
 لبست بخطك بُرد^(٢) وشي^(٣) عبّري^(٤)
 وطوى سروركُم مرورُ الأعصر^(٦)
 فبعثتني^(٧) أضحي ودمعي مقطري
 باسمي وأوحش^(٩) في الجميع الحضّر
 مستنطقٌ ظللاً^(١٠) بربيع^(١١) مقفر^(١٢)
 لو لم يسمني^(١٣) الشوقُ سيما^(١٤) المعذّر^(١٥)
 حقباً^(١٦) ثلاثاً قد وُصِنَ بأشهر
 من شاعب^(١٨) وليومِهِ من مُبشر
 بإجابةٍ في مجلسٍ أو محضّر^(١٩)

(١) يشي: ينم، يدلّ.

(٢) البرد: ثوب مخطط، أو يخص بالقصب والوشي.

(٣) الوشي: نقش الثوب ونمنمته.

(٤) العبّري: الفاخر من كل شيء، الديباج.

(٥) يمرّ الحبل: يحكم قتله.

(٦) الأعصر: جمع صر، وهو كل مدة ممتدة غير محدودة تحتوي على أمم تتقرض بانقراضهم.

(٧) الغلة: حرارة الحزن والشوق، وشدة العطش وحرارته.

(٨) أذهل: أغفل عنه وأنساه لشغل.

(٩) أوحش: أجد وحشة ولم أجد أنساً.

(١٠) الطلل: الشاخص من آثار الديار.

(١١) الربع: المنزل والدار بعينها.

(١٢) المقفر: الخالي.

(١٣) وسمه: علم عليه بكّي وغيره.

(١٤) السيماء: العلامة التي يعرف بها الشيء، وهي مسهلة الهمزة.

(١٥) أعذر، وأعذر: أشرف على الهلاك.

(١٦) الحقبّة: السنة أو السنون أو مدة لا وقت لها، والمقصود هنا السنة.

(١٧) الشعب: المتفرق، البعد.

(١٨) الشاعب: الجامع، المصلح.

(١٩) المحضّر: المشهد، القوم الحضور.

أو هل أقلبُ ناظري فأراك في
أو هل ألدّد مسمعي بتلاوة
أو هل أجلي^(٥) خاطري بخواطر
أو هل أروحُ عن فؤادي ساعة
عجباً لقلبي يوم راعتنا^(٩) النوى
ما خلتني أبقي خلفك ساعة
إنسان^(١١) عيني إن نظرتُ وساعدي
وإذا شكوتُ إليه شكوى راحة
أربي^(١٥) عليّ فحظّه مما بنا
قد شابَ همّاً في اقتبالِ شبابه^(١٨)

قربي توقدُ كالشهاب^(١) الأزهر^(٢)
من فيك^(٣) تُفصحُ عن لقيط^(٤) الجواهر
لكَ تفتفي^(٦) وهجَ السراج^(٧) النير
بمشمك العذب المشمّ الأذفر^(٨)
ودنا وداعك كيف لم يتفطر
لولا السكون^(١٠) إلى أخيك الأكبر
مهما^(١٢) بطشتُ وصاحبي المستور^(١٣)
ذكرتُهُ فشكا إليّ بأكثر^(١٤)
حظّ المعلّى^(١٦) من قِداح^(١٧) الميسر
إن كنتُ شبتُ مع الشّبابِ المُدبر

(١) الشهاب: شعلة نار ساطعة، والكوكب ينقض بالليل.

(٢) الأزهر: الأبيض المستنير المشرق المتألّيء.

(٣) من فيك: من فمك.

(٤) لقيط: ملتقط.

(٥) أجليّ خاطري: أذهب همّه.

(٦) تفتفي: تتبع، أي خواطر مشرقة مضيئة.

(٧) السراج: المصباح.

(٨) الأذفر: ذكي الرائحة طيب إلى الغاية.

(٩) راعه: أفرعه.

(١٠) السكون: الاستئناس.

(١١) إنسان عيني: ناظرها، يؤبؤها.

(١٢) مهما: حرف من حروف الشرط يُجازى بها.

(١٣) استوزر الشيء: حمّله عبأه.

(١٤) بأكثر، أي بأكثر مما شكوت إليه.

(١٥) أربي عليّ: زاد.

(١٦) المعلّى: سابع قِداح الميسر، له غنم سبعة أنصبه إن فاز، وعليه غرم سبعة إن لم يفز.

(١٧) القِداح: جمع قِدح، وهو السهم إذا قوم وأنى له أن يراش وينصل، وكان العرب في الجاهلية يستقسمون

بها في قمارهم.

(١٨) اقتبال شبابه: أوله، ليس عليه أثر كبير.

أنحى^(١) الزمانُ عليه في حال الصِّبَا
 بغريبة^(٣) نكراء^(٤) من خطرانه^(٥)
 هذا ولما يلتبس^(٧) بخطوبه
 إلا بقول مدافع عن نفسه
 قدرٌ أتيجَ لنا بلغناه معاً
 قد ذقتَ يُتمَّ أباك قبل وفاته
 ورزئت^(١٤) عمرَ أخيكَ فهو لحاله
 فاندبهما^(١٧) حيَّينَ وابكَ عليهما
 ابكِ الغريبين اللذين تبذلاً
 وابكِ الفقيدين^(١٩) اللذين تواريا
 ورمأه من مكروهه^(٢) في أبخر
 بلقاء أشهر من كذاب^(٦) المنبر
 في مورد^(٨) منها ولا في مصدر^(٩)
 فيما جنى باغ^(١٠) علينا مفتر^(١١)
 ومن العسير بلوغ ما لم يُقدر^(١٢)
 إلا تَعْلَةً^(١٣) مُرْتَجٍ مُنْتَظِر
 كالغابر^(١٥) المودي^(١٦) وإن لم يُعبر
 فكلاهما ميتٌ وإن لم يُقبر
 بالدار والأهلين أقصى الأُدور^(١٨)
 عن مُخبرٍ خبراً وعن مُستخبر

(١) أنحى عليه: أقبل عليه وقصده بالمساءة، يقال أنحى عليه ضرباً، وأنحى عليه باللائمة.

(٢) مكروه الزمان: شدائده وما يكره منه.

(٣) بغريبة: بصنع قبيح مستغرب.

(٤) نكراء: المنكرة الشديدة، الداهية.

(٥) خطرانه، يقال: خطر الدهر خطرانه وبخطرانه: ضرب ضربانه وبضربانه.

(٦) الكذاب: مصدر كذب.

(٧) يلتبس بخطوبه: يخالطها.

(٨) المورد: الطريق إلى الماء، ومكان الورود، والمقصود المدخل.

(٩) المصدر: الانصراف عن الورود أي المرجع والمخرج.

(١٠) الباغي: المعتدي الظالم.

(١١) المفترى: الكاذب.

(١٢) يُقدر: يُكتب ويُقسم لنا.

(١٣) التعلّة: ما تعلل به النفس لتقرّ وتهذأ.

(١٤) رزء: أصابته مصيبة.

(١٥) الغابر: الذاهب الماضي.

(١٦) المودي: الهالك.

(١٧) الندب: للميت: وهو بكاء على الميت وتعداد لمحاسنه وذكره.

(١٨) الأُدور والأُدور: جمع دار.

(١٩) الفقيدان: المفقودان.

وابك الشَّجيين^(١) اللذين طوتهمَا
 الواردين^(٢) لها مواردَ كلما
 طال العناءُ وجدَّ^(٥) بالنفسِ الأسي
 وأخافُ فاجئةَ المنون^(٧) فإن تكن
 إنَّ الحمام^(٩) لمنهل^(١٠) ما دونهُ
 فعليك تقوى الله فالزمها تفرُّزُ
 وصراطه فاتبع مناهجَ سُبُلِهِ
 واعمل بطاعته تنل منه الرضا
 واجعل إمامك وحيه الهادي وخذ
 فهو الشفاء لما تكن^(١٣) صدورنا
 واعلم بأنَّ العلمَ أرفعُ رتبةً
 فاسلك سبيل المقتنين له تسدُّ
 والعالم المدعوَّ حبراً^(١٦) إنما

حالُ الفراقِ على الجحيمِ المُسعر^(٢)
 دعوا إلى إصدارها^(٤) لم تصدُر
 مدَّ جدَّ بي سقمي^(٦) وطال تنظُّري
 فاقن^(٨) العزاءَ-فدتكَ نفسي-واصبر
 لممتّع بالعيش من متأخِر
 وحدودهُ حافظٌ عليها تُوجر
 وستوره فاشدد عراها تُستر
 والقرب في دار السلام وثُخِّبر^(١١)
 من علمٍ مُحكمِهِ^(١٢) بحظٍّ أوفر
 وهُوَ الهدى والتَّكْرُّ للمُنْكَرِ
 وأجلُّ مُكتسبٍ وأسنى^(١٤) مقخَّر
 إنَّ السيادةَ تُقْتنى^(١٥) بالدقتر
 سمَّاهُ باسم الحبر حملُ المَحْبِر

(١) الشجيان: الحزينان، المشتاقان.

(٢) المسعر: الموقد المهيج.

(٣) ورد الماء: حضره ليشرب وأشرف عليه.

(٤) صدر: رجع، انصرف عن الشرب.

(٥) جدَّ الأمر: اشتدَّ.

(٦) السقم: المرض.

(٧) فاجئة المنون: الموت بغتة من غير تقدم سبب.

(٨) اقن العزاء: احتفظ به وتعزَّ.

(٩) الحمام: قضاء الموت وقدره.

(١٠) المنهل: المشرب.

(١١) ثُخِّبر: نُسرَّ.

(١٢) المحكم: الذي لا تعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى.

(١٣) تكن: تستر وتخفي.

(١٤) أسنى: أكثر رفعة ومجداً.

(١٥) تُقْتنى: تكتسب.

(١٦) الحبر والحبر: العالم العلامة.

تسمو^(١) إلى ذي العلم أبصارُ الورى
 وبضمّر الأقدام يبلغ أهلها
 والعلم ليس بنافع أرباب^(٤)
 فاعمل بعلمك تُوف^(٦) نفسك وزنها
 سيان^(٧) عندي علم من لم يستفد
 واستنّ بالسُنن التي ثبتت بها
 صلى الإله عليه ما صدع الدجى
 وارفص حديثات الأمور فإنها
 لا تخرجنّ عن الجماعة^(١٠) إنها
 واسمع^(١١) لوصفي جملة من عقدها
 هي حد ما بين الضلالة والهدى
 جاهد وصل مع الأئمة كلهم
 واصبر وإن جاروا فريّة^(١٤) فتنة

وتغضُّ عن ذي الجهل لا بل تزدري^(٢)
 ما ليس يبلغ بالجياد الضمّر^(٣)
 ما لم يفد عملاً وحسن تبصر^(٥)
 لا ترض بالتضييع وزن المخسر
 عملاً به وصلاة من لم يطهر
 صُحف الرواة عن البشير المنذر^(٨)
 فجر^(٩) وعرفنا به في المحشر
 يدع تضل كل قلب مبصر
 تاتم بالحق الجلي الأور
 إن تلق معناها بفهم تمهر
 في ديننا والعرف^(١٢) دون المنكر
 واسمع لهم ولأمر كل مؤمر^(١٣)
 تهتجها^(١٥) أنكاد^(١٦) جور الجور

(١) تسمو: ترتفع وتعلو.

(٢) تزدري تعيب وتحقر وتعنف.

(٣) ضمير الفرس: هزل ولحق بطنه.

(٤) أرباب العلم: أصحابه.

(٥) تبصر: تأمل وتبين ما يأتيه من خير أو شر.

(٦) توفي: تبلغ تمام الكيل.

(٧) سيان: مثلاً لا فرق بينهما.

(٨) البشير المنذر: من أسماء رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

(٩) صدع الفجر الدجى: شق ظلمته وأشرق.

(١٠) قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات، إلا مات ميتة جاهلية" صحيح البخاري - ٦٦٤٦ [٢٥٨٨/٦].

(١١) يقال: سمعه وسمع له وإليه: أصغى إليه.

(١٢) العرف: المعروف المستحسن من الأفعال.

(١٣) مؤمر: من جعل أميراً ووالياً عليك.

(١٤) ربة: ربّ. حرف جر خافض لا يقع إلا على نكرة وتكون للتقليل وللتكثير، وتلحقها التاء.

(١٥) اهتاج: أثار وحرك وهيج.

(١٦) الأنكاد: جمع نكد، ورجل نكد: مشؤوم عسر لئيم.

وارضَ القضاءَ ودين^(١) بصرفيه^(٢) معاً
 وإذا عراكَ الخيرِ فاشكر وانشر
 واجعل لوجه الله سعيك خالصاً
 من كان يجعلُ في نوافلِ برِّه
 وحقيقةَ الإيمانِ قولٌ يقتضي
 ويزيدُ بالأعمالِ وهوَ بنقاصِها
 والوحيِ أجمعهُ كلامُ الله لا
 والله يبدو في الجنانِ لأهلها
 من غير أن يُحصوا حقيقةَ كُنْهه^(٤)
 والحوضُ حقٌّ والشفاعةُ مثله
 وكذلك الميزان يوضعُ قائماً
 ولكلِّ ميتٍ فتنةٌ في قبره
 ويثبتُ الله التقاةَ إذا همُ
 وذوو الكبائرِ في مشيئةِ ربهم

لأولِ العاليِ الصفاتِ الآخرِ
 وإذا عراكَ الشرِّ فاصبرِ وابشر
 يُذخر لك الحظَّ الجزيلُ ويثمر
 وفروضه لله شركاً يخسر
 عملاً ونيةً خائفٍ مستشعرِ
 في حالِ نقصِ فاستدمها واذخر
 خلقٌ كما زعمَ الغوي^(٣) المفتري
 فيرونه رأياً العيانِ المظهرِ
 أو يُدركوا حدَّ الرواءِ^(٥) المُبصرِ
 لا يُشكلان على امرئٍ لا يمتري^(٦)
 بالقسطِ^(٧) والزلفى^(٨) لمن لم يخسر
 يلقي نكيراً عندها مع منكر^(٩)
 وردوا السؤالَ بقولِ حقِّ مُصدرِ
 إما يعتبهم وإما^(١٠) يغفر

(١) دين: أذعن، أطع.

(٢) صروف الدهر: نوائبه وحدثانه.

(٣) الغوي: الضال المنهك في الباطل.

(٤) الكنه: حقيقة الشيء وجوهره.

(٥) الرواء: المنظر الحسن.

(٦) يمتري: يشك.

(٧) القسطك العدل.

(٨) الزلفى: القرية والدرجة والمنزلة.

(٩) منكر ونكير: اسما ملكين وهما فتانا القبور.

(١٠) الجزم ضرورة لحركة الروي، لأن إما أداة شرط غير جازمة.

فأشهد جنازهم ولا تقنطهم^(١) وتول^(٢) أصحاب النبي وآله وامنحهم محض^(٣) الوداد وقدم الـ ويليهما عثمان ثم عليّ الـ خلفاء صدق وطدوا دين الهدى والستة الأعلام من شركائهم واذكرهم بالسبق واشهد فيهم وارغب بسمعك عن أفيكة^(١٠) من روى واذكر سواهم بالجميل ولا تكن فجميعهم للبرّ أهلّ والثقى ودع المراء^(١٤) فإنه داءٌ - بلى وأشدّه في الدين بل هو عندهم ثم اقض حقّ الوالدين وقم بما

وكذاك لا تُوجب لمن لم يكفر وأذع محاسنهم جميعاً وانشر عُمرين^(٤) في كلّ الفضائل وابدُر^(٥) بطل المسوم^(٦) في الحروب الشّمري^(٧) وأروا معالمه عيون النّظر نحرأ^(٨) في اليوم الأغر^(٩) الأشهر ولهم بما شهد الرسول وأخبر سفكوا الدماء على الثريد^(١١) الأعفر^(١٢) بمقدّم فيهم ولا بمؤخر قمن^(١٣) بها وبكلّ صالحه حري متقارضيه - ذو ضمير مؤغر^(١٥) كُفر فإن ما ريت فيه تكفر فرض الكتاب عليك منه وابدُر

(١) تقنطهم: تئنسهم. ومن المعروف أن الصلاة على الجنائز إحدى حقوق المسلم على المسلم.

(٢) تولّ: الزم واتبع.

(٣) المحض: الخالص من كل شيء مادة ومعنى.

(٤) العمران: أبو بكر الصديق وعمر الفاروق، رضي الله عنهما وأرضاهما.

(٥) أبرد: أسرع وأسبق.

(٦) المسوم: المعلم بعلامة يعرف بها.

(٧) الشّمري: الحاد النحرير، الماضي في الأمور والحوائج.

(٨) نحرأ: من نحر الإبل؛ أي: كرماء.

(٩) اليوم الأغر: الشديد الحر.

(١٠) الأفيكة: الكذبة العظيمة.

(١١) الثريد: طعام، وهو ما يهشم من الخبز ويبل بماء القدر والأمرق.

(١٢) الأعفر: الثريد المبيض، والرمل الأحمر.

(١٣) قمن: حري، جدير.

(١٤) المراء: الجدال والاعتراض على مذهب الشك والريبة.

(١٥) وعر صدره عليّ: امتلاً حقداً وغيظاً.

أوسعهما برّاً ولا تنهرهما
واخفيض جناحك رحمة لكليهما
ولكل ذي رحمة وقربى حُرمة
وارغب بنفسك أن تُعاشرَ غير من
إنّ التعاشُر في الأنام تشاكل^(٢)
واستصحب الورع النزية وجانب الـ
وإذا دُفعت إلى قرين^(٥) فابله^(٦)
لا يستفزك^(٩) منظرٌ حسنٌ بدا
فالماءُ توردهُ الدلاءُ^(١٠) صفاؤه
والسيفُ يُكسبهُ البهاءُ^(١٢) حلاوة
كم من أخ يلقاك منه ظاهراً
واشرح لكل مَلَمّة^(١٥) صدرأ وخُذ
واستصحب البرّ التقى وشاور الـ

وامنحهما قولاً كريماً واشكر
تمهد لنفسك^(١) إن فعلت وتذخر
ولكل جارٍ فارعهما وتذكر
كرمت مذهب نفسه في المعشر
ولذاك يلقى الجبن في النطف^(٣) الثري
طبع^(٤) السفية بكل حال واهجر
قبل التفاوض^(٧) والتشارك واخبر^(٨)
حتى تقابله بحُسن المخبر
ومذاقهُ للأجن^(١١) المتغيّر
وفعالهُ للعاضد^(١٣) المتأخر
بادِ سلامته وباطنه وري^(١٤)
بالحزم في بهم الأمور^(١٦) وشمّر
فطنَ الذكي تَكن ربيع^(١٧) المتجر

- (١) تمهد لنفسك: تجعل لها مكاناً وطيباً سهلاً، والمقصود أنك ببرك لوالديك تبرك أبنائك. قال تعالى: "واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً" الإسراء: ٢٤.
- (٢) التشاكل: التوافق والتشابه.
- (٣) النطف: الرجل المتهم المريب، ونطف الرجل: بشم من أكل ونحوهن وفسد.
- (٤) الطبع: شديد الطمع لا يفهم لشدة طمعه.
- (٥) القرين: المثل في السن، والمصاحب.
- (٦) ابله: اختبره.
- (٧) التفاوض: المشاركة في كل شيء.
- (٨) اخبر: جرب واعرفه على حقيقته.
- (٩) استفزه: ختله حتى ألقاه في مهلكة.
- (١٠) الدلاء: جمع دلو، وهو وعاء من جلد أو خشب أو حديد، يستقى به من البئر.
- (١١) الأجن: المتغير الرائحة والطعم واللون.
- (١٢) البهاء: المنظر الحسن الرائع المالىء للعين.
- (١٣) العاضدك المصاب في عضده.
- (١٤) وري الزند: اتقدت ناره.
- (١٥) الملمّة: النازلة الشديدة من نوازل الدهر وشدائده.
- (١٦) بهم الأمور: المشكلات من الأمور والمعضلات لا يتجه إليها.
- (١٧) الربيع: الرباح.

وإذا أتيت ندي^(١) قوم فالقهم
واخزن لسانك واحترس من لفظه
واصفح عن العوراء^(٢) إن قيلت وعد
وكل^(٤) المسيء إلى إساءته ولا
كفك^(٥) من شرّ سماعك خبره^(٦)
وادفع بكظم الغيظ آفة غيّه
واخفض كلامك وامش هوناً والق من
وتجنب الخيلاء^(٩) إن نبينا
واصدق حديثك كل من حدثته
واكفل بوعدك وارع كل أمانة
واحفظ يمينك واطو سرّك رغبة^(١٤)
واحفل بشأنك إن فيه شاغلاً
لا تشعرن لعيب من لابسته^(١٥)

باسم السلام ورد بحلم واصذر
واحذر بوادر^(٢) غيّه ثم احذر
بالحلم منك على السفيفه المعور
تتعقب الباغي ببغي تُنصر
وكفك من خير قبول المُخبر
فإن استخفك مرة فاستغفر
لاقيت طلقاً^(٧) لا بخد أصعر^(٨)
كره المخيلة وهي فضل^(١٠) المنزر
واصدع^(١١) بحق في قضائك تُشكر
واختر لعهدك خطة^(١٢) الوافي السري^(١٣)
واكتم حفاظاً سرّ غيرك واسئر
لك عن سواه فاتعظ وتبصر
فتذيعه ولعيب نفسك فاشعر

(١) الندي: مجلس القوم ومتحدثهم ما داموا فيه، أو مجلسهم نهراً.

(٢) البوادر: ما يعجل من حدّه في الغضب قولاً أو فعلاً.

(٣) العوراء: الكلمة القبيحة

(٤) كل: دع.

(٥) كفك: حسبك.

(٦) الخبر: العلم بالشيء ومعرفته على حقيقته.

(٧) الطلق: السماح.

(٨) الأصعر: الذي يميل خده عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر وكأنه معرض. قال تعالى: "ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك واغضض من صوتك" لقمان: ١٨-١٩.

(٩) الخيلاء: الكبر.

(١٠) الفضل: الزيادة، أي تطويل المنزر.

(١١) اصدع بحق: اجهر

(١٢) الخطة: الطريقة، المقصد.

(١٣) السري: ذي المروءة والشرف.

(١٤) رغبة: تحفظاً، تخوفاً.

(١٥) لابسته: خالطته وعرفت دخلته.

كم عائب قد عاب ظاهراً خلة^(١) ومن العجائب والعجائب جمّة
وابذل لملتمس القرى^(٢) ازكى القرى
وإذا سئلت فجد وإن قلّ الجدا^(٣)
واشكر لمن أولاك برأ^(٤) إنه
وكذلك الدين النصيحة فابغها
لا ترضين لمسلم غير الذي
لا تُفنين متجسّساً ذا غيبة
لا تظلمن أحداً ولا تُضمر له
لا تشمتن بمن رأيت بجسمه
ولكل حيّ مدة فإذا انقضت
فاعمل لذك اليوم إنك ميّت
ما دُمت في مهل، وأعمال التقى
وارغب عن الدنيا فإن وراءها
دارُ التقلب والتغيير إن ترح

أمثالها فيه وإن لم تظهر
أن يلهج^(٥) الأعمى بعيب الأعور
وتلقّ مقدمه بوجهه مُسفر
جهدُ المُقلّ إزاء^(٦) وُجد^(٧) المكثّر
حقّ عليك فلا تكن بالمتري
للمسلمين وللأمة تُوجر
ترضى لنفسك إن يغيب أو يحضر
متظنناً^(٨) يقضي بما لم يخبر^(٩)
حسداً فتحشر في الفريق الأخر
أو حاله بلوى ولا تتسخر
بدنو يوم حمامه^(١٠) لم يُنظر
قبل المضي إلى المميت المُنشر
لك بالحياة مُباحة^(١١) لم تُحجر
يوماً ثقيلاً ذا غفار^(١٢) مُصغر^(١٣)
بمسرة أو نعمة لم تبكر^(١٤)

(١) الخلة: الخصلة.

(٢) يلهج: يغرى به ويولع ويثابر عليه.

(٣) القرى: إضافة الضيوف.

(٤) الجدا، والجدى: العطية.

(٥) إزاءك ظرف زمان بمعنى حذاء.

(٦) الوجد: الوسع والطاقة.

(٧) أولاك برأ: أسداه إليك ابتداء من غير مكافأة.

(٨) المتظنن: الشاك المتهم

(٩) يخبر: يختبر ويجرب. قال تعالى: "ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً". الحجرات.

(١٠) الحمام: قضاء الموت وقدره.

(١١) مباحة: مسموحة مطلقاً غير محظورة.

(١٢) الغفار: ميسم يكون على الخد.

(١٣) مصغر: مذل.

(١٤) لم تبكر: لم تسرع.

تأملها غرر^(١) وصفو نعيمها
 إي^(٢) والذي تعلق اللغات بذكره
 فلاي أهليها صفت أو أيهم
 حصل بعقلك كم لها في طرفة^(٤)
 يا ربّ عالي القدر ممنوع الحمى
 بكرت عليه صروفها^(٩) في أهبة^(١٠)
 فأحنه وحططن ثروة عزه
 ومترف^(١٢) جذلان يعبق ربحه
 تركته أشعث^(١٥) ساغباً ذا عيلة^(١٦)
 قل للذي يغتر من زهراتها
 قد أنذرتك بحكمها فيمن خلا
 والرزق أقساماً فلا تضمن^(٢١) له
 ليس الحريص بزائد في رزقه
 كدر ومؤثرها عم لم يبصر
 بمنى وفي عرفاتها والمشعر
 لم يُخترم^(٣) وبأيهم لم تغدر
 من مقصد^(٥) أو مثبت^(٦) أو مشعر^(٧)
 متخيل متشاوس^(٨) متجبر
 وسرت إليه خطوبها في عسكر
 وكسونه ثوب الذليل المصغر^(١١)
 طيباً ويرفل^(١٣) في النسيج التستري^(١٤)
 حيران في حال الفقير الموقر^(١٧)
 بسراب قاع^(١٨) خادع للمهجر^(١٩)
 أمثالهُ فاتظر لنفسك أو ذر^(٢٠)
 همأ وقارب^(٢٢) في طلابك تظفر
 فاتمّ حليته هشيمة^(٢٣) إذخر^(٢٤)

(١) الغرور: اسم للتغريب، الخطر.

(٢) إي: حرف جواب مثل نعم. وتخص بالمجيء مع القسم إيجاباً لما سبقه نحو إي والله.

(٣) لم يحترم: لم يمت.

(٤) طرفة العين: إطباق الجفن على الآخر.

(٥) المقصد: المطعون المقتول.

(٦) المثبت: الذي اشتدت به علته فلا يبرح مكانه.

(٧) المشعر: المدمى بطعن.

(٨) المتشاوس: الذي يظهر التيه والنخوة والتكبر.

(٩) صروف الدهر: نوائبه وشدائده.

(١٠) الأهبة: العدة.

(١١) المصغر: الراضي بالذل.

(١٢) المترف: المنعم البطر الذي أطغته النعمة، والجذلان: الفرح.

(١٣) يرفل: يجر ذيله ويركض برجله ويخطر بيده متبخراً.

(١٤) التستري: نسبة إلى بلد من كور الأهواز بخوزستان.

(١٥) الأشعث: المغبر الرأس المنتف الشعر، والساغب: الظامىء.

(١٦) ذو عيلة: ذو فقر.

(١٧) الوقر: الحمل الثقيل، والموقر الذي يتكبد هذا الحمل الثقيل. والوقير: من أبهظه الدين.

(١٨) القاع: أرض مسهلة واسعة مستوية لا حصى ولا حجارة فيها ولا تنبت الشجر، وهي مصب السيل.

(١٩) المهجر: الذي يسير في الهجرة أي في منتصف النهار عند زوال الشمس في شدة الحر.

(٢٠) ذر: اترك.

(٢١) تضمن: تبتلى في جسدك بسببه.

(٢٢) قارب في الأمر: ترك الغلو وقصد السداد واقتصد في الأمر.

(٢٣) الهشيمة: ما يبس من شجر ونحوه.

(٢٤) الإذخر: الحشيش الأخضر.

وليببُّهُم يسعى بحال المُعسر
 مُذ أحكم التقدير كلَّ مُقدِّر
 في كوره^(٤) وَضَحَ النهار الأبهـر^(٥)
 سبقَ القضاءَ بمنعِهِ لم تقدر
 آتاكهُ إتيانَ مُزجى^(٦) مُجبر
 أن يُبتغى من دونهِ لمُدبر
 فطرَ الجميعَ لذي النهى المُتفكر
 لم يعترض^(٨) فيها ولم يستكثر
 شيءً يقاس به السميع المبصر
 واحرص على إيثار دينك تؤثر^(١٠)
 تتمولُ الحمد^(١١) العريضَ وتُعدر
 والعرضُ أولى من يسار الموسر^(١٢)
 واستبق عرضك دونَ وفرك^(١٣) توفّر^(١٤)
 قدرُ الإله الواحد المتكبر
 فزرعَ التقى الموقن المُستبصر

أو ما رأيتَ غبي قوم موسراً^(١)
 قد أوعب^(٢) التكوين كلَّ مكوّن
 وبذاك يُغشي الليلَ أيل^(٣) داجياً
 فلو ابتغيتَ بكلِّ جهدٍ نيلَ ما
 ولو اجتهدتَ لدفع ما يُؤتيكهُ
 تدبيرُ مقتدرٍ تعالي قدرهُ
 ودليلُ حقٍّ إنه الفرد^(٧) الذي
 خلق الخلاق كلها من قدرة
 كلاً وباريها^(٩) فليس كمثله
 فارض القناعة رتبة تُسعد بها
 واسمح بمالك بل بعرضك دونهِ
 دينُ الفتى أولى به من عرضه
 فاستبق دينك دونَ عرضك توجر
 واصبر على ثوب^(١٥) الزمان فإنها
 وإليه فافزع^(١٦) في أمورك كلها

(١) الموسر: الثري الغني.

(٢) أوعب: أخذهُ أجمع ووسعه كله.

(٣) ليل أيل: شديد الظلمة.

(٤) الكور: الدورة.

(٥) الأبهـر: الأشد بهراً، يقال: بهر القمر النجوم: غمرها بضوئهِ.

(٦) مزجى: مسوق سوقاً ليناً ومدفوع برفق.

(٧) الفرد: من لا نظير له ولا مثل ولا ثان.

(٨) يعترض: يطلب العون والمساعدة.

(٩) الباريء والباري (مسهلة الهمزة): الخالق - سبحانه وتعالى - .

(١٠) تؤثر: تُكرم وتُفضل.

(١١) تتمولُ الحمد: تذخره شكراً لك.

(١٢) الموسر: الغني، الثري.

(١٣) الوفّر: المال الكثير الواسع.

(١٤) توفّر: تغنى، ووفر عرضه: لم يبتذله.

(١٥) النوب: جمع نائبة، وهي النازلة؛ أي ما ينزل بالإنسان من المهمات والحوادث خيراً وشرّاً.

(١٦) فزع إليه: لجأ.

من نفس دينك ذاتُ خطبِ أيسر
 بمقالاتي الحُسنَى ومَحْضُ تخْبُرِي
 وهديتكم سَنَنَ^(٢) الطريق الأخر
 رأيَ العِيانِ^(٣) وليس رأيَ المُخبر
 للعلم فضلُ عِنَايتِي من أسطر
 تحبيرها^(٤) مَثَلٌ لِكُلِّ مُحَبَّر
 ليسَ المُضَيِّعُ وتَرَهُ كالموتر
 إلا خَفِيَّ لَيْسَ بالمستنكر^(٥)
 ولى الملامة^(٦) كلَّ من لم يعذر
 آدابِه واستأثرتْ بالآثر^(٧)
 علموا الحقائق بالأعم الأشهر
 للمستفيدِ ومُتَعَمِّدٍ للسمَر^(٨)
 للصالحين وكلَّ برِّ خَيْر
 فيه بصدق تأمُّلٍ وتَدبِير
 هو حِلَّة^(٩) العاري وكنزُ المُقتَر^(١٠)

إنَّ الحوادثَ ما رمتك فلم تُصب
 أنتَ المخاطبُ^(١) والمرادُ جميعكم
 إنِّي نصحتُ بنظمِه جهدي لكم
 لما أحطتُ بعلمِه ورأيتُه
 ضَمَمْتُ^(٢) أسطره نتيجة ما حوى
 مئتان زادت تسعَ عشرة^(٣) وانتهت
 أوترها^(٤) والوترُ أفضلُ سُنَّةِ
 لا عيبَ فيها إن بغاهُ عائبٌ
 أعذرتُ فيه فمن تبينَ عُذره
 جمعت أصولَ الدينِ واشتملت على
 وتوشحت^(٥) من سيرة السلفِ الألى
 فيها بيانٌ للمريدِ وعُدَّة
 فخذوا بأحسنها تكونوا أسوة^(٦)
 وتقبلوا نُصحي وكونوا أسوة^(٧)
 وتناصفوا وتقارضوا^(٨) البرَّ الذي

(١) أي ابنه عبد الرحمن.

(٢) سنن الطريق: نهجه ومسلكه.

(٣) العيان: المعاينة، رأيتُه عياناً أي لم أشك في رؤيتي إياه.

(٤) ضمته: جعله ضمينه وطيه.

(٥) يذكر هنا لفظاً عدد أبيات القصيدة المطولة، وهو ٢١٩.

(٦) حبر الكلام والشعر: حسنه وبيته.

(٧) أوترها: جعلها عدداً فردياً.

(٨) المستنكر: المنكر القبيح.

(٩) الملامة: اللوم والعذل والتعنيف.

(١٠) استأثرت بالآثر: انفردت بالأجود والأفضل.

(١١) توشحت: قلّدت وشاحاً أي جمّلت.

(١٢) السمَر: الساهرون في الليل يتحدثون.

(١٣) الأسوة: القدوة.

(١٤) يقال: هم في الأمر أسوة: أي حالهم فيها واحدة.

(١٥) يقال: هما يتقارضان الخير أي يتجاربان.

(١٦) الحلة: كل ثوب جديد تلبسه.

(١٧) المقتَر: المفقتر الذي قلّ ماله وضاق عيشه.

وتواصلوا وتعاطفوا كيما تُروا
والله حَسْبُكُمْ وحسبي إِيَّاهُ
وإليه أُسْنِدُ أَمْرَكُمْ وكفى بِهِ
وعليه أَقْصُرُ حَالَكُمْ فهوَ الَّذِي
ولعله فِي بعض ما يَقْضِي بِهِ
يُذْنِي لِقَاءَكُمْ بِأُوبِ^(٥) عَاجِل
[لَاتِسْأ]مُوا إِحْضَارَهُ رَغْبَاتِكُمْ
وعسى رِضَا الْمَنْصُورِ يُسْفِرُ وَجْهَهُ
وزنادُكُمْ فِي كُلِّ صَالِحَةٍ وَرِي^(١)
حَسْبُ الْمُنِيبِ^(٢) الْقَانِتِ^(٣) الْمُسْتَغْفِرِ
سِنْدًا لِكُلِّ مَقْوُوضٍ مُسْتَقْدِرِ
مَا دُونَهُ لِعِبَادِهِ مِنْ مُعْصِرِ^(٤)
مِمَّا يَشَاءُ بِلا وَزِيرٍ مُوَزَّرِ
تَرْضَاهُ نَفْسُ الْأَمَلِ الْمُتَحَبَّرِ
فَهَبِائِثُهُ مَبْسُوطَةٌ لَمْ تُحْظَرِ^(٦)
فِيذِيلِ^(٧) مِنْ وَجْهِ الْفِرَاقِ الْأَغْبَرِ

مناسبة الوصية:

يبدو أن الجزيري قد نظم هذه القصيدة وقد أزرى به الأمل واقترب به الأجل، إذ قالها وهو يعاني ظلمة السجن ومرارة الاغتراب وغصّة الذلة بعد العزة؛ إذ كان وزيراً للمنصور ابن أبي عامر متقلباً في النعمة مقرباً من صاحب الملك ثم قلب له الدهر ظهر المجنّ وغضب عليه المنصور واعتقله بإحدى قلاع المنيع^(٨) وقد طال عليه الأمر إذ دام سجنه فوق ثلاث سنوات فكتب قصيدته هذه مشتاقاً لأولاده يوصيهم وينصحهم مستمداً ذلك من خبرته وعلمه ودرابته وهو الرجل المعروف بالبديهة والمعدود في أكابر البلغاء^(٩) وهو الذي قال عنه المنصور "لله درك يا

(١) الزناد الوري: الزند: العود الذي تقدح به النار وهو الأعلى، وروى الزند: أشعله، أخرج منه ناراً.

(٢) المنيب: المقبل الراجع إلى الله سبحانه.

(٣) القانت: المصلي العابد القائم بأمر الله.

(٤) مُعْصِر: أي مُلْجِئ ومحزر ومنج.

(٥) الأوب: الرجوع.

(٦) لم تحظر: لم تمنع.

(٧) يقال: أداله الله من عدوه: كانت له الغلبة والنصرة والدولة عليه.

(٨) انظر: هلال ناجي، قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري، ط ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت،

١٩٩٤، ص ٩.

(٩) انظر: أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي (ت ٤٨٨هـ) - جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس،

الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٨٠.

أبا مروان، قسناك بأهل العراق ففضلتهم فبمن تقاس بعد^(١).

وهو إذ ينصح لهم لا يدري إلامَ عاقبة الأمور والمنصور غاضب عليه، ثم هو ربما يُرَجِّي غير فائدة من هذه القصيدة كأن تصادف قبولاً في نفس المنصور فتثمر انفراجة في التوتر بينهما.

ثانياً: تحليل مضمون الوصية

تقع القصيدة في مئتين وتسعة عشر بيتاً ، وقد صرّح بذلك الجزيري فقال:

مئتان زادت تسع عشرة وانتهت تحبيرها مثل لكل محبّر

وتشتمل هذه القصيدة على ثلاثة موضوعات رئيسية هي المقدمة والمضمون الوعظي والخاتمة؛ إذ يبدأ الشاعر بذكر أحبته وتذكّرهم والتحنان إليهم فقد بعدَ المزار عنهم وأبت عيناه الهجود شوقاً إليهم، و أضعفه البعد وأضناه الشوق وألانه طول الفراق وأبعد عنه السرور ، إذ ليس يلقي أحبته إلا تَوْهُماً وتخيلاً، فقد سُدَّت السبل دون وصالهم بحلول يوم الفراق الذي ترك قلبه متعطشاً إليهم وكأنه شرب بفراقهم سُمّاً زُعافاً.

ثم أخذ يتذكر أحبته فرداً فرداً فبدأ بذكر زوجته الرومية الأصل التي راحت جفونها بين إعراض عن مشاهدته مخفوراً وبكاء على حاله وفراقه وهي الزوجة التي جعله الفراق يدرك بتدبر حسنها وجمالها؛ إذ لم يعد وصالها ممكناً إلا بالنوم على أنه لا يحصل إذ سبق البيان بأن النوم جفاه مما جعل الوصال متعذراً حقيقةً وممتنعاً مناماً وخيالاً ، ولم تعد المكاتبة ممكنة، فعمد إلى تحميل ريح الصبا والبروق أشواقه علّها تأتيه برجع جوابٍ لمقالاته، وهو من فرط شوقه يدعو لها - أي زوجته- ولمنزلها إن كانت ما تزال على العهد.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى ذكر أبنائه منادياً إياهم بأسمائهم موجهاً وصيته إلى ابنه عبد الرحمن طالباً منه أن يوصلها إلى إخوته عبيد الله ومُحمّد والصغير عبد العزيز المقدم في فؤاد والده لصغر سنه. والجزيري إذ يبيّن حُبّه وشوقه إلى أولاده جميعاً يخص عبد العزيز لأنها سنة الحياة- كما يرى- أن يُحبّ المرء - إذا شاب - أولاده ويخص الأصغر بالحظوة الكبرى. ثم هو يطلب إلى عابد الرحمن أن يوصل تحيته إلى مَنْ لا يريد أن يذكر اسمه وعلى ما يبدو أنه

(١) انظر: ابن بسام، الذخيرة، ج٤، ص٣٦.

يقصد ابنته التي يودُّ لها الهلاك لا عن بغضٍ وكرهية، وتودُّ هي له أن يعمر أبد الدهر، وهذه البنت التي لا يأتي الشاعر على ذكر اسمها الصريح جميلة كالكوكب الذي في الليل الهاديء الساكن وليس دونه إلى قربها وصول، فهو مقيم في حرز منيع في ذروة جبلٍ أجرد لا تأوي إليه سوى الغربان والرياح الباردة، وهو لفرط عُلوِّه يقطع الأنفاس. ثم يتحسّر على مفارقة أحبته إذ كانوا من نفسه بمثابة الجنة التي غيَّب عن ناظره بمفارقتها كل منظر حسن، فتجرّع لذلك مرّاً الصبر، فهم قرّة عينه التي لا يستطيع السلو عنها، ولا ينفك يفكر فيها حتى عاد ذلك التفكير على جسمه بالسقم. فهو يجذّ ریحهم في تذكّره الذي يستحيل في نفسه دماً يقطر من عينيه.

فهو يتذكّرهم كلما اقترب عيدا الفطر والأضحى، فيغدو حيران ذاهلاً مستوحشاً مع وجود الأنيس، فهو كالآخرس لا يُناطق أحداً، لكنه معذور كسواه الشوق ملامح خاصة جعلت من يراه يعذر حاله تلك.

وهو يشكو إلى الله الرحمن فراق أحبته الذي طال سنواتٍ ثلاث زدن أشهراً، ثم يتساءل إن كان لافتراق الشمل من اجتماع؟ وكأن الأمل على ضعفه لا يزال يحدوه.

و يتعجّب من قلبه كيف لم يتقطّع ألماً يوم الفراق، إذ كان يظن أنه لن يبقى حياً بعدهم ساعة لولا أن أخاهم الأكبر شريكه في الحبس فهو بؤبؤ عينه إن نظر وساعده إذا مال وانكسر. وهو إذا شكّا إليه ليرتاح من قرط ما به ذكره بهمه فشكا إليه أيضاً بدوره فزاد على شكايته، وقد أورثته الهموم الشيب المبكر، وهو بهذا يتحسّر على حال ابنه الذي جار عليه الزمان وهو في ريعان الشباب إذ رُميا معاً - الأب والابن - بتهمة كاذبة ومفتراه، وهو يُسلم بقدر الله الذي قضى أن يكونا معاً في هذه المحنة.

ثم يعود ليتحسّر على أبنائه من خلال توجيه الخطاب إلى المقصود الأول - عبد الرحمن - الذي ذاق يتم أبيه قبل وفاته، وابئلي بفقد أخيه فهما كالهالكين وإن لم يهلكا حقاً.

وهو بهذا يطلب إلى عبد الرحمن أن يندبهما ويبكي عليهما فكلاهما ميت، وإن لم يُقبر فهما غريبان بدّلاً بالدار والأهلين داراً بعيدة بل سجنأ وهما فقيدان لا يسمع عنهما خبر ولا يصل إليهما مثله وهما حزيران مشتاقان طال بهما الأسى.

والجزيري يخاف فاجئة المنون فالموت حق وبهذا ينتقل إلى موضوعه الثاني، وهو الغرض الرئيسي من هذه القصيدة، إذ يوصي فيه أبنائه بجملة من الوصايا داعياً إياهم إلى الالتزام بتقوى الله طريقاً نحو الفوز والمحافظة على حدوده طريقاً نحو الأجر والثواب واتباع

سبيله والعمل بطاعته حتى ينالوا رضاه سبحانه.

ويتابع وصاياه الموجهة إلى عبد الرحمن والمعني فيها عموم أولاده بأن يتخذ القرآن هادياً ومرشداً فهو شفاء لما في الصدور وذكور للمتذكرين، ثم أوصاهم بطلب العلم، فهو أرفع رتبة وأجلُّ مكتسب، وهو سبيل السيادة فالمُحَبَّر لم يُسَمَّ كذلك إلا ليطول حمله للمحبر وللعالم مكانة بارزة إذ تتابعه أبحار الخلق وتزدري أبصارهم الجاهل؛ فبالأقلام يبلغ المرء ما لا يبلغه بالخيول، وهو بهذا يرمي إلى فضل القلم على السيف على أن العلم لا ينفع أهله إذا هو يثمر عملاً حسناً ورأياً صائباً، لذا فإن على الإنسان أن يعمل بما علم فالعلم دون عمل كالصلاة دون طهور.

ثم هو يحثّ على العمل بالسنة النبوية الشريفة المأخوذة عن النبي الكريم البشير المنذر صلى الله عليه وسلم. وينادي إلى ترك البدع والمحدثات من الأمور، ويدعو إلى التزام نهج الجماعة التي تتبع الحق الجلي، ثم هو يقدم وصفاً لتلك الجماعة ليعين أبناءه على الاهتداء إليها فهي أي الجماعة الحدُّ بين الضلالة والهدى في الدين وهي المعروف دون المنكر.

ثم يوصي عبد الرحمن بالجهاد والصلاة مع الأئمة كلهم، وإطاعة ولاة الأمر ووصاه بالصبر على ظلمهم إن هم ظلموا إذ قد يُحرِّك الفتن الأنكاد الظالمون - ولعله بهذا يلمح إلى الوشاية التي تعرض إليها من قبل بعضهم - ووصاه بأن يرضى بالقضاء ويذعن لصروف الدهر، وأن يشكر إن أصابته نعماء، ويصبر إن أصابته ضراء، وأن يخلص النية لله في الأعمال كلها فمن يجعل الله شركاء يخسر فحقيقة الإيمان تستلزم القول والعمل والنية.

ثم يؤكد أن القرآن كلام الله وليس مخلوقاً كما زعم أهل الاعتزال .

ثم يقول إن الله عزوجل يتجلى لأهل الجنان فيرونه من غير أن يحصوا حقيقة كنهه، وأن حوض النبي صلى الله عليه وسلم حق وشفاعته كذلك، وهو إذ يتحدث عن ذلك يحيب إلى أبنائه العمل الصالح ليحصدوا الخير والفوز. ثم هو يذكرهم بالميزان ويوم الحساب، وأن المنزلة الرفيعة تكون لمن علت درجاته وعلا به عمله. ويذكرهم بفتنة القبر التي يتعرض إليها كل ميت حين يأتيه الملكان منكر ونكير، ويذكرهم بأن الله يثبت عباده الأتقياء عند السؤال، وأن أصحاب الكبائر أمرهم في مشيئة ربهم فلما يعذبهم وإما يغفر لهم، وأن ليس للإنسان أن يتدخل في الحكم على مصائرهم، وليس له إلا أن يشهد جنازتهم - وهي تأدية لحقهم -.

وأن يتبعوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يتحدثوا في محاسنهم، وأن يحبوهم ولا سيما العمرين: أبا بكر وعمر ثم عثمان ثم علي عليهم رضوان الله جميعاً خلفاء الصدق

الذين وطدوا دعائم دين الله ونشروه في الآفاق. وأن يحبوا معهم الصحابة الستة من المبشرين بالجنة وهم الزبير بن العوام، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وسعيد بن زيد رضي الله عنهم.

ثم أوصى أولاده بترك الأكاذيب والافتراءات التي تحكى عنهم وأن يذكروا ما سوى الصحابة الذين سلف ذكرهم بالخير غير مُقدّمين منهم أحداً على أحد فجميعهم أهل للبر والتقوى. ثم أوصى أولاده - بخطابه الموجه إلى عابد الرحمن- بأن يتركوا المرء لأنه مرض يوغر الصدور، ويملؤها حقداً وغيظاً، والمرء في الدين كفر.

ثم أوصاهم بقضاء حق الوالدين وبرهما، وعدم نهرهما، وأن يقولوا لهما قولاً كريماً. وأن يرعوا حرمة ذوي القربى والجيران، وأن يترفعوا عن مخالطة من لم يكرّم في معاشرته الناس فالإنسان يعاشر من يشاكله في الطباع؛ لذا فهو يدعوهم إلى مصاحبة الأتقياء ذوي النزاهة، وأن يجتنبوا السفهاء، وأن يختبروا أصدقاءهم قبل أن يشاركوهم في أي شيء، وعليهم ألا يندعوا بالمظاهر؛ فالماء قد يبدو صافياً وهو آجن متغير الرائحة والطعم واللون في حقيقته، وقد يبدو والسيف رائعاً في يد من لا يقوى على استخدامه، وكذلك الإخوان والأصحاب فكم منهم من أحد يغرّ بظاهره، وباطنه مختفٍ غير ظاهر.

وأوصاهم بسعة الصدر، وأن يستتصحووا التقي، وأن يشاوروا الفطن الذكي كيما يُفلقوا. وأن يدخلوا المجالس والمنتديات مُسلمين حالمين، وأن يصونوا ألسنتهم، ويحذروا من سقطها، وأن يصفحوا ويحلموا على السفيه، وأن يدعوا المسيء إلى إساءته، وأن يكظموا غيظهم ويستغفروا إذا غضبوا، وأن يتواضعوا ويجتنبوا الكبر والخيلاء، وأن يلزموا الصدق ويحفظوا الأمانة واليمين، وأن يكتموا أسرارهم وأسرار غيرهم، وأن يهتم كلّ منهم بشؤونه فإن فيها شغلاً لهم عن شؤون سواهم، وأن يراقبوا عيوبهم قبل أن يراقبوا عيوب غيرهم ففي كل إنسان عورات كثيرة وإن لم تظهر.

وأوصاهم بالكرم، وإكرام الضيف، وشكر كل متفضل عليهم كفاهم مؤونة السؤال.

وأن ينصحوا للمسلمين ولا سيّما الأئمة منهم، وألا يغتابوا، ولا يتجسسوا، ولا يتبعوا الظن ولا يظلموا، ولا يحسدوا، ولا يشمتوا فإن لكل امرئ أجلّ، وأنّ عليهم أن يعملوا قبل الموت، وأن يرغبوا عن الدنيا فإنها فانية وهي دار التقلب التي لا تدوم على حال وكم غررت بآمل فأزرى به أمله. ثم هو يحلف بالله الذي تلهج الألسنة بذكره في عرفات بكل اللغات بأن

الدنيا لا تصفوا ولا يؤمن غدرها، وهو إذ يقول ذلك يدعو أولاده إلى التدبّر والتفكر فيما يقول، فكم من متكبر صاحب عز وجاه دالت عليه الأيام فبدلت عزته ذلة، وكم من غني بدلت غناه فقراً، وإنها - أي الدنيا - دار الغرور. وأن الرزق مقسوم لذا فإن على الإنسان أن يعتدل في السعي وراءه فلا يزيد حرص في الرزق، ولا أدلّ على ذلك من أن بعض الأغبياء موسرون، وبعض الأذكياء معسرون. فالله عز وجل خلق كل شيء بقدر يغشي الليل النهار، ولا ينفع الجهد في تغيير القضاء والقدر، فالله واحد خلق الجميع دون عون أو مساعدة ليس كمثله شيء؛ لذا فإن على المرء أن يرضى بما قُسم له ويقنع. وإنّ طلب الزيادة يكون في الدين، ثم في صون العرض، وأوصاهم أن يصبروا على نُوبِ الزمان، وأن يلجأوا إلى الله في الأمور كلها، وأن كل مصيبة لم تصب في الدين هينة.

ثم يأتي الموضوع الثالث من القصيدة وفيه بيّن الجزيري أنّ المخاطب في هذه القصيدة عابد الرحمن والمراد جميع إخوته؛ فهو نظمها لينصحهم جاهداً، ويبين لهم الطريق القويم، وهو إذ ينصحهم يقدم لهم علماً وتجربة عاشها بنفسه في مئتين وتسعة عشر بيتاً اعتنى بنظمها، وقد جعلها فردية العدد تيمناً بصلاة الوتر، وفضلها، وهي قصيدة لا عيب فيها في ظاهرها، وإن وجد فيها عيب فهو غير قبيح؛ لذا فهو معذور فيه، وهي قصيدة جمعت أصول الدين، وانفردت بكل ما هو جيد، وجُمّلت بشيء من سيرة السلف الصالح. فيها بيان ومنتعة لكل من بغى الاستفادة؛ لذا طلب إليهم أن يعملوا بما جاء فيها ليكونوا أسوة لغيرهم، وأن يقبلوا نصحه، وأن يتقارضوا الخير ويتواصلوا ويتعاطفوا فيما بينهم. ثم دعا لهم ووكل أمره وأمرهم إلى الله فلعل الله يقرب لقاءهم وهو بهذا يحثهم على الدعاء، ثم يختم قصيدته بترجيّيه وأمله بأن يرضى المنصور بن أبي عامر عنه فيخرج من معتقله ويلقى أحبته.

ثالثاً: الدراسة الفنية

- حسن التخلّص:

لم يجد الشاعر صعوبة في التخلّص من موضوعات منتقلاً بينها، فهو بعد أن تحدّث عن ألم الفراق، وشرح ما يلقاه من وجد ومكابدة شوق مبيناً أن الزمان قد أقصاه عن أحبته وأهله وولده، شكا طول العناء وألم الانتظار، وبيّن أنه يخاف من الموت المفاجيء؛ فالموت حق على كل نفس بقوله:

طال العناء وجدّ بالنفس الأسي مذ جدّ بي سقمي وطال تنظري
وأخاف فاجئة المنون فإن تكن فاقن العزاء - فدتك نفسي - واصبر
إنّ الحمام لمنهّل ما دونه لمتّع بالعيش من متأخّر

وبذلك سوّغ انتقاله للوصية التي رجا أن يقدّم من خلالها خلاصة تجربته لأولاده؛ إذ انتقل بشكل انسيابي موصياً قائلاً:

فعليك تقوى الله فالزمها تفرز وحدوده حافظ عليها تؤجر

ثم تابع مضمون وصيته مخاطباً ابنه عابد الرحمن لينتقل بعد أن نفّض جرابه إلى خاتمته التي أعاد فيها مضمون الوصية باختصار بقوله:

أنت المخاطب والمراد جميعكم بمقالتني الحسنى ومحض تخبري
إني نصحت بنظمه جهدي لكم وهديتكم سنن الطريق الأخضر

اللغة:

الجملة:

يبدو أن أبا مروان الجزيري اختار لقصيدته البنية الفعلية، فهو يتكئ على أربعمئة واثنين وأربعين فعلاً، تراوحت ثلاثمئة وأربعة منها بين الماضي والمضارع في حين أن منها مئة وثمانية وثلاثين فعلاً أمرياً، ولا يخفى ما تعود به هذه البنية الفعلية الواسعة على القصيدة من جوّ حركي يمنحها شحنة انفعالية تجعلها أكثر تأثيراً، لا سيما وأن الشاعر عضد هذه البنية الفعلية بمئة وأربعة وثلاثين اسم فاعل، وهو في اعتاقه من الزمن ومضيّه في الفعل يزيد من

وتيرة تلك الحركة ويغذي ذلك الانفعال.

- التكرار:

وظّف الشاعر التكرار بشكل ملحوظ في قصيدته، إذ كرّر مئة وثلاثة ألفاظ على المستوى العام للقصيدة من مثل:

(أسطر - أسطر).

(عرض - عرض).

(وتر - وتر).

(أولى - أولى).

(ابك - ابك).

(استبق - استبق).

وهو إذ يكرر كل تلك الألفاظ يراوح في تكراره بين التكرار المطابق للمفردات كما سبق، والتكرار غير المطابق - ونعني به تكرار الجذر اللغوي من مثل:

(رأيت - رأي).

(أعذرت - عذر).

(باغي - بغى).

(تشعر - أشعر).

(عائب - عاب).

ولعله غير خافٍ أن انسجام النص مع مقصديته يجعل التطابق أمراً لا مفر منه^(١)؛ فيعود بتكرار بعض البنى اللغوية؛ فالتكرار "يعطي منتج النص القدرة على خلق صور لغوية جديدة، لأن أحد العنصرين المكررين قد يُسهّل فهم الآخر"^(٢).

(١) انظر فيه: مفتاح، محمد، المفاهيم معالم، ص ١٩٢.

(٢) بوجراند، روبرت، النص والخطاب والإجراء، ص ٣٠٦.

الثنائيات اللغوية:

لم يكتف الشاعر بتوظيف البنية الفعلية والتكرار على مستوى اللغة في سياق قصيدته فلجأ إلى الثنائيات مستعملاً ثمان وثلاثين ثنائية ضدية من نحو:

(مُقلّ - مُكثر).

(غبي ، لبيب).

(موسر ، معسر).

(شر ، خير).

(ظاهر ، باطن).

ولا يخفى ما لهذه الثنائيات الضدية من أثر في المعنى؛ إذ فيها تقريب للمعنى إلى الأذهان، وهي في الوقت ذاته من متطلبات الموضوع، فالشاعر يعظ أبناءه مقارناً لهم بين حال الصالح وحال الضال، ولا بد له من أن يوقع اختياره على هذه الألفاظ المتضادة.

ثم إن الشاعر يستخدم الثنائيات اللغوية التأكيدية المنتمية إلى حقول دلالية بعينها؛ إذ يلجأ الشاعر إلى استخدام غير لفظٍ من حقول دلالي واحد من مثل:

(اسلك - سبيل)

(ميت ، قبر).

(الجميع ، الحُضْر).

(مناهج ، سبيل).

(لحظ ، جفون).

(كرى ، نوم).

(شاهق ، عالي).

وقد استخدم الشاعر سبعين ثنائية تأكيدية على هذا النحو، وهو بهذا يحفز ذهن المتلقي بحشد القرائن واجتماعها وتضافرها معاً في علائق متشابكة، تنمو بالنص - على المستوى العام وبالفكرة - وعلى المستوى الخاص - ، وتتجه به نحو اكتمال النظر في تلقي النص إيجابياً وتمثله.

الإيقاع الصوتي:

إنّ توازي العناصر اللغوية في الأنماط التكرارية، والثنائيات اللغوية الضدية والتأكيدية يحدث توازناً صوتياً يشكل أساس الإيقاع^(١)؛ والبنية الفعلية وما فيها من تراوح زمني تزيد الإيقاع بحركتها وفعاليتها.

وكل هذه البنى اللغوية على تفاوتها وتباينها تزيد من تتابع الألفاظ على مستوى الزمن العام، وعلى المستوى الصوتي بتلاحقها وتجاورها، وهو الأمر الذي يمنح القصيدة نفساً منتظماً ويعود على العناصر بالانسجام مما يكسب الأبيات بنية إيقاعية زائدة على المستوى العروضي الذي لا بدّ وأن يحققه الشعر بشكل عام.

التناس:

- الناثر بالقرآن الكريم:

تحفل القصيدة بكثير من الإحالات إلى القرآن الكريم، وليس هذا مستغرباً؛ إذ إنها قصيدة وعظية يصب شاعرها جُلّ معانيها في الوعظ الديني الموجه إلى طاعة الله عز وجل وامتنال أوامره واجتتاب نواهيه، وليس للشاعر مندوحة عن النهل من منبع التشريع؛ لذا فهو يقتبس معانيه في مواضع كثيرة من قصيدته فهو يشير في قوله:

إِنَّ الْحَمَامَ لَمَنْهَلْ مَا دُونَهُ لَمَمْتَعِ بِالْعَيْشِ مِنْ مَتَأَخَّرِ

إلى قوله تعالى: "إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ"^(٢).

وفي قوله:

فَعَلَيْكَ تَقْوَى اللَّهِ فَالزَمَهَا تَفْزُ وَحُدُودَهُ حَافِظَ عَلَيْهَا تَوْجِرِ

يقتبس من آيات التقوى الكثيرة في القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا

أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ"^(٣).

وفي قوله:

(١) انظر: عدنان قاسم، الاتجاه الأسلوبى البنيوي، ص ٩٠.

(٢) نوح، آية ٤.

(٣) البقرة، آية ١٩٤.

واعمل بطاعته تتل منه الرضا والقرب في دار السلام وثجبر

من قوله تعالى: "ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار"^(١).

وفي قوله:

فهو الشفاء لما تكين صدورنا وهو الهدى والذكر للمتذكر

من قوله تعالى: "قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء"^(٢).

وفي قوله :

وكذلك الميزان يوضع قائماً بالقسط والزلفى لمن لم يخسر

من قوله تعالى: "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة"^(٣).

وفي قوله :

ثم افض حقّ الوالدين وقم بما فرض الكتاب عليك منه وابدر

أوسعهما برأ ولا تنهرهما وامنحهما قولاً كريماً واشكر

واخفض جناحك رحمة لكليهما تمهد لنفسك إن فعلت وتذخر

يقتبس من قوله تعالى: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغنّ

عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما

جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً"^(٤).

(١) النساء، آية ١٣.

(٢) فصلت، آية ٤٤.

(٣) الأنبياء، آية ٤٧.

(٤) الإسراء، آية ٢٢-٢٤.

وفي قوله :

واخفض كلامك وامش هوناً والِقْ من لاقيت طلقاً لا بخد أصعر

ومن قوله تعالى: "ولا تُصعّرْ خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير"^(١).

وهذا غيضٌ من فيض؛ إذ جُلَّ معاني القصيدة صادرة عن كتاب الله عز وجل.

الحديث النبوي الشريف:

نهل الجزيري من الحديث النبوي الشريف، وضمّن وصيته كثيراً مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر طبيعي منسجم مع الغرض العام في القصيدة المتمثل في النصح والهداية إلى سواء السبيل، فالشاعر لما استعار كثيراً من المعاني القرآنية لخدمة هدفه كان من الطبيعي أن يلجأ إلى المصدر الإسلامي الثاني في التشريع، وينقل عن المصطفى عليه صلوات الله وسلامه، فهو الذي يصدر في كل ما يقول عن ربّه عز وجل، ولا ينطق عن الهوى.

ومن ذلك تأثر الشاعر بالحديث النبوي في غير موضع من قصيدته ومن ذلك قوله:

وارفض حديثات الأمور فإتها بدع تضل كل قلب مبصر

متأثراً بقوله صلى الله عليه وسلم: "شرُّ الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة"^(٢).

وفي قوله:

وارض القضاء ودن بصرفيه معاً لأولّ العالي الصفات الآخر

متأثراً بقوله صلى الله عليه وسلم: "من سعادة ابن آدم رضاه بما قضى الله له"^(٣).

وفي قوله:

(١) لقمان، آية ١٨-١٩.

(٢) صحيح مسلم - ٨٦٧ [٥٩٢/٢].

(٣) سنن الترمذي - ٢١٥٢ [٤٥٥/٤].

وحقيقة الإيمان قول يقتضي عملاً ونية خائف مستشعر

متأثراً بقوله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان"^(١).

وفي قوله:

والله يبدو في الجنان لأهلها فيرونه رأي العيان المنظر

متأثراً بقوله عليه الصلاة والسلام: "إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر"^(٢).

وفي قوله:

أن التعاشر في الأنام تشاكل ولذاك يلقى الجبن في النطف الثري

يضمن معنى الحديث الشريف: "الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخال"^(٣)

وفي قوله :

واستصحاب الورع النزيه وجانب ال طبع السفية بكل حال واهجر

ينقل معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تصاحب إلا مؤمناً"^(٤)

وفي قوله :

وتجرب الخيلاء إن نبيا كره المخيلة وهي فصل المنزر

من قوله صلى الله عليه وسلم "من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة"^(٥).

وأمثله ذلك كثيرة ممتدة في ثنايا قصيدته.

(١) سنن ابن ماجه-٦٥[٢٥/١].

(٢) صحيح البخاري-٦٩٩٧[٢٠٣/١].

(٣) سنن الترمذي - ٢٣٧٩ [٥٨٩/٤].

(٤) سنن أبي داود - ٤٨٣٢ [٦٧٥/٢].

(٥) صحيح البخاري - ٥٤٤٧ [٢١٨١/٥].

الخاتمة

الخاتمة

سعت هذه الدراسة إلى البحث في الوصايا في الأندلسية وحاولت أن تجمعها، وتصنفها تبعاً لمضامينها، وبيّنت ما تمتاز به من خصائص على مستوى المبنى والمعنى، وقد وضح أن لأدب الوصايا خصوصية واضحة تميزه عن سائر الفنون الأدبية الأخرى، فهو وإن انتظم النثر والشعر على حد سواء إلا أنه اختط لنفسه طريقاً مستقلاً تجلّى في أنه نهل من موارد الخبرة الشخصية، والمعارف المكتسبة، والقيم الدينية والأخلاقية السامية، ثم إنه ضرب في ميادين الحياة كلها؛ إذ قدم الموصون وصاياهم في سياقات الآداب العامة، والسلوك الشخصي، والمعاملات، والوظائف، وآداب الطعام، واللباس وقدموا وصاياهم لشرائح المجتمع المختلفة للولد، والمتعلم، والمعلم، والمريض، والعاشق، والمهموم، والمقبل على الحياة، والمدبر عنها، والمرأة، والرجل، والبنت، والزوجة، وللكاتب والجندي، والأمير، والحاكم، والقاضي.

وهم في ذلك كله يخوضون في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية.

وقد بينت الدراسة أثر الجو العام والبيئة الأندلسية في هذا الفن الأدبي؛ إذ أثرت الحروب وظروف الدول القليلة في تغذية جذور هذا الفن، وإظهاره إلى الساحة الأدبية الأندلسية؛ حيث دخلت الوصايا لتشكل وحدات شعرية أو نثرية مستقلة بذاتها حيناً أو بعض مقطوعات نثرية أو شعرية في ثنايا أعمال متكاملة حيناً آخر.

ودخلت الوصايا في ثنايا هذه الأعمال لتكون جزءاً من أجزائها، فالوصايا إذن جاءت جزءاً من نص عام غير مستقلة بذاتها أحياناً أو نصوصاً قائمة بذاتها.

وقد كشفت الدراسة عن شيء من تاريخ الوصايا في المشرق العربي، مما يعود إلى ما قبل العصر الجاهلي، وتتبعها عن طريق عرض ومضات منها عبر عصور الأدب المختلفة لتمهد بذلك لظهور هذا الفن في الأندلس.

وقد بينت الدراسة أشهر كتاب الوصايا في الأندلس، وتحدثت عن علاقتهم بمضامين وصاياهم من خلال ربط ثقافة الموصي وخبرته بما يقدمه من مضمون وعظي.

وقد كشفت الدراسة أن معظم شعراء الأندلس وكتابها ساهموا بشيء من إنتاجهم في هذا

الفن، وأن الحكام والولاة فعلوا ذلك أيضاً من خلال أقلام كتابهم ووزرائهم.

وقد بينت الدراسة السمات الفنية واللغوية للوصايا الأندلسية؛ إذ أظهر البحث أن الوصايا تعتمد على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف اعتماداً ظاهراً؛ إذ تلجأ إلى الاقتباس المباشر من النصوص المقدسة، أو إلى الاقتباس غير المباشر، وذلك بالإشارة إلى النص الأصلي أو بتضمين شيء من معانيه في وصاياهم، بالإضافة إلى اتكاء الوصايا على الموروث الثقافي العربي السابق؛ إذ لجأ كثير من شعراء الوصايا وكتابها إلى الاستفادة مما تركه الشعراء السابقون في المغرب والمشرق، بالإضافة إلى مخزون الحكم والأمثال العربية والأقوال المأثورة.

ثم بينت الدراسة السمات اللغوية لتلك القصائد؛ إذ تلجأ إلى أساليب التحذير والإغراء لما لذلك من وقع على المتلقي كما تعتمد البنية الفعلية الأمرية، وتلجأ إلى التكرار والترادف والتضاد في كثير مما تقدم.

وقد وضحت الدراسة مقدار التشابه الكبير الذي يجمع بين الوصايا في الشكل والمضمون؛ وإن كانت قد بينت بعض مواطن التباين والاختلاف بين الموصين، وهو أمر عائد إلى اختلاف التجربة الشخصية فحسب، إذ لم يقع الاختلاف في الأمور المتفق عليها شرعاً أو عقلاً، وإنما كانت أموراً هينة في تصريف شؤون الدنيا.

ولعله من المفيد أن نشير إلى أهمية هذا الفن وخطره في توجيه الحياة العامة والخاصة، لا سيما وإن ازدهاره جاء في ظل المحن والفتن والحروب.

المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، (١٩٦٣). **الحلة السيرة في أشعار الأمراء**. تحقق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.

ابن الأبار، أبي عبدالله محمد، (١٩٩٩). **ديوان ابن الأبار**. تعليق: عبد السلام الهراس، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ابن الأحمر، (١٩٦٧). **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**. تحقق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة.

الأردني، أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح، (٤٨٨هـ). **جنوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس**. الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦.

الأردني، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني. **سنن أبي داود**. دار الفكر، تحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، عدد الأجزاء: ٤، مع الكتاب: تعليقات كمال يوسف الحوت والأحاديث مذيبة بأحكام الألباني عليها.

الإشبيلي، إبراهيم بن سهل، (١٩٩٨). **الديوان**. تحقق: محمد فرج غنيم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١.

الأصبحي، مالك بن أنس أبو عبدالله. **موطأ الإمام مالك برواية محمد بن الحسن**. دار القلم، دمشق، تحقق: د.تقي الدين الندوي أستاذ الحديث الشريف بجامعة الإمارات العربية المتحدة، عدد الأجزاء: ٣.

الأصبحي، مالك بن أنس أبو عبدالله. **موطأ الإمام مالك برواية يحيى الليثي**. دار إحياء التراث العربي، مصر، تحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء: ٢.

الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله، (١٤٠٥). **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**. دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، عدد الأجزاء: ١٠.

الأصبهاني، أبو الفرج، (١٩٥٥). **الأغانى**. دار الثقافة، بيروت.

الأعلم الشنتمري. **ديوان طرفة بن العبد**. تحقق: لطفي الصفال ودرة الخطيب، مجمع اللغة العربية، دمشق.

الأنباري، أبي بكر محمد بن القاسم، (٢٠٠٢). **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات**. ضبطه وعلق عليه بركات يوسف هبود، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط ١.

الأندلسي، ابن اللبابة ، (٢٠٠١). **الديوان**. منجد مصطفى بهجت، مركز البحوث، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ط١.

الأندلسي، ابن حزم، (١٩٧٧). **طوق الحمامة في الإلفة والآلاف**. ضبط نصه وحرر هوامشه: الطاهر أحمد مكي، ط٢، دار المعارف، القاهرة.

الأندلسي، ابن شهيد. **الديوان**. تحقق: يعقوب زكي، راجعه: محمود علي مكي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، المغرب.

الأندلسي، ابن هانيء. **الديوان**. دار صادر، بيروت.

الأندلسي، أبو العباس أحمد بن شكيل ، (١٩٩٨). **شاعر شريش**. تحقق: حياة قارة، ط١، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي.

الأندلسي، بختري. (٢٠٠٢). **الديوان**. جمع ودراسة وشرح: يوسف عيد، دار الفكر العربي، بيروت، ط١.

الأندلسي، عبد الكريم القيسي، (١٩٨٨). **الديوان**. تحقق: جمعة شيخة ومحمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، تونس.

الأنصاري، ابن خاتمة، (١٩٧٢). **الديوان**. تحقق: محمد رضوان الداية، دمشق.

الأيادي، نقيط بن يعمر، (٢٥٠ق.هـ). **الديوان**. دار صادر، بيروت.

بالي، شارلي، (١٩٨٥). **علم الأسلوب وعلم اللغة العام في: شكري عياد: اتجاهات البحث الأسلوبي**، دار العلوم.

البخاري، محمد بن اسماعيل أبو عبدالله، (١٩٨٧). **الجامع الصحيح المختصر**. دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط٣، تحقق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة، جامعة دمشق، عدد الأجزاء: ٦.

بسام، أبو الحسن علي بن بسام، (٥٤٢هـ). **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**. تحقق: سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ٤ ج.

بوجراند، روبرت، (١٩٩٨). **النص والخطاب والإجراء**. د.ط، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة.

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى. **الجامع الصحيح سنن الترمذي**. دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقق: أحمد محمد شاکر وآخرون، عدد الأجزاء: ٥، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.

التطيلي، أبي العباس الأعمى، (٢٠٠٤). **الديوان**. محمد باقر عبد الغني تر: سعاد محمد ابراهيم، مكتبة الرائد العلمية، عمان، ط١.

أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، (٢٣١هـ). **الديوان**. ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦.

جيران، محمد مسعود، (٢٠٠١). **فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب**. دار المدار الإسلامي، ليبيا، ط١.

جرار، صلاح، (١٩٩٣). **مرج الكحل الأندلسي سيرته وشعره**. دار البشير، ط١، عمان.

الجرجاني، عبد القاهر، (٤٧٤هـ). **أسرار البلاغة**. تحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة.

ابن حمديس. **الديوان**. صححه: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

ابن خاقان، (١٩٨٣). **مطمح الأنفس ومسرح التأئس في ملح أهل الأندلس**. تحقق: محمد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.

ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الاشبيلي، (٥٢٩هـ). **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**. (ط١)، تحقق: حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، (١٩٨٩).

الجزاعي، دعبل بن علي، (١٩٩٧). **وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود**. تحقق: نزار أباطة، دار صادر، بيروت، ط١.

الخشني، أبو عبدالله محمد بن الحارث. **قضاة قرطبة وعلماء أفريقية**. تحقق: عزت العطار الحسيني، مكتبة المثني، بغداد.

الخصري، محمد. **إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء**. المكتبة التجارية الكبرى، مصر.

الخطبا، فوزي، (١٩٩١). **شعر ابن جبير**. منشورات دار الينابيع للنشر والتوزيع.

الخطيب التبريزي، (١٩٦٩). **شرح القصائد العشر**. تحقق: فخر الدين قباوة، ط١، المكتبة العربية، حلب.

ابن الخطيب، لسان الدين. **الديوان**. تحقق: محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء.

ابن الخطيب، لسان الدين، (١٩٧٣). **الإحاطة في أخبار غرناطة**. تحقق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢.

ابن الخطيب، لسان الدين، (١٩٨١). ريحانة الكتاب وئجعة المنتاب. تحق: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١.

ابن الخطيب، لسان الدين، (د.ت). الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. تحق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.

ابن الخطيب، لسان الدين، نفاضة الجرابفي علالة الاغتراب. تحق: أحمد مختار العبادي، د.معلومات.

ابن خفاجة. الديوان. السيد مصطفى غازي، دار المعارف، الاسكندرية.

ابن خميس، أبو بكر محمد بن محمد بن علي المالقي، (١٩٩٩). كتاب أدباء مالقة المسمى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار فيما احتوت عليه مالقة من الأعلام والرؤساء والأخبار وتقييد ما لهم من المناقب والآثار. تحق: صلاح جرار، دار البشير ومؤسسة الرسالة، عمان، ط١.

ذو الرمة، غيلان بن عقبة، (١٩٩٨). الديوان. تحق: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بيروت.

رضا، جهاد، (١٩٨٧). أدب الوصايا في العصر الجاهلي. رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، الأردن.

ابن زيدون، (١٩٣٢). الديوان. شرح وضبط وتفسير: كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، ط١، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

السجستاني، أبو حاتم، (١٩٦١). المعمرين والوصايا. تحق: عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

أبي سلمى، زهير، (١٩٨١). الديوان. ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل، (٤٥٨هـ). المخصص. تحق: لجنة إحياء التراث العربي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

السيوطي، (١٩٩٢). ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين. تحق: أبو علي طه، دار حزم، بيروت.

ابن شداد، (١٩٩٢). ديوان عنتره بن شداد. دار صادر، بيروت، لبنان، ط١.

شريفه، محمد، (١٩٨٥). البسطي آخر شعراء الأندلس. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١.

الشيبياني، أحمد بن حنبل أبو عبدالله. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. مؤسسة قرطبة، القاهرة، عدد الأجزاء: ٦، الأحاديث مزيلة بأحكام شعيب الأرنؤوط عليها.

صاحب الصلاة، عبد الملك، (١٩٨٧). **المنن بالإمامة تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحدين**. تحقق: عبد الهادي التتادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

صفدي وحاوي، مطاع، إيليا، (١٩٧٤). **موسوعة الشعر العربي**. شركة خياط للكتب، بيروت.

صفوت، أحمد زكي، (١٩٣٣). **جمهرة خطب العرب**. مطبعة البابي الحلبي، مصر.

صلاحية، أحمد عبد القادر، (١٩٩٧). **شعر أبي مروان الجزيري الأندلسي**. دار المكتبي، ط١، دمشق.

الصلت، أمية بن عبد العزيز. **ديوان الحكيم**. تحقق: محمد المرزوقي.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، (١٤١٥). **المعجم الأوسط**. دار الحرمين، القاهرة، تحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، عدد الأجزاء: ١٠.

الطبري، محمد بن جرير. **تاريخ الرسل والملوك**. تحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.

الطيالسي، سليمان بن داود أبو داود الفارسي البصري. **مسند أبي داود الطيالسي**. دار المعرفة بيروت، عدد الأجزاء: ١.

عاصم، أبو يحيى الغرناطي، (١٩٨٩). **جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى**. تحقق: صلاح جرار، دار البشير، عمان، ط١.

العاني، محمد شهاب، (٢٠٠٢). **أثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي منذ الفتح إلى سقوط الخلافة**. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١.

عباد، المعتمد. **الديوان**. تحقق: رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر.

عبد ربه، (٢٠٠١). **العقد الفريد**. تحقق: محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط١.

العتاهية، أبو اسحق إسماعيل بن قاسم، (٢١٠هـ). **الديوان**. دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.

العسكري، أبو هلال، (١٩٦٤). **جمهرة الأمثال**. المؤسسة العربية الحديثة للنشر.

العلام، عز الدين، (٢٠٠٦). **الآداب السلطانية، عالم المعرفة**، ٢٤ فبراير.

- عليان، مصطفى، (١٩٨٤). تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري. مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.
- الغزال، يحيى بن الحكم، (١٩٨٢). الديوان. تحقق: محمد رضوان الداية، دار قتيبة، ط١.
- الغزالي، أبو حامد، (١٩٨٧). التبر المسبوك في نصيحة الملوك. تحقق: محمد أحمد، بيروت.
- الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري، (٣٩٨هـ). تاج اللغة وصحاح العربية. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩.
- فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس، (٣٩٥هـ). معجم مقاييس اللغة. تحقق: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الفريخ، سهام، (١٩٨٨). الوصايا في الأدب العربي القديم. مكتبة المعلا، الكويت، ط١.
- قاسم، عدنان حسين، (١٩٩٢). الاتجاه الأسلوبى البنيوي في نقد الشعر العربي. مؤسسة علوم القرآن بعجمان ودار ابن كثير بدمشق، ط١.
- القرطاجني، حازم، (٦٨٤هـ). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. (ط٣)، تحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، تونس، ١٩٨٦.
- القرطبي، ابن حيان، (١٩٧٣). المقتبس من أنباء أهل الأندلس. تحقق: محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- القزويني، محمد بن يزيد أبو عبدالله. سنن ابن ماجة. دار الفكر، بيروت، تحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء: ٢، مع الكتاب، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي والأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها.
- القسطلي، ابن دراج، (٢٠٠٤). الديوان. تحقق: محمود علي مكي، من منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت، ط٢.
- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف، (٦٤٦هـ). تاريخ الحكماء. مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٠٣.
- القيسي، فايز عبد النبي، (١٩٨٩). أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري. دار البشير، عمان، ط١.
- لغزوي، علي، (١٩٩٧). أدب السياسة والحرب في الأندلس. ط١، مكتبة المعارف، الرياض.
- ليلى، فرج محمود، (١٩٩٧). تاريخ الوصايا. دار الثقافة، الدوحة، ط١.

المبرد، أبو العباس، (٢٨٦هـ). **التعازي والمرثي والمواظ والوصايا**. تحقق: إبراهيم الجمل، مراجعة: محمود سالم، نهضة مصر للطباعة والنشر.

المتنبي، أبي الطيب، (١٩٩٧). **الديوان**. تحقق: كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.

محمد، أبو عبدالله، (د.ت). **التعريف بالقاضي عياض**. تحقق: محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية ط١.

محمد، علي، (١٩٩٠). **النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس مضامينه وأشكاله**. ط١، دار العرب الإسلامي، بيروت.

محمد، مفتاح، (١٩٩٩). **المفاهيم معالم: نحو تأويل واقعي**. ط١، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.

المراكشي، ابن البناء أبو العباس، (٧٢١هـ). **الروض المريع في صناعة البديع**. تحقق: رضوان بنشقرن، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ١٩٨٥.

المراكشي، ابن عذاري. **البيان المغرب في أخبار المغرب**. مكتبة صادر، بيروت.

المراكشي، عبد الواحد، (١٩٤٩). **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تحقق: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

مصطفى، أحمد أمين، (١٩٩٠). **أدب الوصايا في العصر العباسي إلى نهاية القرن الرابع**. مكتبة الأنجلو المصرية.

المفضل الضبي. **المفضليات**. تحقق: أحمد شاكر، ط٣، دار المعارف القاهرة.

المقري، أبو العباس أحمد بن محمد، (١٠٤١هـ). **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**. صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، ١٩٧٨.

المقري، أحمد بن، (١٩٩٧). **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**. تحقق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٨.

المقفع. **الأدب الكبير والأدب الصغير**. دار الجيل، بيروت.

ابن منظور، لسان العرب.

منيزل، منال، (١٩٨٥). **شعر أبي عبد الله بن الحداد الأندلسي**. تحقق: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١.

الموحدي، أبو بكر يحيى بن مجير، بحثري الأندلس. **الديوان**. تحقق: يوسف عيد، دار الفكر العربي، بيروت.

الميداني، أبو الفضل، (١٩٥٥). **مجمع الأمثال**. تحقق: محي الدين عبد الحميد، القاهرة.

ناجي، هلال، (١٩٩٤). **قصيدة أبي مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري**. ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن، (١٩٨٦). **المجتبى من السنن**. مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، تحقق: عبد الفتاح أبو غدة، عدد الأجزاء: ٨، الأحاديث مذيبة بأحكام الألباني عليها.

النقراط، علي محمد. **ابن الجيآب الغرناطي حياته وشعره**. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع.

النيسابوري، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم، (١٩٩٠). **المستدرک علی الصحیحین**. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، تحقق: مصطفى عبد القادر عطا، عدد الأجزاء: ٤، مع الكتاب: تعليقات الذهبي في التلخيص.

النيسابوري، مسلم ابن الحجاج أبو الحسين القشيري. **صحيح مسلم**. دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، عدد الأجزاء: ٥، مع الكتاب، تعليق محمد فؤاد عبد الباقي.

الهرامة، عبد الحميد، (١٩٨٣). **الأعمى التطيلي حياته وأدبه**. المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس.

هشام. **تهذيب سيرة ابن هشام**. تحقق: عبد السلام هارون، المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت.

الهمذاني. **الإكليل في أخبار اليمن وأنساب حمير**. تعليق: نبيه فارس، يرشتن.

يكن، محمد زهدي، (١٩٧٥). **المعتمد بن عباد وشعراء عصره**. دار يكن للنشر والتوزيع، بيروت.

الملخص باللغة الإنجليزية

RECOMMENDATIONS IN THE ANDALUSIAN LITERATURE

By
Huthaifa Abdullah Azzam

Supervisor
Dr. Salah Jarrar, Prof.

ABSTRACT

The aim of this study is to explore recommendations in the Andalusian literature in form and substance, to explain the difference of this art from other literature subjects, explain its particularity in terms of the general circumstance and its relation with the life of communities and individuals alike and to identify the construction and meaning distinguishing, it then to define the general subjects incorporated therein and then the most famous authors and poets of this art and its relation with oriental literature and the Arabic history in addition to its relation with religion.

The study discussed that in an introduction, preface, three parts and a conclusion.

The preface of the study presented some details about the history of recommendations in the Arabic literature and to discuss some oriental recommendations over the different eras of literature, then to show its relation with the Andalusia literature. It unveiled the Andalusian recommendation book indicating to the most important subjects of recommendations.

Part one discussed prose recommendations in the Andalusian literature in two chapters, the first of which dealt with prose recommendations and extended to cover three topics, namely social, religious and political recommendations while the second chapter was short and discussed the characteristics of the prose recommendations in general.

The second part dealt with poetic recommendations in the Andalusian literature under two chapters covered by three topics, which discussed poetic, social, political and religious recommendations. The second chapter of this part touched on the artistic characteristics of the poetic recommendations.

The third part represented an artistic study of two Andalusian recommendations in two chapters, the first of which was earmarked for analyzing the recommendation of Lisan Al Din Bin Al Khatib to his sons, explaining its content and analyzing its construction. The second chapter was dedicated for analyzing the recommendations of Abi Marwan Al Jaziri to his sons in terms of its construction and meaning.

The conclusion of the study incorporated the most important results, which the researcher reached.

Through presentation, the study was concluded in that the literature of recommendations in Andalus is an independent and self-existent art that deals with special subjects and its content presents in particular levels of construction, language, sentence and word. It is therefore an art that has its own eminent men who had contributed to other literary arts and is the one which incorporated poem and prose likewise.